رواية

نادية النجار

مَلمَسُ الضَّوء

مكتبة

المتوسط

مَلمَسُ الضَّوء

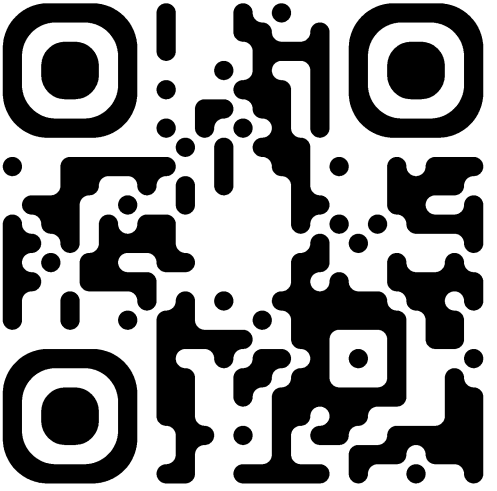

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

2024 منشورات المتوسط - إيطاليا.

حقوق التأليف © نادية النجّار 2024

مكتبة
t.me/soramnqraa

Malmas Al-Dhaoa *by* "Nadia Al Najjar"
Copyright © 2024 Nadia Al Najjar & **Almutawassit Books**

المؤلف: نادية النجّار / عنوان الكتاب: مَلمَسُ الضَّوء
الطبعة الأولى: 2024 / صورة الغلاف: getty images
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 979-12-5591-056-5

منشورات المتوسط
ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
www.almutawassit.it / info@almutawassit.org

نادية النجار

مَلمَسُ الضَّوء

مكتبة
t.me/soramnqraa

المتوسط

أعمَى .. ذاك الذي لا يرى سوى ما يودُّ رؤيته

باب الصوت

1

كاد أنْ ينطفئ

مكتبة
t.me/soramnqraa

أفتحُ عينيّ .. لا شيءَ يتغيّر. أغمضهما. لا شيء يتغير. يتشابه يومِي، وأمسي، وعلى الأرجح غدي. لا شيء أنتظره. لا شيء ينتظرني. أبقى مستلقيةً. دفءٌ يسري في الناحية اليسرى من جسمي الأقربِ إلى النافذة. ضجيج أعمال بناءٍ يُصاحبني كلّ صباحٍ في هذا الوقت. أُخمّن بأنَّ الشّمسَ أشرقَت. أتحسّسُ هاتفي المحمول على الطاولة الجانبيّة قرب السرير؛ السبت، السابع من ديسمبر، السابعة وأربع عشرة دقيقةً.

أفكّرُ في يومي المُقبِل هذا، قبلها أمس، ثمّ غد، وبعد غدٍ. أرقامٌ تتغيّر ولا شيء آخرَ. أفكّر بمَنْ حولي. امرأةٌ ما عدتُ أتيقّنُ عنها أمراً سوى أنّها أمّي، وجَدٌّ يرافقه صمتٌ غامضٌ يُشبه بدلته العسكريّة ونياشينه القابعة في الدولاب وأقراصه المنوّمة، وأبٌ ما تركَ لي شيئاً سوى اسمه وعبق دُهن عوده، وجَدَّةٌ وحيدةٌ بيني وبينها جدارٌ يزداد سُمكاً يوماً بعد يومٍ. وهنالك حكايات إيفلين المكرّرة التي ما عادت تُدهشني. لا شيء من ذلك يدفعني كي أستيقظ.

أعاود النّوم. أسمعُ هديرَ جهاز التّكييف يُصاحبه هواءٌ باردٌ. أشدّ اللحاف نحو ذقني. أنقلبُ على جانبي الأيمن كما علّمتني جَدَّتي نورة: هذي سُنَّة نبيِّنا محمّد - عليه الصلاة والسلام -. هواء المكيّف ينفثُ في وجهي. أرفعُ اللحاف أكثر. أغطّي فمي ونصف وجهي السفليّ. أتخيّلُ كيف أبدو. أظنّه مضحكاً. يا ليَ من بلهاء. فأنا لا أعرف حتّى كيف أبدو. أتقرفص. ركبتاي تكادان تلامسان صدري .. وأنام.

أُناديها. لا مُجيب. أصيخُ السمع. لا أسمعُ سوى أنفاسي اللاهثة. أرفعُ صوتي: إيفلين .. إيفلين. الصمت ذاته. أبقى في مكاني. لا أتحرّك. صوتٌ بعيد. هدير محرّك سيّارة - أو ربمّا درّاجة - يعلو. أصرخ. لا أسمَعُني. أسمعُ ذاك الصوت فقط. أتقدّمُ خطوتَين. أفردُ ذراعَيّ أمامي. الصوت يعلو. أدورُ حول نفسي، وأدور. أنادي إيفلين بأعلى صوتي. لا أسمَعُني. أتوقّف عن الدوران والصراخ. الصوت يلاحقني. أركضُ ويقترب. أسرعُ ويُسرِع. أركض. يصدمني. ينصهرُ الصوت في أُذُنيّ.

أنتفض. أقوم. أرفعُ أعلى جذعي. عَرَقٌ ينزّ من أنحاء جسمي كلّها. أرمي اللحاف. أنفاسي سريعةٌ ومضطربة. أسمعُ ضرباتِ قلبي بوضوح. أحرّكُ أطرافي. أسمعُ صرير السرير. أمسحُ وجهي بطرف كُمّ منامتي. برودةٌ تلامس وجهي. أستلُّ نَفَساً عميقاً. تهدأُ ضربات قلبي شيئاً فشيئاً.

أُنزِلُ قدمَيّ. أقفُ حالما أشعرُ بمَلمَس السجّاد على باطنهما. أسيرُ نحو الحمّام. ثلاث خطوات إلى اليسار، وعَشر إلى اليمين. أكبِسُ زرّ الإنارة؛ عادةٌ أقوم بها لسبب لا أفهمه. أدخلُ، وبعد ثلاث خطوات أدور جهة اليمين. أتحسّسُ الصُّنبُور. أحرّكُ المقبض البارد. ينهمرُ الماء. أغسلُ يديّ. الماء البارد ورائحة الليمون المنبعثة من الصابون السائل يُنعشانني. أغسلُ وجهي. أتلمّسُ السطح الرخامي البارد يميناً. ألتقطُ فرشاة الأسنان والمعجون. أضعُ الفرشاة مستقيمةً، تاركةً شعيراتها نحو الأعلى. أنزع غطاء أنبوب المعجون. أتلمّسُ مقبضَ الفرشاة بيُسراي، واضعةً سبّابتي على شُعيراتها الخشنة. أُقرّبُ الأنبوب بيمناي نحو قِمّة الفرشاة. أشعرُ بمَلمَسه على طرف إصبعي، فأعصره على مهل. يخرجُ المعجون ويبقى شيءٌ منه على إصبعي. أضعُ الفرشاة جانباً. أمسحُ بباطن كفّي المساحة على يميني باحثة عن غطاء المعجون. أجدُه. أعيدُه إلى مكانه. ألتقطُ الفرشاة. أرفعها

وأفرّش أسناني. لا أحبّ مذاق المعجون الجديد في فمي. أُذكّر نفسي بضرورة إخبار إيفلين أن تشتري النوع الذي اعتدتُ عليه. أجفّفُ يدَيّ ووجهي بالفوطة المعلّقة على يميني. أدفعُ الباب. أخرج. أتّجه يميناً نحو باب الغرفة. أفتحه. يصلني صياح إيفلين من المطبخ، تتشاجر كعادتها. أناديها. يزداد صياحُها حِدّةً. تتذمرُ من العاملة الأخرى في البيت: إنها كَسول، أنا أؤدّي المُهمّات كلّها في هذا البيت. أتجاهل تذمّرها؛ فهي كعادتها تبالغ.

أعرفها من رائحتها، مزيج من صابون دوف وكريم نيفيا وديتول. تسبقني وتدخل الغرفة. صوت ستائر تُفتَح. أجلسُ على الأريكة القريبة من النافذة.

رائحة كريم نيفيا تتكثّف. يمسّني حفيفُ هواءٍ من نفضِ الشراشف. تسألني: ماذا تريدين للإفطار؟ أجيبها: كالعادة. تتذمّر: كلّ يوم .. كلّ يوم .. ألَا تملّين؟ ألَا تجرّبين شيئاً جديداً؟ أصمُت. مللتُ من هذا السؤال وما مَلّت. لا أعرف بماذا أجيبها. لا أجرؤ على تجربة أطباق جديدة منذ طبق السباغيتي. تختفي الجَلبة ورائحة النيفيا.

أسترجعُ يوم السباغيتي. لا أظنّني تجاوزتُ حينها الحادية عشرة من عمري. خرجتُ مع أبي وعائلته إلى مطعم إيطالي. سألَني النادل عن طلبي. ارتبكتُ. لم أعرف ماذا أطلب. خرجَت منّي كلمة سباغيتي، التي سمعتُها قبل لحظات من أخي، لتُنقذني. ربّما راق لي أيضاً وقع الاسم الغريب للطبق، فأردتُ أن أجرّبه.

بعد فترة، ازدادت وتيرة قرقعة الصحون حولي. وضع أحدهم شيئاً أمامي، رائحته قوية تُشبه مرقة الدجاج التي أحبّها. إذن هذا هو السباغيتي. ضجَّ المكان بقرقعة الملاعق والشوك بالصحون. انشغل الجميع. التفتُّ

يساراً صوب أبي. تداخل صوته مع زحزحة كرسيّه. آه .. نسيتُ. تمتم معتذراً.

اقترب. رائحة الطعام طغت على رائحته. أحكَمَ وضع المنديل حول رقبتي. قرَّب الكرسي الذي أجلس عليه نحو الطاولة. ناولَني شيئاً: خذي الشوكة.

أدخلتُها فمي. تحرّكت الأصابع الطويلة، كأنها حبال أو شعيرات لزجة. شعرتُ بالقرَف. كانت تتحرّك. لم أجرّب شيئاً كهذا من قبل. قرّرتُ ابتلاع ما بفمي دفعة واحدة؛ لأتخلّص من ورطتي. انحشرَت الأشياء الطويلة اللزجة في مكانٍ ما. سعلتُ. واستفرغتُ ما بجوفي. ضجَّ المكان بأصواتٍ متداخلةٍ. صاحت زوجة أبي: قلتُ لكَ، تُوقِعنا دائماً في مشكلاتٍ! مسحَ وجهي وملابسي بمنديلٍ ومحارم ورقية.

سمعتُه يعتذر لامرأة، هي على الأرجح نادلة. أمسكَتْ بيدي، وجذبتني نحوها. بقيتُ في مكاني. ربَّت أبي على كتفي: سيري معها. سمعتُ كلامه. مشيتُ متوجّسةً. أدخلَتني الحمّام. غمرَت وجهي بماءٍ بارد. لا أظنّها لاحظَت دموعي وهي تفعل ذلك. نظّفَت بالصابون ما اتّسخ من ملابسي، وجفّفَت ما استطاعت بمحارم ورقية. كانت لطيفة. مسحَت شَعري ورطنت بكلامٍ لم أفهمه. أعادتني. طلبت منها زوجة أبي أن تأخذني إلى طاولة أخرى. جلس أبي بجانبي. سألَني أكنتُ بخير؟ أومأتُ بالإيجاب. تأسّف للنادلة مرّة أخرى وشكَرها. لم آكل شيئاً. ألحَّ. تعلّلتُ بألمٍ في بطني. اكتفيتُ برشفاتٍ من الماء. ظللتُ صامتة وأنا ألتقطُ ضحكات وأحاديث إخوتي الثلاثة على الطاولة المجاوِرة.

ذلك المساء، بعد أن أعادني أبي إلى البيت، سألَتني أمّي عن أُمسيَّتي

برفقتهم. اخترعتُ لها أحاديثَ تبادلناها، وبالغتُ في وصف طيبة زوجة أبي ورقّتها، وعددتُ لها الأطباق التي جربتُها، ومنها طبق السباغيتي اللذيذ. عرفتُ أنني نجحتُ في إثارة غضبها وغَيْرتِها عندما قامت ودخلت غرفتها. نمتُ ليلتها جائعةً. وحلمتُ برائحة شريحة التوست بالجبنة الذي تُعدّه لنا عاملة البيت الجديدة إيفلين. في اليوم التالي أعدَّت أمّي سباغيتي للغداء. لم أقترب من الطبق. سمعتُها تتذمّر لجَدَّتي: لا يعجبها أيّ شيء منّي .. لا أعرف كيف أتعامل معها!

رائحة التوست الساخن مع الجبنة الذائبة تغمر المكان. تُناولني إيفلين الشطيرة المقرمَشة. آكلُ بشهية. تقول: أعددتُهُ بنفسي. أعرف. كيف؟ أنتِ تضيفين قليلاً من المايونيز مع الزبدة. أيناقو(*) .. أنتِ كلبٌ بوليسّي. وتضحك. تصمت فجأة، وتسأل كأنها تذكّرت شيئاً: هل تذكرين سيف؟ أيّ سيف؟ ابن عمّكِ، وهل تعرفين غيره؟ ما به؟ طلب رَقْم هاتفكِ. تقولها بنبرةٍ خافتة. أسألُها بالنبرة ذاتها: ماذا يريد؟ لا أعرف، قريبتي التي تعمل عندهم طلبت منّي الرَّقْم. وهل أعطيتِها؟ تجيبُ بصوتٍ عالٍ، وكأنها تُبعد تهمة أُلصقَت بها: كلّا بالطبع، كيف أعطيها قبل أن أستأذنكِ؟ أتسلّى بردّة فعلها، فأنا أعرف أنها كاذبة. أسألها: ما رأيكِ؟ ما المانع، لعلّه يريد شيئاً، ثمّ إنه ابن عمّكِ، وربمّا .. أقاطعها: وربمّا ماذا؟ أنتِ لا تدركين مقدار جمالكِ. وهل يهمّني ذلك؟ ثمّ ما معنى الجمال الذي ترونه؟ أووووه لا وقت عندي أضيّعه معكِ، هذا ما تعلّمته من هذه الأشياء التي تسمعينها طوال اليوم؟ حاضر آتي(**)، لن أسمع بعد اليوم أيّ كتابٍ، سأقود سيّارتي إلى دبي مول، هل سترافقينني؟ أو ما رأيكِ أنْ نذهب إلى السينما ونشاهد الفيلم الذي أخبرتِني عنه؟ نسيتُ اسمه، آه تذكّرتُ، فيلم الجوكر. تتأفّف،

*) كلمة تُستخدم لإبداء التعجّب في الفلبين.

**) الأخت الكبيرة باللغة الفلبينية.

وتغيّر الموضوع كما تفعل دائماً: سأذهب الآن قبل أن تستيقظ أمّكِ، ليتها تعمل أيضاً في الإجازات. ثمّ تستدرك: انتظري مكالمته.

يُغلَق الباب. ألمسُ شاشة الهاتف. الثامنة وثلاثٌ وأربعون دقيقة. ما زال الوقت مبكّراً على موعد استيقاظ أمّي. أفكّرُ في الكتاب التالي، بعد أنْ أنتهي من كتاب "غَرَق الحضارات" لأمين معلوف. أكثر ما أخشاه، حياة تخلو من هذه الكُتُب، يا ترى كيف ستمضي؟

ينبّهني الهاتف على رسالةِ واتساب صوتية من رَقْم غير مسجّل. أسمعها. إنه سيف: السلام عليكم نورة .. أنا سيف، أريد أن أكلّمكِ، هل الوقت مناسب؟ تخترقُ ذاكرتي رائحة همبا(*)، وصوتٌ يُشبه هدير البحر. سألتُهُ مرّة في البيت الكبير حين كنّا أطفالاً: كيف كان طعم الهمبا؟ أجابني متعجّباً: أنتِ تشوفين؟ لا ما أشوف. كيف عرفتِ أني أكلتُ الهمبا؟ من الريحة؟ بس غسلتُ يديَّ بالصابون. وأنا شممتُ ريحة الهامبا. ثمّ اختفى لدقائق وعاد لاهثاً. أعطاني شيئاً بيضاويّاً ناعماً. قال: خذي.

منذها ورائحة الهمبا تذكّرني به وبطفولتي في بيت جَدَّتي مريم. ولكنْ، ماذا يريد بعد هذه الأعوام؟ لا يُمكنني حتّى أنْ أُخمّن. أجيبه برسالةٍ من كلمةٍ واحدةٍ: مناسب. سرعان ما رنَّ الجوال، تركته يرنّ عدّة مرّات قبل أن أجيب: ألو سيف. نورة كيف حالكِ؟ بخير، أخبرَتني إيفلين أنكَ تبحثُ عن رَقْمي. آسف بس هذي الطريقة الوحيدة لأجدكِ. عادي، لا تُشغل بالك.

أسكتُ. أنصتُ إلى أنفاسه. يقول: ما أعرف كيف أبدأ؟ عادي .. أخبرني. أنا مهتمٌّ بالتصوير ومنذ فترةٍ جمعتُ صور العائلة القديمة، وسمعتُ أنَّ جزءاً كبيراً منها عند جَدِّكِ سالم، خال أبويه. صحيح، لكن، ما سألتُهُ عنها، ومن الطبيعي أنها ما تهمّني.

---

*) فاكهة المانجو.

سكتَ قليلاً ثمّ قال: كيف أقدر أشوفها؟ هل تريد أن أسأل أبويه سالم عنها وأطلبها منه؟ تعرفين أنَّ العلاقةَ انقطعت بيننا بعد وفاة خالكِ سعيد، أقصد بين العائلتَين. أسكتُ للحظات ثمّ أجيبه: ما لك ذنب، وما يخصّك في الحادثة. يتنهّد ثمّ يسأل: أتظنّين؟ أنا متأكّدة. ما أظنّ جَدَّكِ يفكّر مثلكِ، أحسن ما يعرف أني كلّمتكِ. وكيف أطلب منه الصُّور؟ أقول له مثلاً: أبويه سالم ممكن أشوف الصور؟ ينكسر صوته، ويقول: أوه، كيف فاتني ذلك؟ آسف.

يعدني أنْ يفكّر في طريقة لن يشكّ بها جَدِّي حين أطلب منه الصور. يُنهي المكالمة سريعاً. أبحث عن المدّة التي استغرقتها: ثلاث دقائق وعشرون ثانية.

سيف، من أين أتيتَ بعد هذه الأعوام كلّها؟ رأيتُكَ آخر مرّة في بيت العائلة الكبير عند جَدَّتنا مريم، قبل أكثر من عشرة أعوام. كان يومَ عيدٍ، وكنتُ أنتظر أبي. لبستُ ثوبي الجديد، أخبروني أنَّ لونه أزرق كالبحر، نُقشَت عليه ورود صفراء كالليمون. ثوبي بحرٌ وليمونٌ، مالحٌ وحامضٌ. خليطٌ عجيب أحببتُهُ. جلستُ في زاويةٍ بمجلس جَدِّي سالم العامر بالنساء والأطفال. يُحيط بي ضجيجٌ لا يهمّني، وفي أعماقي ضوءٌ هادئ أريده بشدّة. الواقع أنّني لا أعرف ما الضوء بالتحديد، لكنّي كنتُ أُدركُ بأنه شيءٌ جميلٌ. في تلك اللحظة شعرتُ بأنّ أبي قد يكون الضوء.

انقضى صباح العيد ولم يأتِ، وما توقّفت تعليقاتُ أمّي: أناني .. ما تغيَّر .. ما يفكّر إلّا في نفسه .. بعدكِ تُصدّقينه وتنتظرينه؟ تجاهلتُ كلماتها. كنتُ أدركُ أنَّ زياراته تباعدَت، ولكنْ، يستحيل أنْ ينساني يوم العيد. كنتُ أعرف ذلك، بل متأكّدة. لقد وعدَني. قبل انقضاء النهار أخذ كلّ طفلٍ عيديّته. تفرَّق الجميع، وخفَّ الضجيج. بعد مغيب الشمس

وصَل. ضحكَت أمّي ضحكةً قصيرةً مبتورةً كلسعةِ بعوض، حين أظهرتُ حماسي لمجيئه. تذمَّرَت كأنّها تخاطبه ويسمعها: ما الفائدة من تشريفكَ الآن؟ خلص العيد خلاص. تجاهلتُها ومضيتُ إليه.

أوصلتني إيفلين إلى سيّارته. اعتذر عن تأخُّره. خطرَ لي أن أخبره أنّني ظننتُه ضوءاً، وكاد أن ينطفئ، لكنّي عدلتُ. كانت الشوارعُ مزدحمةً، على الرغم من ذلك ظلّ صامتاً طوال الطريق، حتّى إنه لم يُشغّل الإذاعة على إحدى المحطّات المحلّية التي يستمع إليها غالباً. كنتُ على وشك أنْ أبدأ معه حديثاً في أثناء انتظارنا عند إحدى إشارات المرور، إلّا أنه ردَّ على مكالمةٍ هاتفيّةٍ أخذت منه مسافة الطريق المتبقّية. وصلنا إلى بيت جَدَّتي مريم. عايدتُ عليها، وأجلستني جنبها. بعد قليل دخلتَ، يا سيف. ألقيتَ السلام بصوتٍ خافتٍ. أجبتكَ بصوتٍ طغى عليه صوتُ جَدَّتي الجَهْوَريّ وهي تُحدّث أحدهم. لا أظنّكَ سمعتني. رائحتكَ تكثّفت حين اقتربتَ. لعلّكَ كنتَ تنظر نحوي، حين قلتُ: عيدكِ مبارك نورة. ما كنتُ أشعر إلّا برائحة الهمبا حين أجبتُكَ: علينا وعليكم، وعساك من عوّاده. أجلستْكَ جَدَّتي عن يمينها وأنا عن يسارها. تَنَصَّتُّ على كلماتكَ وهمهماتكَ القليلة. احتفظتُ بها في ذاكرتي كيلا تتسرّبَ. ثمّ استأذنتَ، وانطفأ الهدير. دُونَ الجميع بقي صوتُكَ في ذاكرتي هدير بحرٍ، ورائحتكَ فاكهة الهمبا. سمعتُ زوجة أبي تهمس لأخرى لا أعرفها: تخيّلي، ما تُشاركنا الكلام ولا الأكل. أكملت رفيقتها: ليست هيّنةً أبداً، أكيد أمّها علّمتها أن تتسمَّع وتنقل لها الأخبار كلّها، احذري منها. ما عادت تطلع معانا خلاص، ارتحنا منها، بس تأتي من عيدٍ إلى عيد. ظللتُ في مكاني متفاديةً الكلام والحركة قدر الإمكان. لا ينتهكُ شرودي سوى صوت جَدَّتي وهي تُحدّث أحدهم، أو همسات تقصدني.

في الطريق طلبتُ من أبي ألّا يأخذني إلى بيت جَدَّتي مريم مرّة أخرى.

ظننتُه سيسألني عن السبب. لم يعارضْني. تمنّيتُ لو سألني، لو مانَع أو حتّى افتعل ذلك، لكنه قال بكلّ بساطة: مثلما تحبّين، إن كان يريحك. شعرتُ وكأنَّ أحَدهم صبَّ ماءً بارداً على رأسي. وددتُ أن أجيبه: ويريحكَ أيضاً، أو لعلّني أجبتُهُ بذلك دون أنْ أعِي.

بدأ الضوء يخفتُ في أعماقي. كان للضوء رائحة أحبّها لم تتغيّر. دهن عود معتّق على لحيته الكثيفة، وعطر لا يُغيّره. عرفتُ اسم عطره من إيفلين. لديها أجوبة لأسئلتي كلّها، حتّى إن اضطرّت إلى أن تخترعَ واحدة. كنتُ أرشُّ عطره على وسادتي كلّ مساء، وعندما تأخّر ذات يومٍ رميتُه. وعدني أنْ نخرجَ معاً، وهاتفَني بعد ساعات انتظار تخلّلتها تعليقات أمّي، ليعتذر عن عدم حضوره ويبرّر ذلك بانشغاله. لم يكن الضوء يتحدّث كثيراً، يسألني الأسئلة الاعتيادية التي يسألني إيّاها أيُّ غريبٍ: كيف حالكِ؟ كيف المدرسة؟ كيف جَدُّكِ؟ هل ينقصكِ شيء؟ وأجوبتي لا تتغيّر؛ زينة .. بخير .. الحمد لله .. لا .. شكراً .. سلامتك. هو يعلم أنَّ جَدِّي متكفّل باحتياجاتي ومصاريفي كلّها. ما أحتاجه هو شيء آخر.

تطرقُ إيفلين الباب ثلاث طرقات متتاليات بالقوّة نفسها، وتدخل. تسأل: أظنّه اتّصل. أتصنّع البلادة: مَن تقصدين؟ سيف طبعاً، نورة، هل نسيتِ؟ لا، لم أنسَ. ماذا يريد إذن؟ لن أخبركِ. تناديها أمّي من الطابق العلوي. تتأفّف: يا إلهي، يجب أنْ أذهب. يبتعد صوتها وهي تقول: جهّزي إجابتكِ سريعاً. الباب يُغلَق، وبعد ثانية يُفتَح: سأعود. أضحك، ويخطرُ لي في هذه اللحظة أنني أتمنّى لو أنّها كانت أمّي.

أقضي بقية يومي في الغرفة. يستمرّ صياح أمّي المتقطّع حال نزولها. لاحقاً، تأتي إيفلين بالغداء إلى غرفتي. أسألها عن أمّي، فتخبرني بأنّها غادرتِ البيتَ. بعد صلاة العصر أعرّج على جَدِّي في غرفة مكتبه. يُجلسني

قربه. يُعطيني حلاوة البقر. هي حلاوةٌ بطعم الحليب، وأعرفُ أنَّ عليها صورةَ بقرةٍ. بعدها أكمل استماع كتابي الصّوتيّ، فيما هو يُتابع قنواته الإخبارية، كاتّفاقٍ غير معلَنٍ بيننا.

مساءً تصلني رسالة صوتية من أبي، يُذكّرني فيها بحضور عُرس أختي غداً. أسمعها. أتنهدُ ثمّ أرمي جوّالي على الطاولة الجانبية قرب السرير. ألقي بجسمي. أغمضُ عينَيّ. لا شيء يتغيّر. أفتحهما. لا شيء يتغيّر. ومضى هذا اليوم الذي يُشبه أيّامي كلّها.

2
ما فارقني ذلك الاحتراق

أنتِ السبب .. أنتِ السبب .. أنتِ السبب. أستيقظ. الكلمات تتردّد في أُذُنيّ. كان صوت جَدِّي عالياً كما لم أسمعْه من قبل. حلقي جافٌّ. هدوءٌ مُطبِق. أتجرّعُ ماءً من القِنِّيْنَة البلاستيكية على الطاولة الجانبية لسريري. أسمعُ الماء ينساب في حلقي. أعيدُ القِنِّيْنَة الفارغة. يصلني صوت ارتطامها على الطاولة الخشبية. ألقي جسمي على السرير. رقبتي متعرّقة، وخُصلات شَعري ملتصقة بها. جفناي ثقيلان. أعود إلى النوم.

ويبدأ يومي ككلّ يوم. تدخلُ إيفلين مع توست الجبن دون أن تسألني هذه المرّة. تجلسُ قربي على الأريكة: طلبت منّي أمُّكِ أن أعلمكِ بقدوم مصفّفة شَعر وخبيرة تجميل الساعة السادسة مساءً. وما شأني بذلك؟ كي تتجهّزي للعرس، هل نسيتِ؟ أخبريها أن لا داعي لذلك. نورة، من الأفضل تجنّب خلق مشكلاتٍ معها.

لا أردّ، وأترك الموضوع لوقته. قبل السادسة تدخل إيفلين، ومعها السيّدتان. تصلني خشخشة أكياسهما وفضّ حاجياتهما. أطلبُ منها أنْ تخبر أمّي بأني لا أرغب في وضع مساحيق تجميل على وجهي. يأتيني ردُّها من جهة الباب، سريعاً وحادّاً كإبرةٍ تخترق قماشاً دون رحمة: هل تريدين إحراجي وتسيرين العرس بدون زينة؟ أظلُّ صامتة. صوتها يعلو أكثر: الناس ستقول ما وضعت حمرة أو حتّى كحلاً لابنتها. أجيبها بلا مبالاة: كلام الناس .. هذا ما يهمّك. تصرخ: عمياء وعنيدة. ثمّ تصفق الباب بشدّة. تخرج

خلفها خبيرة التجميل غاضبةً: ضيّعتِ وقتي. لا يُمكنهم استيعاب جدوى أن أضعَ مساحيق على وجهي لا يُمكنني تخيّلها ولا لمسها.

أكتفي بتسريح شَعري. أطلبُ من المصفّفةِ أن تتركه منسدلاً. يخترقُ صوت مجفّف الشَّعر أُذُنيّ، فأطلب منها أن تُبعده. تتأفّف. تُنهي عملها سريعاً، ثمّ تلمُّ أغراضها، وتخرج. تساعدني إيفلين على ارتداء فستاني. تقول إنه يماثل تماماً لون أوراق شجر الموز على أرض جَدِّها في لاجونا، ثمّ تصفُ أشجار جوز الهند الطويلة، ومَلمَس ثمارها، ومذاق المانجو الطازج والموز، وحقول الأرز الشاسعة، وصياح الديكة أوّل الصباح، وخوار الأبقار، ووقع الأمطار طوال الليل على الأسطح، وبيوت الكوبو المصنوعة من سيقان البامبو وأوراق جوز الهند. تسترسل وهي تُلبِسُني عقداً. أمّا الحجر الذي يتوسّط عقدكِ، فلونُه يماثل لون فاكهة الأناناس، وتُعيد سرد حكاية الفتاة بينا المدلّلة التي تحوّلت إلى ثمرة أناناس بعد أن تمنّت أمّها أنْ ينبتَ لها ألف عين، لتتمكّن من رؤية الأشياء. حين حكت لي تلك القصّة أوّل مرّة قبل أعوام كثيرة مضت، لم تُجب عن سؤالي: أكانت تلك العيون تُبصر؟ اليوم أعدتُ عليها السؤال ذاته. أجابت: أيناقو نورة، إنها قصّة شعبية عندنا وليست حقيقة، وعيون الأناناس بالطبع لا تَرى. إذن، فعيناي تُشبهان عيون الأناناس. تتأفّف، ثمّ تقول بحدّة: يكفي نورة .. سأذهب لأُحضر العباءة والشيلة.

أحبّ عباءتي المصنوعة من قماش الدانتيل المخرّم، يمكنني تخيّل تفاصيلها وتعرّجاتها حين ألمسها. أضع الشيلة على رأسي. أرشُّ مِن عطري الذي أحبّه: مزيجٌ من المسك والفانيليا والعنبر.

أخرجُ من الغرفة. أعرفُ أنّ أمّي في الصالة تراقبنا. نتّجه إلى السيّارة. أظنّها ما تزال تراقبنا، ولسببٍ لا أعرفه لم أسأل إيفلين. في الطريق تصلني رسالة من أبي، ليتأكّد من حضوري، لا أردُّ عليها.

يُنزلنا السائق عند مدخل الفندق. يستقبلني هدير سيّاراتٍ وضجيج بشرٍ ورطانة بلغات مختلفة. أسيرُ متثاقلة. أهمسُ في أُذُنها: آتي، لنرجع. سيغضب والدكِ. أقف: سأبحثَ عن عُذر، أيّ عذر. عليكِ أن تطيعي أباكِ. ولماذا يجب أن أطيعه؟ لتكوني ابنة صالحة وطيّبة. ثمّ ذكّرتني بحكاية الفتاة مانجا التي زرع سكّان قريتها قلبها الطيّب بعد وفاتها، فتحوّل إلى شجرة، وأثمرت فاكهة المانجو. وهل تقصدين أنَّ أبي وزوجته سيُخبران الجميع بعد وفاتي بأنّ نورة كانت فتاة طيّبة ومطيعة: حتّى إنها حضرت عُرس ابنتنا مع أنّها عمياء ولم يطلبها أحدٌ للزواج، وتؤذيها الأصوات العالية، بعد أنْ أكونَ قد شبعتُ موتاً، آه، نسيتُ، ويزرعان قلبي؟ يا لها من نهايةٍ مثاليّةٍ سعيدة! تتأفّف: إنهم يُحدّقون نحونا، هيّا بنا. وتسحبني من يدي. نقترب من مدخل قاعة الزفاف. أجفل. أزدردُ ريقي. تتذمّر إيفلين. ما بكِ؟ هذه المرّة أزدردُ ريقي بصعوبة: لا أدري .. قلبي يخفق بقوّة. اهدئي وخذي نَفَساً عميقاً.

إنها المرّة الثانية التي أحضر فيها حفل زفاف. المرّة الأولى ذهبتُ فيها مع أمّي. ربمّا كنتُ حينها في العاشرة من عمري. أذكرُ موسيقى صاخبة، وصياحَ نسوة، ورائحةً غريبة، وقرصاتٍ أعلى زَنْدي، وتوبيخاً مستمرّاً. هذا الحريق بسببكِ! ماذا فعلتُ لأُبتلَى بكِ؟ عرفتُ أنني اصطدمتُ بشمعةٍ مشتعِلة، فوقعَتْ وأحرقتْ جزءاً من الكوشة. سرعان ما تمَّ تدارك الأمر، وأُطفئ الحريقُ. عرفتُ أنَّ للاحتراق رائحةً تُشبه رائحة سجائر جَدِّي، وصوتاً يُشبه صياح أمّي، وألماً يظلّ لأيّامٍ على الزنود.

هيّا بنا. تسحبني إيفلين مِن ذاكرتي إلى مدخل القاعة. تستقبلنا رائحة عطور قوية وبخور، وأصوات متقاطعة لنسوة من النَّبرات كلّها، لا تميّز أحدها حتّى يغشاكَ صوتٌ غيره. تضعُ إحداهنَّ يدها على كتفي. ترحّب

بي بنبرةٍ لطيفةٍ لا تُشبهها: حبيبتي نورة عقبال نفرح فيكِ. تضمّني بقوّة. رائحة سبراي الشَّعر وعطوراتها وأنفاسها تخترقني دون استئذان. قرطها الكبير يحتكُّ بأرنبة أنفي، وخُصلات شَعرها تتعلّق بشفتَيّ، ورطوبة خَدِّها تلتصق بخَدِّي. إنها زوجة أبي. أتلعثمُ من الدهشة، وأسأل نفسي: أهذا حقّاً صوت تلك الماكرة؟ تمسكُ بيدي وتأخذني إلى جَدَّتي: عمُّوه .. هذي الغالية نورة وصلت. أنحني، وأقبّل رأسها. تحييني بصوتها العالي، وتطلب منّي الجلوس قريباً منها. تُعرّفني إلى رفيقاتها بين حينٍ وحين: هذي حفيدتي نورة. جَدَّتي مريم كما هي دائماً، لا تتغيّر. ليست ودودة ولا شرّيرة. قليلة الكلام وحريصة عند الحديث معي، تُشبه في ذلك أبي. أشعرُ بأن هنالك حاجزاً بيننا يكبر مع الزَّمن، ويمنعني من فهمها.

يستمرّ توافد النساء. أضيع بين الأصوات المتداخلة والروائح القوية. يعلو صوت جَدَّتي منادية إيفلين، لتصطحبني إلى القاعة، فالعروس ستدخل بعد قليل. تأخذني معها وهي تُتمتم غاضبة: تتصنّع الطيبة أمام الناس هذه اللئيمة .. راقبتُها جيّداً. أعرفُ أنها تقصد زوجة أبي، ثمّ ترطن شيئاً بلغتها. أسألها: ماذا قلتِ؟ تقتربُ من أُذُني، وتقول بالإنجليزية: أكرهها. ندخل القاعة. أصوات الفرقة صلبة قاسية تطرق أُذُنيّ كتهشّم زجاجٍ على الرخام. أطلب منها أن تختار طاولة بعيدة عن مصدر الصوت.

تتوقّف الفرقة. تصدح أُغنيَّة لحسين الجسمي. ذلك أفضل بكثير. تهمس إيفلين مرّة أخرى، في الواقع هي تصرخ كلّ مرّة، ولكنّه يبدو كهمسٍ بالنسبة إلى الصّخب حولنا: أنتِ أجمل منها. لا أكترث، ولا رغبةَ لي أن أخبرها وسط هذا الضجيج بأنها هي مَن تزوّجَت لا أنا، مع أنها تصغرني بخمس سنوات، ثمّ مَن هذا الذي يريد أن يتزوّج عمياء وإن كانت فائقة الجمال كما تقول. أرغبُ بشدّة أنْ يمضي هذا اليوم وينتهي الأمر بسرعة.

تعاوِد الفرقة الغناء، ولكنْ، هذه المرّة تُصاحبها قرقعة صحون وملاعق ورائحة طعام. تأكل وهي تحاول إقناعي مشاركتها.

وحدي أشعرُ بفراغٍ وسط هذا الصخب. أصطدمُ بأصواتٍ لا معنى لها، وأتنشَّقُ روائح قوية لا تُشبه الطبيعة. يشارف الحفل على الانتهاء بأُغنيَّة: يا معيريس عين الله تراك .. القمر والنجوم تمشي وراك، معلنةً بذلك عن دخول العريس مع بعض من أقربائه الرجال. تنتهي الأُغنيَّة، ومعها نغادر القاعة. أنتظره في الممرّ الذي يُفضي إلى البَوَّابة الخارجية. تقترب إيفلين منّي، وتقول: ها هو يتّجه نحونا.

تغمرني رائحة دهن العود حالما يضمّني، فتُزيح الروائح الأخرى كلّها. تولّهتُ عليكِ، يقول. أودُّ أنْ أبقى في حضنه. مضت ثلاثة أشهر منذ أنْ رأيتُهُ آخر مرّة، بعدها سافر بصحبة زوجته وأبنائه. يسألني هل وصل السائق؟ أُومِئ برأسي بالإيجاب. يوصلني إلى السيّارة. أتمنّى أن يُقلّني بنفسه، أو يطلب منّي البقاء قليلاً، ولو أنْ يطيل الحديث بكلامٍ لا معنى له. لو يفعل أيَّ شيء لأظلّ معه. ألم يقُل قبل قليل: تولّهتُ عليكِ أم أنه لا يعني ما يقوله؟! لكنه يودّعني بكلماتٍ مقتضبة، ويطبعُ قبلة سريعة على جبيني. باب السيّارة يُغلَق، ومعه تختفي رائحة دهن العود.

في طريق العودة، تسردُ إيفلين تفاصيل الحفل بحرّية. صوتها عالٍ، وكأنها ما تزال هناك. العروس نحيلة جدّاً .. أنفها كبير مثل أمّها .. لا أعرف ما الذي أعجبَ والدكِ فيها .. فستانها لم يعجبني .. أظنّه أثقل من وزنها .. لم أرَ في حياتي عقداً مثل عقدها .. أحجاره كبيرة وبرّاقة .. يلمع من بعيد .. كلّ شيء كان يلمع في الحفل من الفساتين والعقود والوجوه .. الحلويات كانت لذيذة .. لم أستطِع أن أجرّبها كلّها .. أنتِ لم تأكلي شيئاً منها .. ماذا سيفعلون ببقايا هذا الطعام؟ أتمنّى ألّا يرموها .. إنها تكفي

لإطعام قريةٍ عندنا .. أنتِ أجمل منها بكثير .. هو أوسم منها .. المسكين صرف الكثير .. أظنّهم أثرياء .. أليس كذلك؟ أم ربمّا دفَع والدكِ هذا كلّه؟ زوجة أبيكِ تمشي كالطاووس .. رأسها فوق وترى الناس بطرف عينَيها .. مَن تظنّ نفسها؟ صحيح أني لا أحبّ أمّكِ، ولكنّها أجمل منها.

أعرف أنها ستنقلُ إلى أمّي تفاصيل الحفلة حالما نصل إلى البيت بطريقةٍ تُرضيها. أتجاوب معها بكلماتٍ مقتضبةٍ، فلا شيء من ذلك كلّه يهمُّني. بعد قليل أمسكُ بذراعها كي تتوقّف: لحظة آتي، ما بكِ نورة؟ إنه سيف. أفتح الرسالة الصوتية، يأتيني هدير البحر فرحاً. مرحبا نورة، تخيّلي حصلتُ على طريقة لتقنعي بها جَدَّكِ، سوف أخبركِ عنها صباحاً، تصبحين على خير. ويصمتُ الهدير.

3
ما وراء الصورة

أُحمّل في هاتفي المحمول برنامج سيينغ آي(*) الذي أخبرني عنه سيف صباح اليوم. أجربه. أصوّر غرفتي من كاميرا الهاتف. يخبرني البرنامج أنّ في الصورة على الأرجح سريراً ومخدّاتٍ بيضاء. أصوّر الطاولة الجانبية لسريري. يرى البرنامج قِنِّيْنَة ماء، وعلبة محارم فوق طاولة. أصوّر زوايا الغرفة، وأسمعُ تعليق البرنامج.

أناديها: آتي، تعالي بسرعةٍ لأريكِ هذا. تتذمّر: ما هذا الشيء المهمّ، نورة؟ عندي مهمّات كثيرة. لحظة .. لحظة سأريكِ .. قفي أمامي. أصوّرها. البرنامج يقرأ صورتها: امرأة، عمرها 35، شَعرها أسود قصير، تبدو سعيدةً. تشهق: رائع، نورة. أظنّها فرحة لأنَّ البرنامجَ أنقصَ عمرَها أكثر من 10 سنوات. أطلبُ منها أنْ تأخذني إلى جَدِّي لأخبرَه عن البرنامج.

أُعدّدُ لها مزايا البرنامج بحماس ونحن متّجهتان نحو باب الفيلّا. طقطقة كعب حذاءٍ على الرخام من ناحية السلّم. أُنصِت. رائحتها عطور شرقية مختلطة وبخور، لم تكن يوماً وفيّةً لأيّ رائحة، لكنْ، بطريقةٍ ما أُميِّز عطراً لا تُغيّره. أسمعها تناقش إيفلين في أمور تخصُّ البيت. لا تكلّمني، كأنني لستُ هنا. لا أدري هل تنظر نحوي أم لا؟ أسمع وقع كعب حذائها، وباباً يُعلَق. رائحتها تظلّ عالقة. تمسكُ إيفلين يدي: هيّا، لنذهب إلى بابا سالم. لا أتزحزح من مكاني. أهمسُ في أُذُنها بحرص: لا، آتي .. انتظري

(*) Seeing AI

حتّى تخرج. ما بكِ؟ ألم تسمعي الباب؟ أقول متشكّكة: ألا تشمّين رائحتها؟ تشدّني نحوها. تعالي، إنها ليست هنا. أتوجّس: هل أنتِ متأكّدة؟ تجرجرني معها إلى مكتب جَدِّي خارج الفيلّا وهي تتذمّر بِلُغَتِها.

رائحة أوراقه القديمة، وكُتُبه، وسجائره، تُشعرني بطريقةٍ ما براحةٍ. يقول: حيّا الله بنتي. الله يحييك أبويه، أقول ذلك وأنا أحاول تقبيل رأسه، لكنه يسحبني نحوه. أجدني في حضنه، أغمرُ أنفي في خَدِّه الخشن الحليق دائماً. أشمّ بقايا كولونيا ما بعد الحلاقة، ودخان سجائر. تستأذن إيفلين، وتغادر. يُجلسني قربه. ذراعه اليمنى تطوّقني. يظلّ صامتاً. بعد قليل يُزيحُ ذراعه، ثمّ أسمعُ كتاباً يُفتَح.

لم يكن هكذا قبل وفاة ابنه، خالي الأصغر سعيد. توقّفت أحاديثه. كسَره الفقد، وهو الضابط القويّ. أثقلت النياشين كتفَيه، وزهد فيها. صار يُمضي جُلّ وقته في مكتبه الملحق بالفيلّا يقرأ الصحف أو يتابع القنوات الإخبارية، وبين أشجاره في الحديقة الخلفية، وفي المسجد أوقات الصلوات. لم أتوقّف عن رفقته. أرافقه في صمته كما في صخبه. نستمع إلى أبو بكر سالم أو محمّد عبد الوهّاب أو أمّ كلثوم أو آخرين لا أعرفهم عندما يكون في مزاج جيّد. أحياناً نبقى هكذا جالسَين صامتَين، هو يقرأ وأنا أضع السمّاعة، وأستمع إلى كتابٍ صوتيٍّ أو ربمّا أُغنيَّة.

أزدردُ ريقي كلّ حين. ألتفتُ ناحيته. أتحيّنُ اللحظة المناسبة لأسأله. لا أعرف كيف أبدأ؟ أشعر بحركة الأريكة. شيءٌ ما يُوضَع على الطاولة، أظنّها صحيفة، يتبعه ماءٌ يُصبّ في كأس. أتشجّع، وأبدأ الكلام: أبويه سالم. يقاطعني على الفور: تريدين ماءً؟ لا .. أريد أن .. يقاطعني: أحسستُ أنَّ عندكِ شيئاً، أخبريني، يا بنتي، ما عندكِ؟ سمعتُ أن عندك وايد صور .. صور قديمة. تقصدين عكوس أبويه علي؟ إيه، كان يحبّ التصوير. أقدر أشوفها؟ لكنْ، كيف؟ يستدرك سريعاً: أكيد، يا بنتي.

سرعان ما أخبره عن البرنامج الجديد. أصوّره صورة سيلفي تجمعني به. يُحرّك الجوال كي نظهر معاً، يَطلبُ منّي أن أصوّر الآن. يعثر البرنامج على شخصَين، امرأة عمرها عشرون عاماً، شَعرها أسود طويل، تبدو سعيدة، ورجل عمره خمسة وثمانون عاماً، أصلع، يلبس نظّارة.

يضحك جَدّي بشدّة كما لم يضحك منذ زمن، يضحك حتّى يسعل: خيبة! كيف عرف برنامجكِ أني أصلع وكبَّرني عشر سنوات، وصغرَّكِ .. لا ما يصير. أردُّ عليه: وصغَّر آتي إيفلين في العُمر أكثر من عشر سنوات. قال ضاحكاً: أكيد هناك سِرٌّ ما أعرفه. أضحك معه. والبرنامج يقرأ الألوان، حتّى الجُمل بالإنجليزية، بس ما جرّبت. تعالي نجرّب، ماذا عندنا، يا ترى؟ هذي علبة محارم، أظنّها تنفع. يضعها أمامي. صوِّري. يقرأ البرنامج بالإنجليزية، مناديل ورقية ناعمة، 200 منديل مزدوج أبيض. عجيب، لم يتركوا شيئاً ما اخترعوه. ثمّ يُمسك بيدي، ويأخذني معه إلى أقصى يسار الغرفة. يخبرني أنّ هناك ثلاثة دواليب، بكلّ دولاب خمسة رفوف تحوي صوراً قديمة، ثمّ يقول: خذي العكوس على مجموعات، ثمّ أعيديها إلى مكانها. يدقُّ بعصاه على شيء، يخبرني بأنه صندوق خشبي يعود إلى أمّه يسمّونه مندوس، به رسائل وأوراق قديمة، وصورة وحيدة لجَدَّته ماري حنّا. أسأله متعجّبة: جَدَّتكَ اسمها ماري حنّا؟ إيه، وكانت من الشام .. كانوا ينادونها مارية، وتُشبهينها. أنا؟ يُكمل: ومثلكِ كانت حلوة. يسكت لوهلة، ثمّ يقول بصوتٍ أقرب إلى الهمس: وما تشوف.

إذن، ماري حنّا هي الجَدَّة التي أورثتني جمالاً لا يمكنني أن أراه، ولا حتّى فهم ماهيّته. أذكرُ عندما حكَت إيفلين إحدى حكاياتها عن الفتاة الجميلة المغرورة التي تحولَّت إلى سمكة، وسألتُها عمّا يعنيه الجَمال بالضبط، فأجابت بأنه شيء يصعبُ تفسيره، وكلٌّ يراه بنحوٍ مختلفٍ،

وأنّ أختها ماريسيل مثالاً هي الأجمل في عائلتهم، ولكنها الأقلّ حظّاً. حيَّرتني إجابتها أكثر، وازدادَ غموض مفهوم الجمال عندي، وارتبط بسوء الحظّ والغُرور، وبأنه شيءٌ يمنح صاحبه مَزِيَّة، مع أنه لا يحصل عليه من جهده وتعبه. أعود إلى جَدِّي، فأسأله: عندكَ صورة لها؟ أجاب: عكسٌ واحد. كيف شكلها؟ الصورة الخارجية ليست بتلك الأهمّية التي نظنّها. ما فهمت أبويه سالم، ماذا تقصد؟ يسعلُ قليلاً ثمّ يجيب: صورة الآخر مهمّة، ولكنْ، توجد أشياء أهمّ ما نشوفها، مثل مشاعره وأفكاره وأحلامه، فصاحب البصر يشوف الصورة، وصاحب البصيرة يشوف وراء الصورة. أتذاكى عليه، فأسأله: كيف أعرف ما وراء صور جَدِّي عليّ أو صورة جَدَّتي ماري حنّا مثلاً؟ يحيط ذراعه بكتفي ونعود جهة الأريكة، ويجيب: اسمعي عنهما، وتعرَّفي إلى قصص هذي العكوس. وكيف أعرف؟ هل تريدين أنْ تسمعيها؟ دون تفكير أجيبه: أكيد. كنتُ أريد أن أكسر صمته، وأيضاً لأعرفَ ما وراء تلك الصور التي يبحث عنها سيف.

يسعلُ سعالاً خافتاً يفتعله في العادة قبل أنْ يبدأ الحديث حول شيء مهمّ، ثمّ يقول كأنه يُحدّث نفسه: لو ما هبَّت الريح في اللحظة التي أشعلَت فيها تلك الخادمةُ النار .. لو أنَّ الرياح غيَّرت مسارها .. لو أخذتُ عبُّود إلى السوق .. لو تركتُه على دكّة الدكان .. لو طلبتُ منه أنْ ينتظرني في السوق .. لو أخبرتُهُ أنني أحبّه مثلما يحبّني. يصمتُ للحظاتٍ ثمّ يكمل بأنَّ والده عليّ ظلّ يُردّد تلك الجُمَلَ في أيّامه الأخيرة حتّى يسكن، تلمع عيناه وترتعشان، تنكمشُ اليمنى وتغوص في ثنايا جفنه المتهدّل، حتّى يظنّ الرائي أنّها مغمضةٌ. يستغفر كثيراً، ثمّ يقول: قدَّر الله وما شاء فعل.

يصمتُ مرّة أخرى كأنه يُفكّر، ثمّ ينبرُ في حديثه: وتغيّر مسار القصّة.

4

الصورة الأولى

البرنامج: على الأرجح مجموعة أشخاص يركبون قارباً.

قبل أنْ يخرجَ من بيتهم السَّعفي متأبّطاً أوراقَه، تبعه: "عبُّود دكان .. عبُّود دكان"! التفتَ نحوه قائلاً: "بعدين عبُّود بعدين، لمَّا أرجع". أمسك عبُّود بطرف ثوبه، وكوَّره في قبضته: "دكان .. عبُّود دكان". حاول أن يتملَّص منه. رفسه. لم يتركه عبُّود. ظلّ متشبّثاً بثوبه. دفعه من كتفِه صوبَ أمّه، وتأفّف: "خذيه عنّي، خلاص تعبت منه". صاحت: "عبُّود تعال"، فوثبَ نحوها. همست في أُذُنه ومسحت على رأسه كما تفعل حين تُطَمْئِنُه. مرَّغ وجهه في حضنها، واللُّعاب يسيل من فمه، وردّد: "عبُّود يحبّ أمّي". يحسده أحياناً، يتمنّى لو كان مثله، لا يعبأ بكلّ ما يحدث حوله، فعالمُه أخضر مبهجٌ كواحةٍ، لا يُشبه عالمه المجحِف المتعب كصحراء.

تركهما ومضى ماشياً في السِّكك الضيّقة، بين بيوت السَّعف المتراصّة، متّجهاً إلى سوق ديرة. حيَّا الباعة المفترشين بضاعتهم على أحصرةٍ عند طرف السوق، ودخل العَرْصة، حيث استقبله ضجيج القوافل المحمّلة بالحطب والفحم والتمور والخضار، القادمة من المناطق الصحراوية والزراعية. سار في الممرّ المسقوف بين صفَّي المحالّ المتقابلة المَبنِيَّة من الجصّ والأحجار المرجانية، والذي يسمح سقفه المصنوع من جريد النخل بمرور ضوء الشمس، فيعكس نقوشاً من الظلال المتأرجحة على أرضية السوق الرملية. يُحِبّ السير بتأنٍّ في هذه المسافة القصيرة يومياً ولو تأخّر؛ ليتأمّل السوق حوله. فكلّ ما فيها في ذلك الوقت المبكّر يشي بالحياة، من تداخل أصوات حركة أبواب المحالّ الخشبية التي تُفتَح، مع

تحايا الرجال الصباحية، وأحاديثهم المتبادلة عن أحوالهم وأخبار المدينة والمشيخات المجاورة، واختلاط روائح إعداد القهوة بالبهارات والحبوب في الدكاكين، وتقاطع البشر والدوابّ في ممرّاتها.

وصل محلّ خاله الحاجّ قاسم أحد تجّار الجملة للموادّ الغذائية، السادس على اليمين. صعد المصطبة حيث الصناديق والبضائع المكدّسة بعضها فوق بعض على جانبَيه، ومسح بِكُمّ ثوبه عَرَقه المتفصِّد على جبهته، قبل أن يتجاوز الباب الخشبي المفتوح على مصراعَيه المقسّمَين إلى قطعتَين طُوِيَتْ إحداهما على الأخرى. دخل وسلَّم على خاله الجالس على كرسيّه وسط المحلّ خلف طاولة وُضعَ على أعلاها دفتره الكبير، فردّ عليه دون أن ينظرَ إليه:

- تأخّرت؟!

ثمّ أومأ للصبي الذي يعمل عنده، فأسرع ناحيته، وأخذ استكانة الشاي الزجاجية الفارغة من يده. اقترب من خاله متمتماً بكلمات اعتذارٍ اعتادها لفرط ما كرّرها. انحنى قربه، وأراه الدفتر والقراطيس التي في حوزته. قدّم له شرحاً وافياً لكلّ منها، ولمّا انتهى من آخر قرطاس صاح الحاجّ قاسم بصوته الأخنف:

- روح الفُرضة واستلم الشحنة من محمل النوخذة خلفان، ومنها إلى البَخَّار(*).

- حاضر خالي.

- تأكّدْ من البضائع بنفسك، عدّها كلّها، بضاعة بضاعة، وقارنها بطلبيّتنا. لا تغفل.

---

*) المخزن أو المستودع بالمحلّية الإماراتية قديماً.

ثمّ سعل ونادى الصَّبي. تلك إشارة يعرفها عليّ جيّداً، وتعني إنهاء حديثهما؛ لينصرفَ إلى عمله.

حالما خرج من المحلّ شاهده جالساً على مصطبة المحلّ المجاور، يعبثُ بسبّابته في الفراغ بين إصبع قدمه الكبرى والتي تليها، ولسانه يتدلّى من فمه.

- عبُّود.

ابتسمَ وقال:

- عبُّود دكان.

- العصر، يا عبُّود .. عندي شغل.

- عبُّود .. دكان .. دكان.

رفَسَه، وصاح:

- خلاص تحرّك.

لم يتزحزح من مكانه، وردّد دون توقّف:

- دكان .. دكان..

أخرج عليّ من جيب ثوبه ربع آنة، وضعَها في كفه، ثمّ دفعَه من كتفه.

- خذ .. ارجع البيت والعصر نروح الدكان.

ابتسم عبُّود حتّى ضاقت عيناه اللوزيّتان وظهرتا كخطَّين أفقيَّين مائلَين إلى أعلى. حدّق في العملة المعدِنية المخرّم وسطها، والتي انعكس بريقها النحاسي تحت أشعّة الشمس المتسلّلة من السقف. قال وعيناه لا تفارقان كفّه الرطبة:

- بيزات .. بيزات.

ثمّ هبَّ واقفاً، راجعاً من حيث أتى. وأكمل:

- عبُّود يحبّ عليّ.

ناداه عليّ:

- عبُّود، لا تطلع من البيت .. سمعت؟ لا تطلع.

عاد بنظره إلى الوراء، لوّح لأخيه، وقال بصوته الذي اخشوشن مؤخّراً:

- لا تطلع .. عبُّود .. لا تطلع.

ركضَ حتّى ذاب بين أكتاف المارّة عند نهاية الممرّ الذي يُفضي إلى الأحياء، حيث يسكن الأهالي. أمّا عليّ، فاتّخذ طريقه نحو الخور عند مرسى العَبرات(*). حالما وصل صعد على متن إحدى العَبرات، واتّخذ مكانه على اللوح الخشبي المخصّص لجلوس الركاب. ولمّا امتلأت العَبرة أخذ العبّار مكانه في الوسط، وجدَّف ناحية برّ دبي، حيث الضفّة الأخرى للخور، حتّى وصلوا، وسلّم العبّار آنتيْن أجرة التوصيل، قبل أن يقفز إلى اليابسة.

سار نحو الفُرضة، وأشرف بنفسه على عملية نقل أكياس الأرز والسكّر المكوَّمة على أرضيّتها، والتي أنزلها العتّالون من القوارب القادمة من السفن الرابضّة عند مدخل الخور، وعدَّها واحدة واحدة. وحالما تأكّد من صحّة البضائع، وأنها في طريقها إلى المخازن، غادر مسرعاً إلى بيت عمّته الوحيدة قرب حصن الفهيدي. وفور أن وصل إلى حي البستكيَّة(**) وسار في سِكَكها استقبلته روائح قليٍ وشواءٍ، وأحاديث نسوةٍ، وصياح أطفالٍ من

---

*) قوارب خشبية، تُستخدَم للتنقّل بين ضفّتي خور دبي، ومفردها عَبرة.

**) حي الفهيدي حالياً.

النوافذ المشرّعة. دخل بيتها الواسع ذا الأبراج الهوائية المُطِلّ على الخور. استقبلته عمّته في مجلسها الذي يحفّه هواء البارجيل(*) المنعش في هذه القائلة اللاهبة. كانت تلبس ثوباً سماوياً مقلّماً بخطوطٍ كركميّة رفيعة، وقلادة طبلة ذهبية عملاقة تتدلّى على صدرها، وخواتم كثيرة تملأ أصابعها الممتلئة البيضاء، وأساور في كلتا يدَيها. أطفأ عطشَه عصيرُ ليمون شديد الحلاوة أحضرته إحدى خادمات عمّته. جاملته بالسؤال عن أمّه، التي يعرف أنها لا تطيقها، ثمّ حدَّثته عن أخبار ابنها عبد اللطيف الغائب في بومباي للدراسة والتجارة، وزوجها المُنشغل عنها بالأسفار وجمع الأموال. قبل أنْ ينصرف حشرَت رزمة روبيات ورقية في جيبه، وودّعته حتّى باب المجلس. خطرَ له: كيف صارا شقيقَين، وهي الغارقة في النعيم وأبوه الغارق في الشقاء؟! سمع أمّه تعيّر أباه مراراً بأنّ أخته لم تساعده ولو بروبيةٍ واحدة، فكان يكتفي بردّه الذي لا يتغيّر: "أكّدّ وأشتغل وما أريد بيزات من أحد". صلّى الظهر في مسجد الحيّ، ومنه ركب إحدى العَبرات، وسرعان ما تحرّكت مبتعدة لِحُسن حظّه، إذ كانت ممتلئة. يستغلّ عليّ هذه الرحلة القصيرة بين ضفّتي الخور، ليريح جسمه المنهك وروحه المُثقلة، فيسترخي ويستمتع بتفاصيل رحلته، يمسح باطن كفّه على سطح مياه الخور، ويتأمّل النوارس البيضاء الآتية من جهة البحر، وحركة العَبرات المتناوبة على ضفّتي الخور، ويلوّح للعابرين ممّنْ يعرفهم.

كان يمسح وجهه الغارق في العَرَق بكفّيه المبلَّلتَين بماء الخور؛ ليُخفّف الحرارة الخانقة حوله، ثمّ تأرجح القارب، إثر قيام أحد الركّاب وصياحه: "حريقة .. حريقة .. حريقة"، سرعان ما تبعه آخرون. وَقَفَ على القارب المتأرجح، فشاهد نيراناً تشتعل في حي الرَّاس، يتصاعد منها عمودٌ هائلٌ من دخان داكن.

---

*) البارجيل هو أحد أنواع ملاقف أو مسارب الهواء.

خلع نعلَيه دون تفكيرٍ، ورفع طرفيَ كندورته، وربطَهما على خصره، ثمّ خاضَ في المياه الضحلة حتّى اليابسة. انتظر لحظاتٍ استجمع فيها أنفاسه وراقب الوضعَ حوله. رأى رجالاً يثبون من العَبرات والقوارب الخشبية .. يصرخون، ويُكبِّرون وهم يُهرَعون جهة الحريق.

لبسَ نعلَيه، وأسدلَ كندورته، وأطلقَ ساقَيه نحو بيتهم في حيّ سكّة الخيل. أمامه دخانٌ كثيفٌ غشّى البيوت والوجوه، وأجسادٌ تتخبّط في كلّ اتّجاه، ورجالٌ يُكبّرون ويهلّلون وهم يوارون النار بالثرى، ويسعلون ويسكبون جرادل الماء من الآبار دون فائدة، ونساءٌ صائحات هاربات يدفعنَ أطفالهنّ بعيداً مِن اللهب، ونارٌ تشتعل وتتحرّك كمارِدٍ ضخم من بيتٍ إلى بيت، تلتهم في طريقها كلّ شيء، وتحوّل السكون إلى رهبة. انقلبت النار الأليفة إلى وحشٍ غاضبٍ يفوق انتشارُه حدودَ السيطرة البشرية.

انمحت بيوتٌ كانت قبل قليل ضحكات وأحاديث نسوة ونمائم، وشقاوة أطفال، وأطعمة تُعدّ للغداء. لم يبقَ منها إلّا دعائم عمودية من خشب الجندل(*) تحترق، دليلاً على وجود بيتٍ كان هنا قبل قليل.

استغلّ أصحاب البيوت التي لم تصلها النيران بعد الدقائق القليلة المتبقّية قبل أن تصبح بيوتهم رماداً؛ لإخراج ما استطاعوا من متاع. رأى أحدَهم يحفر حفرة على عجَل، يدفن فيها أكياس تمر، ويهيل عليها التراب، وآخرين يُحمّلون ما استطاعوا من بيوتهم إلى سفنٍ من نوع البقّارة، ليُبحروا بها وينزلوها في جزيرة الحالة(**). الماء هو كلّ ما كانوا يحتاجونه تلك اللحظة، لعلّه يكون برداً وسلاماً عليهم من هذا الأجيج كلّه.

كان يغطّي عينَيه بذراعه، ويغيّر اتّجاهه إذا سطعت أمامه ألسنة اللهب

---

*) شجر المانغروف أو القرم.

**) جزيرة رملية صغيرة، تظهر قريباً من سيف البحر وقت جزر البحر.

بدرجات الأصفر والأحمر والأرجواني، أو تطايرت حبّات الليمون الأسود الجافّ المشتعلة من بعض البيوت. ظلّ يلوب بين السِّكك، ويراوغ النيران، إلى أن وصل إلى موقع بيتهم. نادى بأعلى صوته: "أمّي .. عبُّود .. أمّي". كلّ ما استطاع أن يظفر به هو حسيس نار لا تتوقّف، وأربعة أعمدة تشتعل، دخان وتراب ورماد. ظلّ في مكانه زمناً، يتقاطر العَرَق من أعلى بدنه مدراراً حتّى ساقَيه، لا يدري ما يفعل، يحاول أن يستوعب ما حوله، حتّى خارت قواه وهوى على ركبتَيه.

باغته وجه جارهم أبو راشد المحتقِن، محمرّاً كجمرةٍ ملتهبة، يحمل أثواباً نسائية لم يفلح في طيّها وإخفائها في غترة رجالية، تكشفُ ما تحتها. صاح الرجل لمّا رآه: "الحريم والعيال في البراحة".

سرت برودةٌ في أنحاء جسمه، كمريضٍ شُفي من الحُمّى. قام وأحسَّ براحة على الرغم من حسرته على بيتهم الذي استحال رماداً. لم يكن هذا أوّل حريق يشهده، ولكنه ما شهِد مثل شراسته. مرّت أمامه دجاجة مذعورة تمشي بخطٍّ متعرّج يميناً ويساراً، متفادية النيران. أسرع نحوها وتلقّفها. كان جسمُها ساخناً كأنها خرجت للتوّ من تنّور مشتعل. حمَلها تحت ذراعه اليسرى، وركضَ نحو جاره، ثمّ اتّجها شَمالاً.

في طريقه رأى معلّمه جاثياً على ركبتَيه، ينوح بحسرة أمام بيته، وقد أكلَت النيران نصفه. تمهّل أبو راشد في مشيته وهزَّ رأسه يمَنة ويَسرة. ثمّ تمتم بضيقٍ واضح: "حتّى الكُتُب ما تركَتها هذي الحريقة". أراد عليّ أن يُساعد معلّمه، ولكنْ، ماذا عساه أن يفعل؟

في تلك اللحظة هبَّت ريحٌ تجاه ألسنة اللهب، فسرّعت انتشارها، وعلا حسيسها ولظاها. طارت أوراق الكُتُب أمام أنظارهم وواصلت احتراقها في

الهواء، ليختفي أثرها في لحظات، وما ارتاحت النيران حتّى التهمت بقية بيته وكُتُبه. ترك معلّمَه وحوله رجالٌ يواسونه، أمّا هو، فأكمل طريقه مع جاره. انضمّ إليهما رهطٌ رجال حاملين ما تيسّر لهم نحو البراحة.

تجاوزا الأحياء المحترقة، من حي السَّادة إلى سكّة الخيل والضَّغاية وعيال ناصر والمرر حتّى حي السودان. كلّها كانت تزخر بالحياة صباح ذلك اليوم. وكلّما مرَّ أبو راشد قرب بيت يعرف أصحابه حوقل وردَّد: "من الضحى وهذي النيران ما تركت شيئاً".

قبل أن يُغادر آخر الأحياء، التفتَ عليّ إلى الوراء، فرأى أشباحاً بشرية رمادية خائفة تتخبّطُ بين الدخان، ونيراناً تتقرَّم وتشارف الخمود، بعد أن أتت على البيوت المصنوعة من السعف وجريد النخيل، والدوابّ والطيور التي ما أسعف الوقت أصحابها لإنقاذها. سيحتاج زمناً طويلاً لتغادره تلك الصور، والمشاهد، والأصوات، والروائح كلّها.

كلّما اقتربوا من البراحة، تلك الأرض المنبسطة العارية، طغى البياض على الرمال والسَّحنات، واختفت روائح الاحتراق والدخان، إلّا ما علق بأجسامهم وثيابهم. عند وصولهم شاهدوا نسوة وأطفالاً يفترشون الرمال الناعمة، وما استطاعوا أخذه من حيوانات وطيور تسرح بينهم، وأمتعة خفيفة متناثرة هنا وهناك. افترق الرجال وانتشروا، كلّ منهم نحو أهله.

تبعَ عليٌّ جاره، وتقافز بين الأمتعة وهو يجول ببصره يميناً ويساراً بحثاً عنهما. اقتربت أمّ راشد منهما. عرفها من الصغيرة بين ذراعَيها. تراجع خطوات. همسَت المرأة بشيء في أُذُن زوجها وهي تحدّقُ فيه من وراء برقعها اللمّاع. أطلق سراح الدجاجة التي بين يدَيه نحو مجموعة صبية كان راشد بينهم، وبصره لا يفارقها.

اقترب منه أبو راشد. بدا شكله غريباً برأسِه الحاسر ووجهِه المعفَّرَين بالسُّخام، وغترته المتّسخة الملقاة على كتفه، وجبينه الغارق في العَرَق. حدَّق في شفتَيه الجافَّتَين وهو يخاطبه بكلامٍ غريبٍ: "عبُّود .. أخوك .. عبُّود فيه الحيّاطة(*)"؟ أومأ عليّ برأسه مستفهِمًا، أو مستهجِناً، ومحاولًا في الوقت نفسه أن يستجلي ما في نظرات أمّ راشد المريبة. خطر له: هذا الحريق أثَّر على عقله، فصار يهذي. لحظاتٌ من الصمت، بللَّ فيها الرجل شفتَيه عدّة مرّات، إلى أن خرجت كلماته سريعة مقتضبة دون أن ينظر نحوه مباشرة: "إنا لله وإنا إليه راجعون .. عبُّود توفى .. ضاق نفَسه من الدخان".

أدار عليّ رأسه ناحية الصِّبْية الذين أحاطوا بالدجاجة المذعورة متحمّسين لإمساكها. ثمّ استرجعَ طفولتهما معاً، وتصرّفاته التي جعلته يفقد صوابه مراراً. عندما كان يفتح قنّ الدجاج، ليخليَ سبيل الديكة والدجاجات، ويطاردها بين السِّكك، فيستشيط غضباً؛ لأنه سيضطرّ لإعادتها إلى القنّ، وعندما كان يتشبّث بكندورته ويتبعه أينما ذهب، وعندما كان يغيّر مكان جلوسه كلّ حين في قارب العَبرة، فيتذمّر منه العبّار، فيضطرّ لنهره ويُجبره على الجلوس قربه، وعندما كان يتشبّث بإزار مصطفى خبّاز الحيّ حين يُخرِج الخبز من الكوّة، فيفزع ويوقع الخبز الحارّ، فيصيح غاضباً شاتماً بلغته الأعجمية شتائم يُقلّدها عبُّود، فينقلب غضبه إلى ضحكٍ.

كلّما اشتكى تصرّفاته لأمّه طلبت منه أن يسامحه، وردّدت: "الله – سبحانه - ما يحاسبه فكيف نحن نحاسبه؟! عبُّود من أهل الجنّة، إن شاء الله". حاولَ صادقاً أن يسامحه، بل حاول كثيراً، لكنه في كلّ مرّة ينفجر غاضباً في وجهه، وعبُّود لا يجيبه سوى بثغرٍ مبتسم يتدلّى منه لسانه الثقيل، وجملة لا يُغيّرها: "عبُّود يحبّ عليّ". وليته ما قالَها أبداً.

---

*) اسم لمرض الربو.

حدَّق في أعماقه، بحثَ عن صورة الرّاحل في زواياها، تفرَّس في ملامحه، عينَيه اللوزيَّتَين المتباعدتَين .. فمه الصغير .. وجهه المسطّح .. ابتسامته .. بدنه الممتلئ .. رأسه الحليق .. وتلك المسافة الفارغة بين إصبع قدمه الكبرى والإصبعَين اللتَين تجاورانه. أغمضَ عينَيه بشدّة، وأبقاهما مدّة لعلّهما تحتفظان بصورته أطولَ فترة ممكنة، وتتشبّثان بها قبل أن تبهتَ مع الزمن، كما توشكُ صورة أبيه.

ظلَّت آخر كلمات عبُّود وسماً غائراً في ذاكرته: "عبُّود يحبّ عليّ". تلك الكلمات هي كلّ ما بقي له من عبُّود، الذي يحبّه وما أخبره بذلك.

5
أبيض وأسود

السادسة وتسع دقائق. أميلُ نحو إيفلين، وأهمس: باق تسع عشرةَ دقيقة. لا تعبأ. تشفط بقايا العصير والثلج من المصّاصة. يوتّرني الصوت. أنقرُ بأصابعي على الطاولة. ألمسُ شاشة هاتفي المحمول. السادسة وعشر دقائق. أزحزحُ الكرسي. يعلو هدير آلة صنع القهوة، فيعبقُ المكان برائحة البُنّ. ما تزال إيفلين تشفط الثلج. تتوقّف فجأة. ما بكِ؟ لماذا توقّفتِ؟ يأتيني هدير البحر قريباً واضحاً: هذا مكانكِ السرّي إذن؟ أنتفض: سيف؟ هل صوتي مخيف لهذي الدرجة؟ أتلعثم: لا لا .. صوتكَ يذكّرني بهدير البحر. هدير البحر، وهل يعجبكِ صوت البحر؟ أظنّه يُشعرني بالأمان. ما انتبهتُ إلى صوت البحر. يقول كأنه يحدّث نفسه، ثمّ يصمتُ لحظات، ويُتبعها بنبرة مرحة: كيف حالكِ؟ بخيرٍ وأنتَ؟ أسمع زحزحة كرسيٍّ بجانبي وهو يجيب: أنا بخير. ثمّ يسأل إيفلين: كيف حالكِ؟ فتُجيبه بحماسةٍ.

أنتظرُ لحظاتٍ، ثمّ أعطيه الكيس الذي يحوي ألبومات الصور. أخبره بأنها المجموعة الأولى مِن صور جَدِّي. أسمع خشخشة الأوراق وتقلّب الصور. تتكثّف رائحة عطره. أزدردُ ريقي بصعوبة. يقترب صوته: هذا جَدُّنا المُصوَّر في الصورة؟ كيف شكله؟ ممم .. نحيل .. شارباه رفيعان .. عيناه واسعتان .. لون بشرته ليس واضحاً لأنّ الصورة بالأبيض والأسود. أسأله: بالأبيض والأسود؟ قبل ما كانت الصور ملوّنة. هل هما لونان أساسيّان مثلاً؟ مممم ...متناقضان. أُعلّق: مثل البارد والحارّ؟ تشبيهاتكِ غريبة ..

فصوتي مثل صوت البحر، والأبيض والأسود مثل البارد والحارّ. أفكّر: هل فعلاً تشبيهاتي غريبة كما يقول سيف؟ لم أتنبّه لذلك.

أتذكّر في تلك اللحظة سهير، الطالبة المصرية، عندما انضمّت إلى مدرستي؛ مدرسة السَّلام للبنات. عرفتُ أن بصرها ضعُفَ تدريجياً، حتّى كفَّ قبل فترة قصيرة. أجلسَتها المعلّمة جانبي، وكنّا الوحيدتَين الكفيفتَين في فصلٍ من طالباتٍ مُبصِرات. أخبرتني في الفسحة أنها تفتقد الألوان ورؤية الأشياء. سألتُها: كيف؟ عايزة أشوف البحر القريب من عمارتنا، ونهر النيل والناس والسيّارات في الشوارع، وعايزة أشوف شكل أختي الصغيرة، ولون شَعر ماما الجديد، وشُقَّتنا في الإسكندرية، وموديل فستان العيد.

ولمّا سألتُها عمّا تراه الآن؟ أجابت: اختفت الألوان كلّها، وأشوف كلّ حاجة لونها أسود، ومرّات أشوف أضواء خفيفة لمّا تكون قُدّامي، وتُبسطني، وأحاول أركّز فيها؛ لأنها تعطيني أملاً بأن نظري ربمّا يرجع مرّة ثانية. ولأنني لم أفهم ماذا تقصد بالأسود، استفسرتُ منها، فأجابت: الأسود حاجة وحشة، النهار بطوله ليل دون كهرباء ونور. بعدها بكَتْ، وقالت إنها تفتقد الرؤية كثيراً، ولم تتصوّر أنها ستفقد بصرها. اعتادت أن تُقرب وجهها من الورقة حين تكتُب أو ترسم، حتّى خبطت رأسها على الطاولة ذات مرّة، فتيقّنَتْ حينها أنها لن ترى مجدّداً.

لم أتعاطف معها، ربمّا لأنني لم أفهم كثيراً ممّا كانت تقوله، ولكنني شاركتُها شرائح التوست بالجبن الذي أعدّته إيفلين، وأرغمتني على تجربة سندويش الفول الذي أعدّته أمّها. أكلنا بشراهة وأنا كنتُ أقصُّ عليها حكايات إيفلين، وهكذا أصبحنا أفضل صديقتَين كفيفتَين في مدرسةٍ للمُبصِرات.

وقع أقدام تقترب. يسألنا نادل عن طلباتنا. أطلب شراب شوكولاته

ساخناً، ويطلب سيف قهوة، وإيفلين تُعاود طلب عصيرها الذي أنهَته قبل قليل. يُعطيني سيف صورة. يطلب منّي أن أضع سبّابتي عليها. مَلمَس الورق ناعم. حرّكي يميناً، يقول. أشعر بأنفاسه وصوته على الجهة اليمنى لوجهي. أحاول ألّا أُريَه ارتباكي. يخبرني أنَّ في الصورة رجلاً يجدّف بقاربه الخشبي في خور دبي، وعن يساره رجلٌ آخر يحدّق نحو العدسة مبتسماً، لعلّه عرف المصوِّر أو تنبّه إلى وجوده، وخلفه بقية الركّاب، ونظراتهم في اتّجاهات مختلفة. أستخدمُ برنامج سيينغ آي من هاتفي، فيقول البرنامج إن الصورة على الأرجح لمجموعة من الأشخاص يركبون قارباً.

يعطيني صورة أخرى. يخبرني بأنها مياه خور دبي. أتخيّل مَلمَس الماء بين أصابعي. يكمل بأنَّ في منتصف الصورة مركباً خشبيّاً، لا يمكننا رؤية ركّابه بوضوح كالصورة السابقة؛ لأنها التُقطت من مسافة بعيدة، الخور هنا هو الطاغي في الصورة، أمّا الأشخاص، فيظهرون بحجم صغير. لم أخبره أنني أُحدّد المسافة بتتبّع الصوت والرائحة. المسافة عندي تساوي شدّة الصوت وكثافة الرائحة، كلّما كان الصوت قريباً والرائحة أقوى عرفتُ أنّ المسافة أقرب، ولكنْ، لا أفهم كيف ولماذا تصغر الأشياء إذا ابتعدنا؟ ربمّا يُشبه ذلك الصَّوت الذي يكون أكثر شدّة ووضوحاً إذا اقترب.

يعطيني صورة أخرى، أُحرّك إصبعي من يمين الصورة إلى يسارها، حيث المباني التقليدية المزوّدة بالأبراج الهوائية. يخمّن أن الصورة تعود إلى ستّينيات القرن الماضي أو قبل ذلك. يعطيني صورة أخرى: هذي صورة إحدى الأسواق القديمة، يمكن سوق ديرة الكبير. يخبرني أنها أبواب الدكاكين الخشبية على جهتَي السوق، يتوسّطهما ممرّ رملي. في صورة أخرى للسوق، يجلس صبي على عتبة أحد الدكاكين، ويبتسمُ لعدسة الكاميرا كما يقول سيف. يخفق قلبي. أتذكّر عبُّود. أسأله: كيف شكله؟

شَعره مجعّد، وعيناه صغيرتان. أصوّره من هاتفي، فيقول البرنامج إن في الصورة ولداً في العاشرة من عمره، ويبدو سعيداً. يناولني صورة أخرى. يخبرني أنها لمجموعة من الرجال ينظرون جهة العدسة، وراءهم رجل يركب حماراً، وصورة أخرى لسيّدة تضع برقعاً متربّعة على الأرض وأمامها حصير عليه أنواع من السَّمك على الأرجح التُقطت في سوق السَّمك. يظلّ يشرح الصور، وأستمع إليه.

لم أشعر بمرور الوقت إلّا حين صاحت إيفلين: نورة، تأخّرنا ويجب أن نعود. يعتذر سيف: ما انتبهت لمرور الوقت. آسفة، بس ما أقدر أن أتأخّر. يجمع الصور. يأخذها معه. يعدني أن يرجعها بأسرع وقت. نخرج. نتبادل السلامات المعتادة. نفترق. أبقى في مكاني حتّى يختفي هدير البحر. ضجّة الشارع وزعيق بوق سيّارة قريبة، يدفعانني دفعاً لركوب السيّارة.

في الطريق أفكّر في جَدِّنا المصوِّر وصوره أو عكوسه كما يقول جَدِّي، وماهية التصوير أساساً، وكيف تعكس آلةٌ ما يراه البشر، ولا تستطيع عيناي أن تعكسا ولو شيئاً ضئيلاً من ذلك كلّه؟ يشغلني أيضاً ما حدث بعد رحيل عبُّود، وردّة فعل جَدِّنا؟ نصل إلى البيت. أذهبُ إلى جَدِّي. أجده عند باب مكتبه راجعاً للتوّ من المسجد. كنتُ أنتظرك. يقول وهو يحيط بذراعه اليمنى كتفي. يُدخلني، ويُجلسني بجانبه. أترقّب أن يحكي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

6

الصورة الثانية

البرنامج: على الأرجح مبنى، وأشخاصٌ يقفون أمامه.

قبل أن تغيب الشمس حملوا جسده في كفنٍ أبيضَ، وساروا بعيداً عن البيوت، إلى بقعةٍ رملية، حيث دُفن أبوه وأهالي بر ديرة. نزل عليّ في القبر، وأمال جسد أخيه إلى شقّه الأيمن، ووجهه نحو القِبلة، ثمّ حلّ عقد الرأس والرِّجلَين من كفنه. تشبّث بالجسد الهامد، نشج وردّد: "عليّ يحبّ عبُّود، عليّ يحبّ عبُّود". صاحَ به الرجال من أعلى، يستعجلونه قبل أن يُظلِم المكان. ألقى عليه نظرة أخيرة، قبل أن يواروه الثَّرى، ويُدفَن غير بعيدٍ عن أبيه.

أقاما في بيت خاله ذي الطابقَين المصنوع من الجِصِّ والأحجار، حتّى يعيد بناء عريشهم المحترق. في نهاية اليوم الثالث، بعد انتهاء أيّام العزاء، دخل البيت على نحيب أمّه. لمحَ ظلال النسوة حولها في الليوان مع أضواء السِّراج، وظلّ العمّة أم حسَن المتربّعة تحت السلّم يهتزّ مع ارتعاش ظهرها المَحْنيّ. شعر بفراغٍ موحِش يُشبه وجوده في هذا البيت، بل في هذه الحياة. تراجع. آثر الخروج، أو الهرب ممّا يذكّره بذلك الحريق الذي استمرّ حتّى غروب الشمس، وحوَّل أكثر من مئتَي بيتٍ إلى رماد، بكلّ ما فيها، إلّا تلك المَبنِيَّة من الحجر، ونفقت الدوابّ والطيور، وتعرّض رجالٌ ونساءٌ إلى حروق، وتُرك الأهالي في العراء. ثلاثة أيّام استقبل فيها المعزّين بجسده، أمّا عقله، فكان في مكان آخر. ردَّد كببّغاءٍ الكلمات التي تُقال في مناسبة كهذه. رأى الصِّبْيَة، وما لمحَ في

وجوههم سوى ابتسامة عبُّود. سمع أحاديث الأهالي، وترديدهم قصائد نظمها شعراء في الحريق الكبير، ومناقشاتهم حول أسباب نشوبه، ولوم بعضهم خادمة غاضبة يقال إنها افتعلته عمداً، وما التقط من ذلك كلّه سوى اسم عبُّود.

سار بين السِّكك دون هدف، لا يُقاطعه سوى تحية عابرة من أحد سكّان الحيّ، أو نباح كلبٍ شارد، أو مواء قطّة جائعة. أحسَّ بيُتمٍ قاسٍ يُشبه وحشة هذا الليل. حدّثته أمّه عن أبيه. أخبرته بأنها تزوّجته بعد أن تخلّص العالم من حربٍ عظيمة بين دولٍ كبرى بعيدة، أكلت اليابس والأخضر من الشجر، وأهلكت الحُمر والسُّمر من البشر. قرّرا ذات مَسْغَبَة النزوح من الضفّة الشرقية للخليج إلى الغربية، كَمَنْ سبقوهم من أهل بلدتهم. هاجرا من لنجة إلى مشيَخة دبي على الساحل المتصالح، ليعمل والده لدى الحاجّ قاسم قريبه وخال زوجته. وفي دبي تحرّك شيء في أعماقها بعد طول انتظار، وكان عليّ هو هذا الشيء. "دبي مبروكة". قالت له أمّه بزهو وهي تحكي، ثمّ أكملت: "حتّى ولادتكَ كانت سهلة، في موسم القيظ مع تباشير خرف الرطب، وفي هذا العريش على يد عائشة أحسن داية في الفريج. لمّا مسحت على بطني ازداد الوجع واشتدّ الطلق، وبعدك بسنتَين جاء عبُّود، بس ما كان يُشبهك".

لا تغيب عنه صورة والده بالإزار والمقصَّر(*)، وهو يرتشفُ الشاي الأحمر بمهلٍ من صحن الاستكانة تحت السّدرة في حَوش بيتهم قبل قيلولته التي تمتد حتّى صلاة العصر. كان ذا بنية متوسّطة أقرب إلى النحافة، وطلعة بهية، وبشرة حنطية مشربة بحمرة، وشارب رفيع مهذّب. ما احتفظت ذاكرته عنه سوى بالقليل، منها إصراره على أن يكمل تعليمه في المدرسة

*)قميص من قماش خفيف، يُلبَس في البيت.

الأحمدية. ضحك عليهم الحاجّ قاسم حين عرف أنه التحق بالمدرسة. استلَّ نَفَسَاً عميقاً من القدو(*) الفخّاري أمامه، على حين كان متربّعاً في ليوان بيته الواسع، محدِثاً قرقرة للماء في جوفها، ثمّ نفث الدخان من فمه، وقال بصوته الأخنف الذي يمقته: "المدرسة لعيال التجّار، وولد الحمّالي ما يصير كيتوب(**) ولا كرّاني يمسك حسابات الحفيز(***)".

لم يُجبه الأب، ودون أن يشعر عصرَ بقبضته كفّ ابنه، الذي استوعب صغيراً هذا الفرق. اكتفى برؤية وجهه الطويل المجدور وسط الدخان، كابحاً رغبة عارمة بأن يصرخ في وجهه، ويردّ عليه بأن ابنه أفشلُهم في المدرسة، ويهرب بين الحصص مع رفاقه، لكنه أصغر وأجبن من فعل ذلك. ظلّ بقية ذلك اليوم يشدّ قبضة أبيه؛ ليؤازره أو ربمّا ليُعلمه بطريقةٍ ما أنه فهم ما دار بينهما، ولن يُخيّب ظنّه، لكنه ما أدرك حينها أن الحياة تخذلنا أحياناً في الوفاء بوعودنا، على الرغم منّا.

ذات أصيل انفرطَ كأصحابه من صفوف الدراسة، تماماً كما انفرطت بعدها الأساور الذهبية التي كانت تُزيّن معصم أمّه. صاح أحدهم منادياً أهل البيت، فهُرِعَ نحو الباب. فتَحه، فأطلَّ منه رجلٌ طويلٌ خلفه سماء برتقالية سأله عن أمّه. تركت المرأة ما بيدَيها وهرولَت نحو الباب، لكأنَّها أحسَّت بجسامة ما يحمله هذا الزائر الغريب. وَقَفَت خلف ابنها، وغطّت نصف وجهها السفلي بوشاح البيت القطني الخفيف. سألته من الباب الموارب عن سبب قدومه. أطرق وغمغم بشيء محاولاً ألّا يشدّ انتباه الصبي نحوه، وانصرف سريعاً دون أن يرفع رأسه.

---

*) القدو هي أداة تُستخدَم للتدخين ومصنوعة من الفخّار.

**) يُطلق مسمّى الكرّاني على مَنْ يمتهن كتابة الوثائق والرسائل للناس بالأجرة، وجمعها كرّانية.

***) مكتب أو محلّ، وهي مشتقّة من كلمة أوفيس.

اتّكأت أمّه على السور المصنوع من سَعْف النخيل، واضطربت ملامحها. اقترب منها محاولاً فهم ما جرى قبل قليل. انبعثت رائحة حِنَّاء من يدها المخضّبة حديثاً لزوَاجٍ لن تحضره. انزلقَ جذعها، لكأن قوّة جذبتها، وأجبرتها على الالتصاق بالأرض. كانت عيناها تحدّقان في الفراغ، وعيناه تحدّقان فيها. كوّرت قبضتَيها في الرمال. رفعَت رأسها، فانزاح وشاحها كاشفاً عن ضفيرةٍ انفلتت منها خُصلات التصقت برقبتها الرطبة. تمتمت بكلماتٍ ما فهم منها شيئاً. رفع رأسه ليرى مَن كانت تخاطب. ما رأى سوى سماء زرقاء بنفسجية تمازجت فيها خيوط بلون الزعفران. أحسَّ بخطبٍ ما. أمرٌ جللٌ حدث للتوّ أتى بخبره الزائر الغريب. في تلك اللحظة كان عبُّود يدور حول السّدرة، وأمّه تنظر أعلى السّدرة، وهو متسمّرٌ في مكانه ضائعٌ بينهما.

ومنذ ذلك اليوم انفرط عن الدراسة مع آخر أساوِر أمّه التي أصبحت من نصيب بائع الذهب الهندي في سوق البانيان(*)، واضطرّ بعدها إلى العمل عند خاله. خيَّرهم بين العمل مقابل الإقامة عنده وإعالتهم مجّاناً، أو بأجرة أسبوعية ويتدبّرون معيشتهم، فاختارت أمّه البقاء في بيتها.

سمع صوته: "عبُّود يحبّ عليّ". التفت حوله: "عبُّود عبُّود". لم يُجبه أحد، فصاح بصوتٍ أعلى. لم يسمع سوى نباح كلاب ضالّة وصياح حشرات الصَّرناخ. ظلّ يسير بين السِّكك المظلمة ويناديه. اقترب منه أحد سكّان الحيّ، يحمل سِراجاً. أمسكه من يده، وقال: "إنّا لله وإنّا إليه راجعون .. عبُّود عند الله .. تعال نسير البيت، يا ولدي". تمتم عليّ: "سمعته .. والله سمعته". ربَّت الرجل على كتفه. ثمّ مضى به إلى بيت خاله مردّداً: "اذكر الله، يا ولدي، اذكر الله. عبُّود رحمة الله عليه .. اذكر الله".

---

*) الهندوس

منذ رحيله وطيفُه يزوره كلّ ليلة كحكايات جارتهم العجوز، التي كانت تقصّها عليهم في أُمسيَّات الصيف الحارة بالبراحة حين يتلحّفون السماء الداكنة المُترعة بالنجوم، عن بودرياه وأم الدويس وحمارة القايلة وغيرها من الكائنات الخرافية المخيفة. وعندما يتمكّن منه النوم قليلاً يصحو على آخِر كلماته لعبُّود: "لا تطلع من البيت".

7
هو الذي رأى كلّ شيء

أفكّر في سؤال سيف حين باغتني أمس دون أيّ مقدّمات، هل تكتبين؟ اكتفيتُ في البدء بالصمت على قبل أن أردّ عليه بالنفي. ظننتُهُ يمزح أو يسخر منّي، وخطر لي ما يمكن أن يُقدّمه مَنْ لا يمتلك ذاكرةً بصريّةً لمَنْ لديه ذاكرة زاخرة بالألوان والأشكال، على الرغم من أنّ لديَّ أشياء كثيرة أُودّ أن أكتبها. سألتُهُ عمّا يمكن أن يكتبه الأعمى، فأجابني بكلمة واحدة قاطعة: رؤيته.

أمسيتُ أفكّر في كلامه، وبجدوى الكتابة، وإمكانية اختصارها المسافة نحو الضوء أو فهمه على الأقلّ، ورؤية الكفيف ما حوله، وأصبحتُ بكلّ بساطة أكتب. يهتمّ سيف بالصور، وأنا بالشِّعر والأدب، ويجدهما مترادفَين، أمّا أنا، فأجدهما متضادَّين. الصورة تعكس الخارج والأدب يعكس الداخل. أعني الأدب حين يكون حقيقياً، الذي يُشبه أرغفة ربّات البيوت المعجونة بأيديهنّ العارية، ونشمُّ رائحتها منذ كانت دقيقاً متناثراً بين الأصابع. الماء يحوّل الدقيق إلى عجينة لزجة ويُغيّر مَلمَسه ورائحته، والخميرة تجعل العجينة تنتفخ وتُملّس سطحها، والحرارة تبثّ فيها الحياة.

أشتهي في هذا الصباح أن أصنع خبزاً بيدي. أخبرُ إيفلين برغبتي. تشهق: ومنذ متى تخبزين؟ منذ أن بدأتُ أكتب. ومنذ متى تكتبين؟ أعرفكِ فقط تسمعين الكُتُب. أردّ عليها ضاحكة: منذ اليوم. تسأل مرّة أخرى: وكيف تكتبين؟ أتأفّفُ، وأجيبها: باستخدام التكنولوجيا التي تجعلكِ تشاهدين ابنكِ على الرغم مِن أنّه يبعدُ عنكِ آلاف الأميال؟ تتمتم بكلماتٍ من لغتها وتختمها بكلمتها المفضّلة: أيناقو. نذهب إلى المطبخ، وهناك أخبرها عن

العلاقة بين الكلمات والعجن. تقول إن العجن والخَبز عندهم لا يحتمل التَّرف، إنه يرادف البقاء. أعجن بيدي، وأكمل: حتّى الكلمات مرادفة للحياة. لا تُجيبني، وأنا أعرف أنها لا تُجيب حين لا يُقنعها ما أقول أو لا يُعجبها. تُغطي العجينةَ لترتاح وتنتفخ. أصيح كَمَنْ اكتشف شيئاً لأوّل مرّة: حتّى الكلمات تُترك لترتاح. تقول بلا اهتمام: نورة .. إنه مجرّد خبز .. نعجن لنأكل .. نأكل لنعيش .. هكذا بكلّ بساطة، ولا تُعقّدي الأمور.

بعد ساعة من الانتظار، أشكّل من العجينة أقراصاً بحجم الكَفّ. رائحةُ العجينة المختمرة تختلف، حتّى مَلمَسها. أرشُّ على الأقراص حبّات سمسم، ثمّ تُدخلها إيفلين في الفرن الحار. دقائقُ وتضُوع الرائحة.

تعطيني إيفلين قرصاً طازجاً خرج من الفرن للتوّ. إنّه ألذّ خبز أكلتُهُ في حياتي، أقولها وأنا أتلذّذُ بقضمه. تعلّق: لأنكِ خبزتِه بحبٍّ. أقول لأُفحمها: ألَا تُشبه ذلك كلماتنا حين نكتبها بحُبّ؟ كانت كلمتها المفضّلة أيناقو هي كلّ ما ظفرتُ به منها.

أحمل أقراصاً طازجة. أسير نحو مكتب جَدِّي. أنتظرك. يقولها وأنا أحضنه. أُعطيه رغيفاً. تخبره إيفلين أنني عجنتُها. يقول وهو يأكلها: لذيذة. كعادته يُجلِسني عن يمينه.

نستمعُ إلى قصيدة أحمد شوقي: يا جارة الوادي، بصوت محمّد عبد الوهّاب، ويردّد جَدِّي كلماتها معه: يا جارة الوادي طربتُ وعادني، ما يُشبه الأحلام من ذكراك. مثَّلتُ في الذكرى هواكِ وفي الكرى، والذكرياتُ صدى السنين الحاكي.

لاحقاً، أبحث عن كتاب جديد لأسمعه. أختار ملحمة جلجامش. أستمع حتّى يغلبني النعاس.

8

الصورة الثالثة

البرنامج: مجموعة من الرجال يحدّقون نحو العدسة.

ما عاد يحتمل رؤية خاله لا في محلّه ولا في بيته حيث مقر إقامتهم المؤقّت، حتّى أصبح يستغل أيّ فرصة ليبتعد عنه. غادر المحلّ أبكرَ في ذلك اليوم إلى سوق البانيان ببرّ دبي كما طلَب منه، ثمّ قصدَ صديقه مطر في الشَّندغة غير البعيدة. سارا شَمالاً محاذاة السِّيف، تجاوزا بيوت الحكّام والأعيان ذات الأبراج الهوائية والجدران العالية، المطلّة على الخور، إلى شاطئ بحر الشَّمال. جلسا، ومدّا ساقَيهما على الرمال المتشرّبة بماء البحر، تُداعب الأمواج بواطن أقدامهما الخشنة المرهَقة. استلقى مطر على ظهره، عاقداً ذراعَيه وراء رأسه، محدّقاً في السماء. جاراه صديقه. النوارس تخطف بين حين وآخر، والشمس تراوح بين السحب القليلة. هبَّ نسيمٌ من جهة البحر، لطّف من حرارة الطقس. بدأ مطر الحديث:

- السِّنيار(*) في الدرب.

- يوصلون بالسلامة.

- آمين.

صمَت قليلاً. ثمّ أردف بصوتٍ خافت:

- خائف على أبوَيه.

- أبوك ما ينخاف عليه.

---

*) مجموعة سفن الغوص التي تخرج متتابعة.

- ما عاد قوياً مثل قبل، وآخر مرّة ما طاع أسير معه.

- يريد مصلحتك.

- قال ما عاد هذا الشغل يستاهل كلّ هذا التعب، وتخيّل يحصل على مئة روبية بعد أن كان يحصل على أضعافها.

- حتّى النواخذة والطواويش في السوق أسمعهم يشتكون.

- أفكّر أسافر البحرين.

- البحرين؟!

- إيه أشتغل فيها.

- غوّاص؟

- لا .. عمّتي متزوّجة بحريني، وولدها يشتغل في حفيز كبير اسمه بابكو، كلّهم إنجليز ورواتبهم عالية.

- أبوك يعرف؟

- أنتظره يرجع.

- بعيدة البحرَين؟

- يومين أو ثلاثة.

تذكَّر ذلك اليوم، عندما استلقى قرب أمّه وعبُّود في حوش بيتهم، تأمّل النجوم، والقمر الذي قارب التمام، وتخيَّل اتّساع هذا الكون. سأل أمّه عمّا وراء الخور.

- بحرٌ كبير.

- ووراء البحر؟

- بشَر .. مثلنا، يتزوّجون، ويكرهون، ويحبّون، ويشتغلون ..

مرّت لحظات من الصمت، تخلّلها صوت حشرة الصَّرناخ وشخير عبُّود، ثمّ قالت وكأنها تذكّرت شيئاً:

- مستعدّ للدراسة.

- ختمت جزء عمَّ، خلاص ما أحتاج أتعلّم أكثر.

- المدرسة غير .. حمد ولد خالك قاسم يدرس هناك ..

- ما أحبّ حمد .. شايف حاله.

- إنتَ أحسن وأذكى منه .. ادرس وشدّ حيلك .. يقولون إن المعلّمين من مكّة، والأحساء، والزبير.

- أريد أسافر وأشوف العالم.

- خلّص دراستك، وبعدين.

- أريد أن أسافر وأشتغل في كلّ مكان أروح له.

ندَّت عنها ضحكة خافتة. مسحت على رأسه وقرأت عليه آيات من القرآن والأذكار، ثمّ نفثت في وجهه. نام وحلم أنه سافر عبر النجوم والأقمار.

وبعدها بأيّام التقى بمطر لأوّل مرّة في المدرسة الأحمدية. كان يصغره بعامٍ وأشهر، إلّا أنهما كانا في الصفّ نفسه. جذبَه شيءٌ ما نحو الفتى الأسمر الهادئ، صاحب الجبهة العريضة المحدّبة والأسنان الكبيرة البارزة إلى الأمام، ابن الغوّاص الذي يسكن أحد العُرش المتوارية، وراء البيوت ذات الجدران العالية والأبراج الهوائية في منطقة الشندغة. أصبحا رفيقَين،

يجلسان متجاورَين في الفصل، ويتمشّيان معاً وقت الفسحة، ويُصلّيان معاً في المسجد القريب، ولا يفترقان سوى عند موعد عودة مطر إلى البرّ الآخر، فيتّجهان معاً إلى ضفّة الخور القريبة من الشندغة، ويودّع صديقه، الذي يرفع كندورته، ويربط أطرافها على وسطه الضئيل، ثمّ يضعُ دفتره وأوراقه القليلة على رأسه، ويسير في المياه الضحلة إلى الضفّة الأخرى. ظلاّ هكذا أربع سنوات، بعدها تركَ عليّ المدرسة، وتبعه رفيقه. كانا الأفقرَ والأشدَّ اجتهاداً.

باغته عليّ:

- أنا معك.

دحرج مطر جسمه نصف دحرجةٍ نحو رفيقه، مسنداً رأسه بباطن كفّه اليمنى. قال:

- صدق؟

- إيه.

- وتترك الشغل عند خالك؟

- ما أطيق أشوفه.

- بس ما قصَّر معكم، وتسكنون في بيته.

- أدري .. ولكنه يلمّح إلى أن أتزوّج ابنته آمنة.

- زين .. فكِّر في مصلحتك.

- بس ما أطيقه!

- أنتَ تبالغ!

- كلّ ما أشوفها أشوف وجهه.

- حلوة؟ أمّي تقول بنات التجّار حلوات.

- لا، وأكبر منّي.

استلقى مطر على ظهره، وقهقه حتّى اهتزّ بدنه النحيل.

- عرفت السبب .. أكيد تشبه أبوها.

لكزه عليّ أعلى ذراعه، وشاركه الضحك، لكنه سرعان ما سكن. تنهَّد وقال:

- مطر، أنا تعبان.

نظر مطر في عينَي صديقه، سأله:

- خير عليّ؟

- كيف يفكّرون أن يزوجوني وما مرّ على دفنه جُمعتان؟

ثمّ قام مُولِّياً وجهه شطر البحر:

- وفي موضوع غيره يشغلني.

مضى، وسارَ على رمال السِّيف. تبعه مطر، كان خلفه تماماً حين قال:

- إحساس الذَّنْب يلاحقني.

- كان قضاء وقدر.

ضربَ على صدره وارتفع صوته وهو يكرّر:

- أنا .. أنا قلت له لا تطلع .. أنا ..

- هذا قضاء وقدر.

- سمعت أمّي بأُذُني تصيح: كلّه من عليّ.

- أكيد ما كانت تقصد.

- كلّ يوم أشوفه كأنه قدّامي .. واقف مكانه وقابض على الربع آنة وسط الدخان بس ما يتحرّك ويقول: عبُّود لا تطلع ..

صمت برهة من الزمن، تخلّلها صوت ارتطام الموج على السّيف، وضجّة بعيدة آتية من البيوت المتناثرة. سرعان ما غرق في نحيب مكتوم. أطبق مطر كفّه على كتفه التي كانت تهتزّ مع شهقاته. رآه يمسح دموعه، من ظلّه الذي صار يضاهي طوله. وسمعه يقول بصوتٍ متهدّج:

- تقول أمّي إنه سيدخل الجنّة.

وصلهما صوت الأذان مِن بعيد. أدار مطر بكفّه الأخرى ظهر عليّ، حتّى واجهه. همس دون أن تتقاطع نظراتهما:

- تعال نروح المسجد.

9
صورةٌ تعيد كلّ شيء

كنتُ أكرهُ شراب الشكولاتة، لكنه صار شيئاً أحبّه. أُرسل هذي الرسالة وأنا أستمتع بكوب الشكولاتة الساخنة، في مكانكِ السرّي. أعيدُ سماع ما أرسلته أمس، فأتذكّر فاكهة الهمبا. لم أكن أحبّها، ولا أتحمّل رائحتها. عرفتُ أنّ لونها أخضر، ثمّ يتحوّل إلى الأصفر، أو قد يكون مزيجاً بينهما، لم أستوعبْ ذلك في وقت مبكّر من حياتي، كيف لفاكهةٍ أن تُغيّر لونها؟ إنها فاكهةٌ مخادعة، أليس كذلك؟ لا أُدرِك مفهوم الألوان، ولكن الأشياء ترتبط عندي بلَونٍ معيّنٍ، وارتباط شيء بلَونَين متغيّرَين يُربكني.

حدث أنْ سألتُكَ عن مذاق الهمبا ذلك الصيف في بيت العائلة الكبير، هل تذكر؟ وتفاجأتَ بأنني عرفتُ أنكَ أكلتَ الهمبا، وأنا عمياء. إنها حاسّة الشَّمّ، يا سيف، الرائحة تعوّضني عن فَقْدٍ لم أختره. ذهبتَ وغسلتَ يدَيكَ أكثر من مرّة لتطرد الرائحة، وما عرفتَ أنها التصقت بكَ في ذاكرتي التي لا تحمل أيّ صورة. رجعتَ، وما اختفت الرائحة كما توهّمتَ، بل امتزجت بها رائحة صابون لايفبوي الذي تستخدمه جَدَّتنا مريم في بيتها. أعطيتَني الهمبا بيدكَ المبتلّة: جرِّبي. سألتُكَ: هل يشوفني أحد؟ لا، أنا بس. وضعتُها في جيب ثوبي بسرعةٍ كَمَنْ يرتكبُ جُرماً. في البيت لم أنتظر إيفلين. قضمتُ قطعة من قشرتها بأسناني ورميتُها، ثمّ عصرتُها في فمي، فسال عصيرها إلى فكّي ورقبتي وبين أصابعي، وبقيت رائحتها في يدي طوال اليوم. ومنذ ذلك اليوم أنتظرُ هذه الفاكهة كلّ صيف، ربمّا لأنها تذكّرني بكَ. وهي أيضاً

ترتبط في ذاكرتي بشيء آخر، وهو يوم ميلادي. منذ أعوامٍ لا أذكر عددها، تُعِدّ إيفلين كعكة مانجو فلوت، وتضع عليها شمعات بعدد أعوامي. نحتفل معاً عند عودتي من المدرسة، أنا وهي فقط، وأُبقي على قطعة لسهير وأعطيها نهار اليوم التالي في فسحة المدرسة، فتسألني: احتفلتِ بعيد ميلادكِ مع ماما؟ لأجيبَها بالنفي. تقول: غريبة، ولا مع بابا؟ لا. طيّب، احتفلتِ مع مَنْ؟ مع آتي إيفلين. تضحك وهي تقول: لا تزعلي، وكمان تحتفلي مع صاحبتكِ سهير. في الفسحة نتخيّل أنّ هنالك شمعةً على الكعكة، وتغنّي سهير بلهجتها المصرية التي أحبّ: سنة حلوة يا جميل. ثمّ نأكل الكعكة، وألواح شوكولاتة جالاكسي بالكراميل تأتي بها سهير كلّ سنة خصّيصاً للمناسبة كما تخبرني ضاحكةً.

اليوم موعدنا. أعطاني جَدِّي مجموعة جديدة من الصور، أخبرني أنها قديمة جدّاً، وتعود إلى فترة وجود جَدِّي عليّ في البحرَين. أفكّر بشعوري تجاهكَ، وأنا في الطريق. صرتُ أخشاه، ربّما لأني لا أعرفُه على وجه التحديد. صوتُكَ يتسربُ في ذاكرتي. لا أظنّكَ تدرك ما يعنيه الصوت للأعمى.

تصيح إيفلين عندما نصِل: إنه هنا. إنها متحمّسة لشرب عصيرها والتحدّث معكَ، وأنتَ تُجاريها. نتّجه نحوكَ. نتبادل التحيّات. نجلس. على الفور، أناولكَ الصور؛ لأُشعركَ أن هذا هو سبب قدومي فقط. تضعها جانباً. تقول إنكَ سوف تنظر فيها لاحقاً، وتمسحها ضوئياً كي تحتفظ بها في حاسوبكَ.

يأتي النادل بطلبنا، شراب الشوكولاتة الساخن لنا نحن الاثنَين، وعصير إيفلين المفضّل. وبعد قليل أسمعه يقول: هابي بيرث داي، تتبعه إيفلين بلغتها: مالغايانغ كا أراوان. أسألها: أهذه كعكة المانجو فلوت؟ لا، إنها كعكة شكولاتة، ولكنْ، أعددتُ لكِ واحدةً في البيت. تسأل عن المانجو فلوت،

فتجيبكَ إيفلين بأنها كعكة شهيرة عندهم في الفلبين. تتمنّى لي يومَ ميلادٍ سعيداً، وتطلب منّي أن أتمنّى شيئاً قبل أنْ أطفئ الشمعة.

كلّ عيد يمرّ، أتمنّى فيه أنْ أرى ولو ليوم واحدٍ؛ لأعرف ماهية الرؤية، فلا تبقى أمراً مبهماً. لا تفهمني خطأً، فأنا لا أفتقد الرؤية، ليس لأنني قَنوع أو مثالية، لا أبداً، بل لأنه شيء لم أجرّبه، وإن كنتُ قد جرّبتُهُ في طفولتي فلا أتذكّره مطلقاً، لكنني أريد أن أفهمه فحسب. اليوم لم تخطر لي تلك الأُمنيَّة، بل أجدها مبتذلة أو سخيفة وغبية. لعلّكَ تسأل في نفسكَ: ما أُمنيَّتي هذا العام؟ هذه المرّة أتمنّى أن يظل هدير البحر قريباً منّي، ولكني أحتفظ بها. أطفئ الشمعة. تسألني عن أُمنيَّتي. أجيبكَ بعد لحظات من التفكير: شيءٌ يتعلّق بالبحر. تُعلّق: البحر مرّة أخرى. ثمّ تسأل: ألهذي الدرجة تحبّينه؟ دون أن أشعر أجبتُكَ: أظنّ ذلك.

لا شيء كالبحر يمنح الأعمى الوضوح. كان بيتُنا القديم قريباً من البحر، وكنّا نعبرُ الشارع الخلفي، فأسمع هديره وأستنشقُ رائحته وأعبُّ من هوائه المالح الرطب. أحبّ البحر؛ لأنني لستُ بحاجةٍ إلى رؤيته لفهمه. إنه لا يتوقّف عن التحدّث معي كصديق. هديره المتواصل يمنحني شعور الأمان، كأنه يقول لي: أنا معكِ. كنّا أنا وجَدَّتي نورة نجلسُ قرب السِّيف، فتسكبُ لها فنجاناً من القهوة، ثمّ تسردُ حكاياتٍ قديمةً وحديثةً عنها وعن أمّي، والأهل والجيران، أو عن جَدَّتي مريم أو العصقولة كما تُطلق عليها حين تكون غاضبة منها. تحكي وأتخيّلهم شخوصاً في ذاكرتي تماماً كالروايات التي أسمعها .. تلك الجارة التي تزوّج عليها زوجها، وابن عمّ أمّها الذي أنجبت زوجته بعد سنواتٍ طويلة، وابنة جارهم التي طُلِّقت لمّا عادت من شهر العسل، وصديقتها التي سافرت قبل أيّام دون أن تُخبرها. كلّما كنتُ مع جَدّتي أندمجُ في أحاديثها أقتربُ من البحر أكثر، وأمدُّ ساقَيَّ حتّى أشعرَ بالأمواج تلامسُ باطن قدمَيَّ.

كانوا سبعة إخوة وهي أكبرهم حين تُوفيَت أمّها. تتذكّرها قبيل وفاتها

مستلقيةً أمام مخدعها تراقبُهم وهي تؤدّي عمَل البيت. كانت في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها، وبلغت للتوّ مبلغ النساء. في ليلة وفاتها وصَّتها بإخوتها الستّة: إنهم أمانةٌ في رقبتكِ. كرّرتها على مسامعها ثلاثاً، ثمّ نامت، ولم تستيقظ نهار اليوم التالي. منذها، شعرَتْ بحبلٍ غليظٍ يُلفُّ حول عنقها، حالَ بينها وبين الزواج. رعت إخوتها كأبنائها، حتّى نادوها: أمّي نورة. كلّما تزوّج أحدهم ارتخى الحبل قليلاً، حتّى كبرت الصغيرة وبلغت مبلغ الزواج، وتحرّرت هي من الحبل، لكنّ العمر كان قد مضى سريعاً دون أنْ تشعر، ووجدت قريناتها يَسْتَعْدِدْنَ لتزويج أبنائهنّ. عندما استسلمت أخيراً لقدَرها، ولم تعُد تتأمّل وجهها في المرآة كلّ صباحٍ بحثاً عن تجعيدة أو شَعرات بيضاء جديدة، ولا تلوم القَدَر لكونِها الابنة الكبرى، خطَبها رجل من دبي يُدعى سالماً. لم يكن شيخاً بلغ من العمر عتياً ولا أرملَ ولا كسيحاً مريضاً. خَفَتَ صوتها حتّى صار أقرب إلى الهمس، وقالت: كلّ شيء يأتي في وقته، يا بنتي. ثمّ صاحت فجأة ونهرتني: ارجعي يا بنت، ستبتلّين وتمرضين. كان ماء البحر يغمرني حتّى ركبتَيّ، فأسحبُ جذعي بتثاقلٍ نحوها إلى الخلف، لتُكمل بعدها حكاياتها، الحكاية تلوَ الحكاية.

تفرغ من حكاياتها قبل أنْ تبرد المياه، وتأفل الشمس، وقد أنهكها التعب؛ فتصيح: نرجع البيت. لا أريد العودة، ولكنني أدركُ أنَّ البقاءَ خارج البيت قبيل الغروب أمرٌ مرفوضٌ عندها، وتلك قاعدة يجب أنْ تُطاع وغير قابلة للنقاش. افتقدتُ البحر حين انتقلنا إلى بيتٍ أكبر وأفخم بكثير. كان بيتاً بلا بحر قريب، وتباعاً، دون جَدَّة وخالٍ.

بعد منتصف الليل أسمعُ رسالة صوتية منكِ: صورةٌ قديمة أرجعتني إليكِ. كلّ عام وأنتِ بخير.

أسمع هدير البحر وأكتب.

10

الصورة الرابعة

البرنامج: مجموعة من الناس يقفون قرب سيّارة.

صباح اليوم التالي كان في منطقة السَّبخة عند محطّة تجمُّع السيّارات. دار حول سيّارات النقل الثلاثة من علامة بيدفورد، ولسببٍ لم يعرفه توجّه نحو سائق السيّارة الرمادية. كان يطوي الغُتْرَة على رأسه على طريقة أهل البحر، كوالده حين كان يسترخي تحت السدرة، كاشفاً فودَيه الفضيَّين. ألقى عليه التحية، ثمّ سأله:

- كم نول التوصيل إلى الشارقة؟

- نصف روبية. نأخذك إلى محطّة المواتر هناك.

- توكّل على الله.

دفع للسائق أجرته، ثمّ أخذ مكانه في الجزء الخلفي المكشوف. ألقى السلام على الراكب الذي يجلس أمامه في المقعد الخشبي. كان يأكل قرص خبز مشبّعاً بالدهن يحوم الذباب حوله، ويحاول بين فينةٍ وأخرى إبعاده دون فائدة. بعد وقت يسير انضمّ إليهم ركّابٌ آخرون.

أدار السائق المحرّك حين اكتمل عدد الركّاب وامتلأ المكان. انتشرت رائحة الدخان، وطغى هدير المحرّك على الجَلبة، فتحرّك الناس مبتعدين. عاد بنظره نحو الراكب أمامه الذي تخلّص مِن الذباب مع تحرّك السيّارة. جفّف هواءٌ ساخنٌ جزءاً من العَرَق المتفصّد على وجهه، وطريقٌ طويلٌ سيأخذه إلى ما خطّط له. كان هذا أسرع قرار اتّخذه في حياته، فقد صمّم

أن يهرب من كلّ شيء، من خاله، وأمّه، وخيال عبُّود وأبيه، وربمّا مِن فَقْدٍ جديد. أرسل بعد صلاة الفجر خبراً لخاله مع أحد المصلّين ممّنْ يعملون في السوق، بأنه لن يأتي إلى المحلّ اليوم. لم يعُد يعبأ بغضبه، ولو عرف وُجهتَه.

انطلقت السيّارة مخلِّفة وراءها سحباً من الغبار. تَشتَّتَتْ أفكارُه حين بدأت تتقافز بشدّةٍ فوق الطُّرُق غير المعبّدة. تمسَّك بأقرب جزءٍ يُمكنه التمسّك به من هيكلها. بدنه، الذي ازداد نحولاً، جعل تشبُّثَه بمكانِه أصعبَ، فصار يبذل جهداً مضاعفاً، ليبقى ثابتاً في مكانه.

انطلقت السيّارة على الطُّرُق الرملية بين دبي والشارقة، تميل يساراً ويميناً، كي تتفادى الرمال الغزيرة. تراءت له آثار إطارات السيّارات عن يساره من بعيد، كأمواجٍ عملاقة ممتدّة إلى ما لا نهاية. شجيراتٌ متناثرةٌ خضراء مصفرّة، تحاول كسر شحوب الرمال. أمامه زُرقة شاسعة لبحرٍ وسماء، بعيدين، دُمِجا معاً حتّى يكاد الرائي يظنّهما زرقةً واحدةً. مرَّت السيّارة حيناً بأرضٍ سبخة مشبَعةٍ بالماء، وحيناً آخر بأرضٍ صلبة وعرة غير معبّدة تهتزّ وترتعش على أديمها.

بدت له آثار الحياة من جديد: الناس والبيوت والدوابّ، وأدركَ أنهم وصلوا مشارف الشارقة. توقّفت السيّارة عند محطّة تجمّع السيّارات، ومنها تفرّق الركّاب إلى وجهاتهم. أمّا هو، فمضى نحو حيّ الشويهن، بعد أن سأل الأهالي عن موقعه. سار محاذاة الخَور، على الرمال الساخنة، وبعد مُضيّ فترة، تراءى له المبنى الأبيض الكبير عن يمينه، تماماً كما وصفه مطر. كلّما اقترب أكثر، بانت له تفاصيل المبنى المكوّن من ثلاثة طوابق، حتّى وصل.

وَقَفَ أمام البَوَّابة الخشبية، يلفحه هواءٌ ساخنٌ قادمٌ من جهة الساحل عن يمينه. مسحَ وجهه بطرَف كُمِّ ثوبه، ونفضَ الرمل عن نعلَيه، وأصلح

هندامه، ثمّ دخل المكان بتوجّس. استقبلته ساريةٌ يرفرف أعلاها العَلَم البريطاني الأزرق والأحمر على الساحة الأمامية لدار الوكالة البريطانية، أو كما اعتاد الأهالي على تسميتها: حطبة الحرّية، حيث ملجأ الخُدّام العبيد الهاربين من أسيادهم. قطع الساحة، صعد عتبة الدهليز المسقوف، ومضى نحو مدخل المبنى المقبّب. أمامه خريطة بريطانيا معلّقة على الجدار المواجه للمدخل مباشرة، وصورة أخرى للتاج البريطاني، وأشياء أخرى ما رآها في حياته. يضجُّ المكان بخليطٍ من سَحناتٍ ولهجاتٍ وأعراقٍ. اتّجه مباشرةً إلى اليسار، كما أوصاه مطر، إلى غرفة مشرَّع بابها الخشبي، فيها طاولتان خشبيتان، يجلس خلفهما رجلان متوسّطا العمر، يقدّمان المساعدة لشخصٍ لم يتبيّن وجهَه. انتظر دوره على أحد الكراسي الفارغة، وراح يتأمّل تفاصيل المكان الذي ما دخلَ مثله من قَبل. شاهد ساحة الدار الأمامية وحطبة الحرّية، من خلال القضبان الحديدية للنوافذ المقوّسة، يسار الغرفة، حيث كان قبل قليل. سأل نفسه عن مصير هؤلاء العبيد الذين هربوا من أسيادهم طلباً للحرّية هنا، كما سمع قصصهم من مرتادي السوق، وفكَّر في الأسباب التي تجبر المرء على اللجوء إلى الأجنبي. ما استساغَ يوماً فكرة أن يكون الإنسان مِلْكاً لشخص آخر، يُباع ويُشترى، مع أنه اعتاد رؤية العبيد يتبضّعون لأسيادهم في السوق، وبعضهم حظي بمعاملة ومكانة جيّدة. الواقع أنّ تلك الفكرة كانت تُرعبه، وخطرَ له أنه لو كان مثلهم لفعَل مثلهم، ولهرب طالباً حرّيته.

لم يمضِ وقت طويل حتّى ناداه أحد الرَّجلَين، وبعربيّةٍ محلّية عرَّف عن نفسه بأنه مساعد وكيل المعتمد البريطاني، ثمّ طلب منه أن يجلس على الكرسي الشاغر أمامه، وسأله عن سبب قدومه. ولمّا شرحَ له طلبه، وأعطاه البيانات، انهمك الرجل الآخر في الكتابة. بعد ذلك طلب منه الانتظار ريثما ينظر في طلبه، وخرج.

بعد هُنيهة عاد الرجل يبشّره بالموافقة، وسلّمه ورقة تأشيرة مرور إلى البحرَين معتمدة من الدار، دفع مقابل الحصول عليها عشر روبيات ممّا أعطته عمّته. تمعَّن في انحناءات الحروف والكلمات الإنجليزية التي ما فهمها، وما أهمَّه ذلك كثيراً. كلّ ما أهمَّه تلك اللحظة أنها تخوّله لبدء حياة جديدة. خرج من الدار متشبّثاً بالورقة بكلتا يدَيه نحو صدره، وكأنه مسترَقٌّ يحمل صكّ إعتاقه، وقفل راجعاً حاملاً حُلمه بين يدَيه، ولم يُخبر أحداً من أهله بخُطّته.

بعد ثمانية أيّام جمع كلّ ما يملك: ثوبَين، وإزارَين، وغُتْرَة، ومصحفاً، وقبضة كبيرة من عُشبة المصَوْفة، والروبيات المتبقّية ممّا أعطته عمّته، والقليلة التي خبّأها بين حبّات الأرز في الإناء الفخّاري، ونجَت من الاحتراق، تاركاً لأمّه نصيباً منها. لفَّ الأشياء في صُرّةٍ قماشية، ثمّ عقدها مرّتَين، وأخذها معه.

على أرض الفُرضة صدَمَه قلقٌ مفاجئ، أيقظَ فيه إحساس اللاّ يقين من جدوى قراره، والخوف من مجهولٍ لا يعرفه. أحسَّ كأنّه قاربٌ مثقوبٌ يُرغَم على الإبحار. كان على وشك أن يعدِل عن قراره، حين صاح العبَّار حانقاً: "بسرعة". التفتَ باحثاً عن رفيقه. رآه مع والده الغوَّاص الذي عاد قبل أيّام بروبياتٍ قليلة، وجسمٍ محمّلٍ بأسقامٍ كثيرة. ناداه: "مطر .. تعال".

أقبلت أمّه التي تركها ليلة أمس غاضبةً حين أعلمها بقراره، يرافقها أحد أبناء خاله الصغار. يعرفُ أنه أحرجها إذ تركَ العمل لدى الرَّجل الذي آواهما، لكنه ما عاد يحتمل البقاء. اقتربت منه وظلَّ الصبي في مكانه. همسَت: "كان يعرف ..". وكانت تقصد خالها. صمتت برهة ثمّ أكملت: "أحرجتني .. وصله الخبر من السوق .. المفروض تسلّم عليه قبل السفر". لم يُعلّق عليّ، واكتفى بهزّ كتفه. ظلّ في مكانه صامتاً. صاح العبَّار مرّة

أخرى. ودَّعها، وطبعَ قبلة سريعةً على جبينها، ثمّ قفز في القارب، الذي سيأخذه نحو سفينة البوم الرابضة عند مدخل الخور. سرعان ما تبعه رفيقه. حشرا جسمَيهما النحيلَين بين الخَلق. صاحت الأمّ: "لا تنسى ترسل خطّ".

تأمّلت المرأة ابنها الذي كبِر في غفلةٍ منها من خلال غطاء وجهها. أرادته طفلاً لا يغادرها. لوَّح لها، فلوَّحت له بيدَيها الاثنتَين. كشفتِ الغطاءَ عن وجهها، ومشَت حتّى غمرت المياهُ أطراف ثوبها وعباءتها. ظلّت واقفةً. عيناها لا تغفلان عنه، حتّى اختفى عن نظرها. ردّدت بصوتٍ مخنوق لم يسمعه سواها: "تركني وراح".

ومضى. أراد في تلكَ اللحظة أنْ يمحوَ ذاكرته، يزيل منها صور عبُّود كلّها، وهو يركض في السِّكك، يطارد الديكة والدجاجات، يمسك مجداف العبَّار، يتعلّق بكندورته، يجلس على مصطبات الدكاكين والمحالّ. تمنّى لو أنَّ هنالك طلاءً أبيضَ يمسح به ذاكرته المتخمة بالألوان، والصور كلّها التي مضت. يريد أنْ يبدأ بذاكرةٍ مرئيةٍ طازجة. أمّا هي، فعوَّلت على ذاكرتها كي تحتفظ بتفاصيله، منذ أوّل يوم انقطع عنها الطمث، البشارة الأولى، وتأكّد حبَلها، انتفاخ بطنها، حركاته في أعماقها، ولادته ظهر يوم قائظ، نفاسها وسهرها على إرضاعه، خطواته الأولى تحت سدرتهم، قلقها حين تأخّر في النطق، أمراض الطفولة التي تناوبت عليه، دراسته في الكُتّاب وإشادة المطوّع به، الشعيرات الغليظة التي ظهرت على وجهه، صوته لمّا اخشوشن، إلى أن أصبح رجلها الأوحد الذي تعتمد عليه، حتّى هذه اللحظة التي يغادرها فيها. لو أنَّ لها شيئاً آخر يحتفظ لها بتلك الصور كلّها، لكانت ممتنّة.

شتّان بينهما؛ هو الهارب من الصور كلّها، وهي التي لم يبقَ لها سوى تلك الصور. كلاهما يعوِّل على ذاكرته، هو على غيابها، وهي على التشبّث بها. وما بينهما منذ هذا اليوم بحر ممتدّ يفصلهما، ولن تجمعهما صور كثيرة.

باب الرائحة

11
طقوس جَدَّتي

رائحة احتراق الشبّة وبذور الحرمل في كلّ مكان. يقتربُ الدخان. يلامس أسفل ذقني. أشعر بسخونته. عيناي تدمعان. أتراجع بحذر. الدخان يقترب. يقترب أكثر. يتخلّل فتحتَي أنفي. الرائحة قوية. طعمها في فمي. أسعل. أسعلُ بقوّة. بقوّة أكبر. أسعلُ بلا توقّف.

أفتحُ عينيّ. هواءٌ بارد يلامس وجهي. أتلمّس شاشة الهاتف يميني على الطاولة. السابعة وأربع دقائق، الخميس، الثاني من يناير. أتنشّق. تبوخ رائحة الاحتراق. لا أثر لها. لكنها عبثت بذاكرتي، كأنها ضغطت على زرٍّ أخذَني إليها.

على الرغم من الأعوام كلّها التي مضت، واحتفال العالم للتوّ بعامٍ جديد، وضجيج الألعاب النارية من نافذة غرفتكِ، إلّا أنّ تلك الرائحة أعادتكِ إلى الوراء. ما نسيتِ صوت طقطقة الكرات الصغيرة وهي تحترق، ولا رائحتها، ولا مَلمَسها حين وضعت جَدَّتكِ بعضاً منها في كفّكِ، وسألتِها عن ذلك الشيء الذي يحترق. سمعتِها تقول لأمّكِ: عين ما صلَّت على النبي، وتلتها طقطقة الحرمل، والشبّة، ودخانٌ دافئ يُلامس ذقنكِ. رائحةٌ يمكنكِ تمييزُها بين مئات الروائح. ليست زكيّةً ولا سيّئة، بل كانت من تلك الروائح الغريبة التي يحبّها المرء إنْ هو اعتاد عليها. كنتِ قد فقدتِ جزءاً كبيراً من بصركِ حينها. قرأت المعوذات وآية الكرسي، وأكملت: البنت محسودة. فتردّ عليها أمّكِ: الحسد ما له علاقة بمرضها، الأطبّاء يقولون:

الجينات هي السبب. أجابتها جَدَّتكِ بحدّة: ما يهمّني كلامهم، البنت محسودة، ما تشوفين جمالها وجمال عينَيها؟ ثمّ أتبعتها أسماء مَنْ تشكّ فيهم: العاملة الجديدة، سائق جارتكم الذي يقف قرب عتبة بيتكم كلّ صباح، أمّ سهيل المعروفة بعينَيها الحارَّتَين، جارتكم موزة التي لم تُنجب، الممرّضة الآسيوية التي كانت تُحدّق نحوكم في العيادة، والقائمة تطول وتتغيّر مع الأيّام.

يدّوه نورة، سَمِيّتَها كنتِ، وللمفارقة ما كنتِ تُشبهينها ولا تُشبهين اسمكِ في شيء. تعاود طقوسها في حرق الشبّة والحرمل كلّ يوم، وتسمعين بحّتها وهي تقول: أشوف عيون .. عيون كثيرة. فتلمسين عينَيكِ، وتتخيّلين كيف يمكن أن تخرج عيونٌ من الشبّة المحترقة. صرتِ تنتظرين طقوسها، والجلبة التي تُصاحبها، بل تجدينها مسلّية. بقي في ذاكرتكِ صوت الطقطقة .. سخونة الدخان .. بحّة جَدَّتكِ .. ردفاها السمينان .. كفّاها الرطبتان .. صوت أنفاسها العالي كأنها بذلت للتوّ جهداً .. وحضنها الضخم الحنون. ما يئستْ من طقوسها وما سئمتْ، حتّى يوم وفاتها.

مرَّ عصر ذلك اليوم، ولم تبدأ طقوسها. انتظرتِ الدخون وصوت الطقطقة. سألتِ عنها. أخبرتكِ إيفلين أنها في المستشفى. غابت الشمس. هدوءٌ مطبِقٌ في البيت. أذَّن المغرب ثمّ العشاء. انقضى اليوم وما رجعَت. لم تتأخّر يوماً حتّى هذا الوقت. ذهبتِ إلى غرفتها. وضعتِ رأسكِ على مخدّتها. تنشّقتِ رائحتها: مرهم فيكس وحِنَّاء. انتظرتِها. لم تعد. وتوقّفت طقوسها، مع توقّف قلبها العليل. هكذا بكلّ بساطة.

ضجَّ البيت بالناس، ووصلت أصواتهم إلى غرفتكِ، ولمّا خرجتِ فاحت من الصالة روائح قهوةٍ وعطورٍ وأحاديث بشرٍ غرباء. تعثّرتِ بأصواتٍ تخاطبكِ لا تعرفينها، تمتمتِ بردودٍ تعلّمتِها للتوّ: البقاء والدوام لله ..

أجرنا وأجركم .. جزاكم الله خيراً. ثمّ جلستِ في زاوية أخذتكِ إليها إيفلين، ووضعتِ سمّاعاتٍ على أُذُنيكِ، وانغمستِ في سماع آيات قرآنية بصوت عبد الباسط، الذي اعتدتِ سماع ترتيله معها صباحات يوم الجمعة. دعوتِ لها في سرّكِ وترحّمتِ عليها. تعرفين أن الله يسمعكِ، وأنه أقربُ إليكِ من حبل الوريد، كما أخبَرتْكِ. سألتِها ذات يوم: ما هو حبل الوريد يدّوه؟ لمست عنقكِ، وقالت بصوتها المبحوح: هو العِرْق الكبير في العنق والمتّصل بالقلب، فالله - سبحانه وتعالى - أقرب إلى الإنسان من حبل وريده.

مرّت أيّام العزاء الثلاثة، وفي الليلة الثالثة كنتِ على سريرها. رائحتها ما زالت طازجة، وكأنّ جسدها ما صار تحت التراب. هنا على هذا السرير طالما هربتِ إليها، ودسستِ جسمكِ تحت لحافها، وسمعتِ أنفاسها. اهتزّ السرير. كان جَدُّكِ سالم تفوحُ منه رائحة تبغٍ قوية، ظنَّكِ نائمة. لم تتحرّكي. أصختِ السمع. سمعتِ نحيبه مع صرير المرتبة. كان يبكي. واكتشفتِ حينها أن الرِّجال يبكون كذلك. تمتم بكلماتٍ، ما التقطتِ منها سوى اسمها، ثمّ خرج ولم يدخل غرفتهما بعد ذلك اليوم.

رحل خالكِ سعيد، ولدُها الوحيد، بعدها بأعوامٍ قليلة. تسألين: ماذا لو كانت على قيد الحياة حين رحل؟ هل ستُلقي الملامة عندها على الحسد كما تفعلُ دوماً، لا عليه، أو على أصدقائه وأبناء عمومته، كما فعل جَدُّكِ؟ هل ستستمرّ في طقوسها تلك، لتُعينها على تحمّل مصابها ولتستمدّ منها القوّة أم ستغرق في الصمت كزوجها؟

رحلت جَدَّتكِ وأخذت معها روائحها، وتضيعين أنتِ بينها. تبحثين عن روائحَ لها حكايات، كاحتراق الشبّة والحرمل عن الحسد، وبخور اللّبان لطرد الروائح الكريهة، والفيكس لأوجاع البدن قبل النوم، والحِنّاء لتخضيب

الشَّعر الأبيض، ومغليّ الزعتر لنزلات البرد، وشراب الحُلول لآلام البطن، أنتِ التي سألتِها ذات جمعة حين غمرتكِ رائحة الحِنَّاء عندما دخلتِ غرفتها، واحترتِ: لماذا نصبغ الأشياء بغير ألوانها؟ الأبيض هو لون حلو مثلما تقولين، لماذا تصبغين شَعركِ يدّوه؟ أجابتكِ: ومَنْ قال إني أحبّه؟ أنتِ. ازدادت البحّة في صوتها كأن هنالك شيئاً يقفُ في حلقها، وهي تجيبكِ: أنا ما قلت! ثمّ وضّحتِ لها أنكِ قبل أيّام شممتِ رائحة غريبة من إيفلين، ولمّا سألتِها عنها قالت إنها رائحة مبيّض، وهي مَنْ طلبَت منها أن تستخدمه لتتخلّص من البقع على ثوب جَدِّكِ لتكون ناصعة البياض. ثمّ سألتِها، كيف نبحث عن البياض في مكان ونتخلّص منه في مكان آخر؟ أليس هو اللون نفسه؟ هدأت أنفاسها، وقالت: ما نحبّ اللون الأبيض في الشَّعر؛ لأننا ما تعوّدنا على وجوده، مثل حلوى الخبيصة، طعمها حلو، هل تتخيّلين حلوى مالحة؟ أجابت سؤالها بنفسها: لا طبعاً. قالتها لتُفحمكِ. لا أنتِ اقتنعتِ بما قالته ذلك اليوم في حضورها، ولا اعتدتِ على غيابها حين رحلَت.

أنتِ تتشبّثين بالماضي، ولا تريدين المضيّ. احتفل العالم قبل يومَين بعامٍ جديد، تواصلت إيفلين عبر أحد تطبيقات الاتّصال المرئي مع ابنها وعائلتها في الفلبين، واحتفلت أمّكِ مع صديقاتها في أحد المطاعم المطلّة على برج خليفة، ونام جَدُّكِ مبكّراً كعادته بعد أن صلّى الشَّفْع والوَتْر، واطمَأنَّ على أشجاره، ودخَّن سيجارته الأخيرة، وابتلع قرصاً من أقراصه المنوّمة، وأمضى سيف ليلته مع أصدقائه في أحد شاليهات مدينة رأس الخيمة، وسافر والدكِ مع زوجته وعائلته إلى جُزر المالديف دون أن يدعوَكِ أو يُخبركِ وتدَّعين بينكِ وبين نفسكِ أنّ الأمر لا يهمّكِ، وأنتِ، يا نورة مع مَنْ؟ وحدكِ مع الماضي. عامٌ آخر يمضي من عمركِ، وما زلتِ لا تعرفين ماذا تريدين؟ هل ستمضي حياتكِ هكذا؟

اتركيني، أيّتها الذاكرة الماكرة. أُسكِتها. أطردها من رأسي، كما أفعل عندما تحوم ذبابة حول وجهي. أهربُ منها إلى جَدِّي. أحسبُ خطواتي. قبل أن أخرج من باب الفيلّا، تصيحُ إيفلين: انتظريني، سأساعدكِ. لا داعي آتي. أهبطُ درجات السلّم عند عتبة الفيلّا، أتعثّر في الأخيرة، فأتمسَّك بالدرابزين. تناديني إيفلين. أنا بخير، أقولها بحدّة وأمضي. أخطو خارج الفيلّا. شمسٌ لطيفة تصافح وجهي. أعرف الطريق. أسير يميناً ثمّ يساراً. أطرقُ باب مكتبه قبل أن أدخل. مبتهجاً يقول: حيّا الله بنتي نورة. أجلسُ قربه، أترقّب أنْ يُكمل حكاية والده المصوِّر. يعطيني حلاوة البقر. أضع حبّة في فمي. يغمرني طعم الحليب، شديد الحلاوة، ثمّ يبدأ الحكي: وفي طريقهم إلى البحرَين أرسل هتلر جيوشه لاحتلال بولندا، وبدأت أكبر حربٍ عرفها العالم.

12
الصورة الخامسة
البرنامج: مجموعة سفن في ميناء.

كان النشاط على أوجِه حين قفزا على سطح السفينة؛ الركّاب يستقرّون في أماكنهم، أفراد الطاقم يزاولون أعمالهم، والنوخذة يتفقّدهم جميعاً، ويصرخ بأوامره بين حينٍ وآخر، تتخلّلها كلمات نابية. جالَا ببصرَيهما بحثاً عن بقعة تَسَعُهما. سرعان ما وجدا مساحة خالية قرب بضائع مكدّسة، فاتّجها ناحيتها. داهمتهما رائحة نتنة، ازدادت سوءاً، سرعان ما عرفا أن مصدرها أكياس أسماك العومة المجفّفة. لم يجدا مفرّاً من القعود هناك، فلا مكان آخر يسعهما بين الجموع. جلسا، مستندَين على الحاجز الخشبي للسطح، ومحتضنَين صرَّتَيهما، يتابعان الجلبة حولهما، ومزيج السَّحنات واللغات والألوان والأعراق والروائح، وكأنّ المكان قطعة من الفُرضة اقتُلعت وجيء بها إلى هنا.

ما لبث النوخذة أنْ أصدر أوامره بالتحرّك، فنُشر الشراع ورُفعت المرساة. هبّت ريحٌ خفيفة لطّفت الرائحة النتنة أو ربمّا اعتادا عليها. ظلّا صامتين، حتّى بدأ عليّ الحديث:

- أريد أن أخبركَ بأمر.

نظر مطر نحوه:

- خير عليّ؟

أزاح الصرّة جانباً، وربمّا أزاح معها ثِقل الحكاية. قرَّب ركبتَيه نحو ذقنه

حتّى كاد الطرفان يتلامسان. كان يحدّقُ بنظراتٍ شاردة نحو حبل ملتفّ بعضه بعضاً، ويخبره بما حدث تلك الليلة بعد عشرة أيّام من رحيل عبُّود.

كان يرتقي السلّم الذي يُفضي إلى السطح في بيت خاله، حين سمع خاله في اللِّيوان خلف السلّم يسألُ أمّه عن رأيها في الزواج من قريبهم الأرمل الذي يعيش في مشيخة عجمان: "زوَّج كلّ عياله، وبيته عند بيت أختك." صمتت برهةً ثمّ أجابت: "وعليّ"؟ "رجل ويكدّ على نفسه، وسأزوّجه آمنة". "آمنة"؟ "إيه، بنتي آمنة بنت الحاجّ قاسم". تلعثمت: ".. بس آمنه أكبر منه". "أكبر بسنة .. سنتَين وحتّى لو أكثر .. يكفي أنا أبوها .. سوف أساعده ويصير ذراعي اليمنى في تجارتي". "بس، كلّمتُ أختي في موضوع عليّ ولطيفة، وعليّ يريدها، و.." "لطيفة سأزوّجها ولدي حمد". صمتَ لبرهةٍ، ثمّ علا صوته: "فكّري زين، هذي فرصتكِ والرجل مستعجل". صعد عليّ السلّم بمهل. سطع النور في وجهه دفعةً واحدة لمّا وصلَ. احتاج إلى لحظاتٍ ليرى الأثواب المعلّقة على حبلٍ ممتدّ بين طرفيَ السطح، تنتظر جفافها، ومنها ثوب آمنة مقلوباً تعبثُ به ريح خفيفة. تذكّر قماشها الأزرق ذا نقشة البوتيلة ذات الدوائر البيضاء. كان مع والدها حين اشتراه. تملكُ وجهاً يُشبه وجه أبيها، وقلباً جميلاً لا يُشبه قلبه، لو أنها ابنة شخص آخر أو أجمل قليلاً لفكّر بالأمر. ثمّ تحسَّر على لطيفة ابنة خالته، وأدرك أنّ معركته خاسرة وستكون لمَنْ هو أثرى منه.

اقترب من حافّة السطح، استندَ بذراعَيه على جدارها الطيني الخشن. عُرُشٌ هزيلة، قططٌ تموء، جرذانٌ مختبئة، رجالٌ منهكون عائدون إلى بيوتهم للغداء، أطفالٌ حفاة شبه عُراة يلعبون في السِّكك الرملية، روائح أطعمة، أرضٌ رماديةٌ ما شفيَت من الحريق بعد، تلك الأشياء كلّها ذكّرته بقلبه الذي ما زال يحترق. أحسَّ بغربةٍ مفاجئة، كأنه ما عاد ينتمي إلى هذا المكان.

رأى نفسَه في مكانٍ آخرَ، مع وجوهٍ أخرى، ومستقبلٍ آخر، وما عرف حينها أنّ البحرَين ستكون الملاذ. أكمل كلامه:

- وإلّا ما سافرت.

- إن شاء الله خير ..

- سافرتُ حتّى تختار وما تشعر بالحرَج.

- لا تفكّرْ، يا عليّ، وتوكَّلْ على الله ..

ربَّتَ مطر على كتف رفيقه، ومضى نحو ركّاب يعرفهم. كان عليّ يحتضنُ صرّته، ويراقب رفيقه يُسلّم على ثلّة رجال بالأنوف، كان متيقّناً بأنَّ ما يقوله مطر صحيح، ولكنه لا يعرف كيف يفسّر له الأمر. تصعب عليه رؤية رجل غريب يأخذ مكان والده، يُشعره ذلك بثقلٍ كحجرٍ صلدٍ على صدره، كالحجر الذي يربطه الغوَّاص في إحدى رجليه؛ ليهبطَ إلى الأعماق. يأمل أنْ تنتشله رحلتهم هذه ممّا هو فيه وتزيح الثقل المُعلّق بروحه. لا يمكنه أنْ يدّعي أمام الجميع أنّ الأمر لا يزعجه، وأنْ يشهد عقد زواجها من غريب، ويُسلّم على الحضور ويرد على تهنئاتهم، ويبتسم في وجه زوج أمّه، ويبارك له، ولا يتذكّر والده الراحل.

أشاحَ بنظره، واتّجه نحو بحَّار كان يحرّك دفّة السفينة بذراعَيه المفتولتَين ذواتيَ العروق النافرة، والعَرَقُ يتصبّب من وجهه الأسمر النحيل ذي العظام البارزة. تيقّن بأنَّ مسار حياته يُشبه مسار السفينة، فمهما خطّط يبقى جزءٌ مجهولٌ، لا يمكن أن يتنبّأ به أمهرُ النواخذة والبحَّارين.

في لحظةٍ نهشه إحساسُ يُتمٍ، عميقٌ، شاسعٌ، وغامضٌ كهذا البحر. هناك مَن أكّد أنه فقَد توازنه على السلّم المتحرّك في أحد مستودعات

خاله عندما كان يحمل كيس أرز ليضعَه على أحد الأرفُف، فوقع على رأسه، ومَن قال إنّه فَقَدَ وعيَه قرب مبنى الجمارك، وتناثر حِمله وخبطَ رأسَه بالجدار، وآخرون قالوا إنه أحسَّ بتعبٍ، فخرج من المستودع وانتحى جانباً على المصطبة ليرتاح، فوجدوه منكبّاً على وجهه وجمهرةٌ من الناس حوله. اختلفت الأقوال والأسباب، ولكنّ المؤكّدَ أنه مات، ومات شابّاً.

تذكّره نائماً وقتَ قيلولته متّكئاً على ذراعه اليمنى كطفلٍ، في حَوش البيت تحت السدرة، لا يعبأ بضجيج عبُّود، ولا بصياح أطفال الجيران، ولا بطنين الذباب حول وجهه. لا يتذكّره غاضباً أو يمدّ يدَيه لضربهما كبقية الآباء، وما اشتكى من عبُّود قطّ. هو الذي انتظر الذرّية سنين دون تذمّر، وهذا ما زاد وجَعَه.

أقبل مطر حاملاً دلّة قهوة نحاسية بيُسراه، وفنجاناً بيُمناه. صبَّ له القهوة، فاحتساها دفعة واحدة. كان بحاجةٍ إلى أيّ شيء يخفّف الصداع الذي داهمه. في المرّة الثالثة، هزَّ الفنجان دلالة الاكتفاء. رائحة القهوة خفّفت الروائح النتنة حوله. شكرَ رفيقه، ثمّ توسَّد صُرّته بقوّة، ودسَّ وجهه فيها، فتسلّلت رائحة عشبة المصَوْفة إلى أنفه، ثمّ أغلق عينَيه، وغاب عن كلّ شيء.

استيقظ بعد فترةٍ مع تأرجح السفينة التي ابتعدت عن الساحل وتوسّطت البحر. تأمّل الجَمع حوله. احتاج وقتاً ليتذكّر أين كان. أحسَّ بظمأ شديد، فأخذ قربته، وتجرّع منها الماء دفعة واحدة. ارتجّت معدته مع السفينة، ونزَّ العَرَق من مسامّات جِلده، وازداد تدفّق اللُّعاب في فمه. تجشّأ، ثمّ قام، وواجهَ البحر. أمسكَ بحاجز السفينة، وقذفَ ما بجوفه في البحر. خفَّ الغثيان، لكنْ، عظُمَ فيه إحساس آخر، نهَشه في الأعماق، مرٌّ وحامض كبقايا السائل الأصفر في فمه. مسحَ بقايا اللُّعاب بظاهر كفّه.

استلَّ نَفَساً عميقاً، وراقب الزرقة أمامه، التي ما رأى مثلها في حياته. الشمس تتلألأ على سطحها، كأقراط أمّه الذهبية المتدلّية من أُذُنها، يوم كان صغيراً، وكانت سعيدة. باغته مطر من الخلف ممسكاً به مِن كتفَيه، ثمّ أجلسه، وأبقى ظهره مستنداً إلى الحاجز الخشبي للسفينة: "هذا دوار البحر، ما تعوّدتَ مثلنا على ركوب البحر".

لم يركب عليّ سفينة وما رأى البحر بهذا الاتّساع والقرب. أقصى ما وصله من البحر كان عندما يعبر ضفّتي الخور، أو يسبح مع أبيه أو مع مطر ورفاقهما في بحر جميرا. أمّا هنا، فالأمر مختلف، يحوطه هذا الأزرق الشاسع كلّه الذي لا ينافسه شيء: بحرٌ وسماءٌ.

ظلّ طوال النهار مستلقياً على ظهره، مرخياً رأسه على صُرّته، سادّاً فتحتَي أنفه بقِطعتَي قُطن، وبين حينٍ وآخرَ يستنشق حبّة ليمون مجفّف كما نصحه أحد البحَّارة. ابتلعَ لقمة من المصَوْفة مع القليل من الماء، لكنْ، ما فارقه هذا الغثيان. لا يدري أكان سببه دوار البحر كما يقول رفيقه أم رائحة تلك الأسماك اللعينة التي حُمّلت معهم على ظهر السفينة.

في المساء تحوّل الأزرق إلى ظلام موحش، ينيره هلالٌ هزيلٌ بخفوت، وتشاركه نجمات بعيدات. توسّد الرفيقان صُرّتَيهما، وأحلامهما، وغرِقَا في سباتٍ عميق، كجنينَين يتهاديان في أرحام أمّهاتهما.

"حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلّا الله" فتح عينَيه على صوتٍ رخيم. كان البياض قد بدأ على طول الأُفق يميناً ويساراً. لكز رفيقه ليوقظه، وذهب ليتوضّأ. سرعان ما انضمّ إلى البحَّارة، وصلّى معهم. أحبَّ صوت الإمام، كان عذباً يرافقه صوت ارتطام الأمواج بالسفينة. استمَع إليه في خشوع،

وهو يقرأ سورة المجادلة: {إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون}.

بعدما فرغوا من الصلاة، اتّجه البحَّارة إلى أعمالهم، وقسمٌ منهم إلى قاع السفينة لتجفيفه، وهو إلى الأُفق. اتّكأ على حاجز السفينة الأمامي، وتأمّل تحوّل الشَّفق إلى البرتقالي فالأحمر. أحسَّ بخفّة، ربّما لغياب أعراض الدوار. تبعه مطر، وَقَفَ عن يمينه مولِّياً ظهره البحر، ثمّ سرد قصّته. ابنَ بحر كان، أبوه غوّاص. وأعمامه، وأخواله، وكلّ من ينتمي إليهم، كانوا غاصَّة. ما عرفوا غير البحر رِزقاً، فأحبّوه. يسأل نفسه دوماً: كيف يحبّ المرء شيئاً قد يُهلِكه في أيّ لحظة؟! وما زال يحيّره هذا السؤال!

لم يجِد حتّى هذه اللحظة إجابة تقنعه، هو الذي فَقَدَ في سنة الطبعة عمَّهُ وخالهُ وقريباً ثالثاً. البيوت كلّها كانت في عزاء، بيوت الأعيان والبُسطاء، فلم يخلُ بيتٌ من فقيد، أو قريب، أو صديق، أو حبيب. بكت النساء، بعضهنّ علناً، زوجاً راح وما عاد، وبعضهنّ سرّاً، حبيباً استودعها وعداً بزواج بعد الرجوع. كان طفلاً يسرح في حَوش البيت، لا يعرف ما يدور في البيوت المنكوبة، حين أقسمت أمّه ألّا تدعَه يركب البحر مع سُفن الغوص أبداً. في الموسم التالي أعلن السّردال؛ قائد أسطول الغوص عن رحلتهم، وكأنهم فقدوا ذاكرتهم ونسوا بطش البحر بهم.

نسيت أمّه قَسَمَها، حين أخذه أبوه معه، أوّل مرّة، كان متحمّساً، يريد أن يثبت رجولته، بعدما ظهرت شعيرات خشنة على وجهه، وخاصّة لابنة خالته حمدة التي ما عاد يلتقي بها بعدما كبِرت، وما عادت تلعب معهم. تبع خطوات والده بزهو الولد الغِرّ. ودَّع والدته على السِّيف. ما كان يعرف عن قَسَمها، ولا هي تذكّرته. نُشرت الأشرعة، وأبحرت السفن إلى مغاصات اللؤلؤ تباعاً، غنّى النهامة أناشيد الغوص والشوق والحبّ، وذابوا كلّهم في الزرقة.

راقب والده، يُصبح على تمراتٍ وقهوة، يعلّق في عنقه ديين(*)، ثمّ يجذب نَفَساً عميقاً ويسدّ مَنخَرَيه بالفطام، ويختفي تحت الأعماق. يمُسك عمّه الأصغر بالحبل استعداداً لرفعه في أيّ لحظة، ففي عُرف البحر يكون السّيب أحد أقرباء الغوّاص، حتّى لا يتحمّل النوخذة وِزر أيّ حادثة تؤدّي إلى هلاكهم أو إصابتهم. يلحّ على عمّه أن ينوب عنه. يرفض بحدّة، ويقول دون أن يرفع عينَيه عن الحبل الخشن بين يدَيه: «بعدك صغير». عيناه تضيقان. بإمكانه رؤية الخطوط حولهما. يحرّك يدَيه بسرعة، يرفع الحبل، فيظهر وجه أبيه، يمُسك بحبلٍ متدلٍّ من خشبٍ على ظهر السفينة، يسحب الفطام عن أنفه، يستلّ شهيقاً عميقاً ظلّ محبوساً، يسلّم أخاه سلّة المحار الذي يُفرغ ما بها على سطح السفينة، ويبقى زمناً يسيراً ليرتاح، ثمّ يعاود النزول.

ربّما يظلّ يراوح بين الصعود والنزول في اليوم نحواً من خمسين تبَّة(**)، ما بين حياة وموت، نور وظلمة، يستريح بين مناوبة وأخرى، يتجرّع خلالها قليلاً من الماء، ويصلّي، ثمّ يعاود بعدها العمل حتّى الغروب.

حين تغيب الشمس يتوقّفون، ويرشّون بشُحٍّ قطرات مياه عذبة على أجسادهم، ثمّ يدقّون بذور شجر القَرط ويخلطونه بالطحين والماء. يفركون الخليط بأجسادهم وهم يتسامرون، أو يُنصتون للنَّهام إنْ هو قرّر الغناء. ويفترشون بعدها سطح السفينة، يأكلون وجبتهم اليتيمة، أرزّاً وسمكاً ممّا يصطادونه. وفي نهاية يومهم يبسطون مراتبهم على السطح القاسي المبلّل، وقربهم أكوام المحار تنتظر فلقها فجر اليوم المقبل. لا يشتكون من سَهكٍ ولا تعب. يتسامرون قليلاً، ثمّ يضعون رؤوسهم، فيغيبون كالأطفال.

---

*) كيس مصنوع من خيوط مشبكة من ليف النخل، يضعه الغوّاص حول رقبته ليضع فيه المحار.

**) الغطسة تحت الماء.

بعد صلاة الفجر تبدأ عملية فلق المحار بلهفة، في لعبةٍ لا تخلو من مفاجآت. في أيمانهم مفالق حديد، يُدخلون أطرافها بين طبقتَي المحار، لتنفصل إحداهما عن الأخرى، ويبحثون بين طيّاتها عمّا ينشدونه. يراقبهم النوخذة بعينَين كالنَّسر خوفاً أنْ يخفيَ أحدُهم دانة أو حصباة(*) ثمينة. يتسلّمها منهم، يدوّن أوزانها وأوصافها، ثمّ يخبّئ حصيلة اللآلئ عنده بعد أن يلفّها بحرص في خرقة حمراء، يحفظها في صندوق خشبي. أمّا هو وبقية الصِّبية، فيخدمون الغوّاصين والبحّارة، وينظّفون المكان، ويقدّمون لهم الماء والطعام، ثمّ يعاودون فلقَ المحار المفتوح بحثاً عن لآلئ صغيرة، قد تكون نُسيَت على عجل أو إهمال.

في أحد الصباحات، بعد التبّة الخامسة أو السادسة من مناوبته الأولى لم يستطع والده أن يُكمل عمله، إذ داهمَه صداع قويّ، وألم حادّ في أُذُنيه، لم يفارقاه منذ الفجر. عاد إلى السطح ليريح جسمه، لكن النوخذة أنَّبه بقسوة، وهدّده بالضرب والعقاب، فعاد كسيراً إلى عمله. أكمل مطر فلق المحارات وقلبه ينفطر على والده، ما فارقه وجهه الداكن المُصفرُّ كالليمون المجفّف بعد توبيخ النوخذة. في كلّ مرّة يحرّك فيها عمّه السيّب الحبل يراقب وجهه، يخشى أن يعود أبوه جثّة هامدة، لتُلقى في البحر، كما حدث قبل أيّام مع أحد الغاصّة، وللمفارقة كان اسمه مطر. كان يناديه: يا السميّ، وفي الليلة السابقة لوفاته حدّثه عن ابنه الذي وُلد قبل رحلتهم بأيّام، عيناه كانتا تشعّان بالحياة، وفي صباح اليوم التالي صارتا لقمةً شهيةً للأسماك.

وقع أبوه مغشياً عليه بعد صلاة الظهر. تحلّق حوله رفاقه. ما تجرّأ على الدخول بينهم، خائفاً ممّا قد يراه. اكتفى ببكاءٍ صامت بين رجالٍ ما اعتادوا إظهار ضعفهم. دعا ربّه ألّا يكون مصيره كسميّه الغيّص البشوش. ظلّ

---

*) في الخليج من أجود وأندر أجود أنواع اللآلئ.

قرب أبيه المريض يومَين متتاليَين، يداويه المطوّع ويقرأ عليه آيات قرآنية وأدعية. ويبكي مساءً بلا صوتٍ بعد أن ينام كلّ مَن على السفينة مواجهاً البحر، فالرجل لا يبكي، وإن بكى، فليكن أمام البحر كما وصّاه أبوه. ما زال صوته يرنّ في أُذُنه حين غنّى أوّل يوم مع تحرّك المحمل بعيداً عن السِّيف: «شلوا بي واخفوني عن السِّيف .. فارقت من صافي وداده .. وأصبحت أنا بين الميادِيف .. غريب ويطالع بلاده». كان صوته حزيناً يُشبه صياح نورس مهاجِر. كم اشتاق إلى سماعه! بعد ثلاثة أيّام عاد والده إلى العمل، ناسياً أو متناسياً ما مضى، يغوص ويفلق المحار ويُدخّن النارجيلة ويتسامر مع رفاقه، وكأنَّ الموت ما مرّ قربه.

استمرّوا على هذه الحال أربعة أشهر، لا أرض لهم سوى البحر، ولا سقف سوى السماء، إلى أن تساوى الليل والنهار، وقرّر السّردال قائد أسطول سفن الغوص إعلان القفَّال والعودة إلى الديار. استعدّت النسوة على اليابسة لاستقبال رجالهنّ، تزيَّنَّ بالحِنَّاء وتطيَّبنَّ بالمسك والعود، ولبسنَ أجمل أثوابهنّ، وتنافسنَ على إظهار أبهى حليّهنّ. خرجْنَ إلى السِّيف، وانتظرنَ رفرفة الأشرعة البيض من بعيد وصوت النَّهام، انتظارٌ يشوبه توجّس، من سارية منكّسة أعلامها، أو قريبٍ مصاب أو عليل، انتظارٌ تصاحبه دعوات بالسلامة والرجاء بعودة حميدة لا تحمل خسائر.

في بيتهم المستقرّ بين العُرش المنتشرة وراء بيوت الوُجهاء، تحلّق إخوته الصغار حولهما بعد أشهُر الغياب. تمعّن في وجه أبيه المتقشّر من أثر الشمس والملوحة، تغمره بهجة واضحة بين عائلته، لكنَّ ما غاب عنه محيّاه المنكسر ذلك اليوم بعد توبيخ النوخذة. لم يخبر أحداً عن الحادثة ولا حتّى أمّه، التي لسببٍ غريب تذكّرت قَسَمَها بألّا يذهب إلى البحر، وما تركته يذهب مع الرجال بعدها. أكمل: «وقرّرتُ أن أشتغل ليرتاح أبويه، وترتاح أمّي وتبرّ بقَسَمها».

أنهى مطر حكايته التي لا تختلف كثيراً عن حكايات أبناء الغوَّاصين، ولكنه سلكَ طريقاً آخر، ولم يتوقّع أن يتبعه كثيرون بعده في البحث عن وظائف في دُوَلٍ مجاورةٍ سبقتهم في اكتشاف النفط، كالبحرَين والسعودية والكويت.

مضت بهم السفينة يومَين، ومع شروق اليوم الثالث تمَكَّنُوا من رؤية اليابسة. كانت المياه تراوح بين الأزرق والأخضر، لامعة تُبهِج المسافرين. رست السفينة بعيداً عن ساحل الجزيرة الطويلة المنخفضة. تجمّعت حولهم مراكب صغيرة تنقل الركّاب إلى الساحل، وركبوا أحدها. تأمّلا جهة المرسى بفضول: مراكب شراعية بأشكال وأحجام مختلفة بمحاذاته، وأشجار نخيل باسقات قُبَالَةَ الساحل، وبيوت كخطٍّ أبيض متوازٍ، طويل وممتدّ.

قفزا إلى السلّم غير الثابت، وصعدا فوق رصيفٍ حجريٍّ. مشيا لأوّل مرّة على أرض جديدة: فرضة المنامة. بدهشة الأطفال توقّفا لمراقبة حشد الألوان، الأصوات والروائح والوجوه غير المتجانسة. رجالٌ سمرٌ قصار أشدّاء يرتدون ملابس صفراء تميل إلى الحمرة، ويغطّون رؤوسهم بقلانس حمراء، وآخرون يحملون على أكتافهم بضائع وينشدون بلغةٍ ما ألفوها، ورزم سجّاد مكدّس بعضها فوق بعض، تفوح منها رائحة صوف عتيق، وقطعان أغنام هزيلة، يقودها غلمان بسَحناتٍ سمراء وأجسام ضئيلة، تلفها أُزُرٌ مخطّطة، وبحَّارة يرتدون ثياباً ملوّنةً مُبَهْرَجَةً، ورجل أشيب هزيل يحمل قفصاً معدنيّاً يحوي ببغاواتٍ خضراءَ، وروائح عَرَقٍ إنساني وتوابل شرقية وأطعمة ورَوث حيوانات.

قطع دهشتَهما صوتُ رجلٍ يكبرهما عُمراً، أسمر، طويل القامة، وسط جبهته أثر نَدبة قديمة لم تؤثّر على وسامته، ويعتمرُ غُترَة طويَت على طريقة البحَّارة. حيَّاهم: «إشلونكم شباب، نوَّرتوا المنامة». اتّجه مطر نحوه: «عزيز

.. إنتَ عزيز ولد عمّتي»؟ رمى عزيز عقب سيجارته بعد أن أخذَ منها نَفَساً عميقاً، وفتح ذراعَيه مستقبلاً ابن خاله الذي رآه آخر مرّة يوم كان طفلاً. أغمض عليّ عينَيه، وجذب نَفَساً عميقاً، وفكّر بأنها أوّل مرّة في حياته يطأ أرضاً غريبة، ويستنشق هواءً جديداً.

13
سيرة ضوء

أستيقظُ على رسالةٍ منه: صباح النور، على فكرة النور يذكّرني بكِ، لأنه يرتبط باسمكِ .. نورة، هل نلتقي اليوم؟

نورة اسم علَم مؤنّث عربي الأصل، ومعناه الضوء، وطالما أشعرني ذلك بالخجل. أن تكون كفيفاً واسمكَ مرادفٌ للنور. لا تجد ذلك إلّا في روايةٍ رديئةٍ لمؤلِّفٍ مغمور. تجاوزتُ منذ مدّة هذا الشعور، ربمّا لأنني اكتشفتُ أنّ للكلمة معانيَ أخرى، أو لأنني منذ مدّة لم أعد أقابل أناساً جديدين في حياتي، يسألون عن اسمي، ويشهقون إن أخبرتُهم، ثمّ يُتبعونه بتعليق: ما تشوفين واسمكِ نورة بعد .. مسكينة!

كنتُ فرحتَهم الأولى؛ طفلة جميلة كما يردِّدون، وأسموني على اسم جَدَّتي من جهة أمّي. أبي وأمّي عيال عمّة وخال، وأقارب من الدرجة الثانية، كما يقول الأطبّاء. جَدِّي سالم وجَدَّتي مريم، أخَوان، ابناهما، وهما بالمناسبة والداي، يحملان الجينات الوراثية المسبِّبة لمرض فَقْد البصر الوراثي، مع أنهما غير مصابَين بالمرض. والمرض متنحٍّ، متخفٍّ، لكنه حين ظهر عندي تنحّى أبي من حياتنا.

لاحظَت جَدَّتي مريم ذلك حين بدأتُ أخطو خطواتي الأولى. لم أكن أتّجه نحوها إلّا إذا نادتني بصوتٍ عالٍ. لا أبتسم، ولا ألتقط الأشياء، ولا تجذبني الألوان، وأفركُ عينَيَّ بشدّة. همست لأمّي بمخاوفها، فصاحت

بها غاضبة: بِاسْمِ الله على بنتي، ما فيها إلّا العافية. حمَلتني أمّي وخرجتْ من عندها ذلك اليوم غاضبةً.

في صباح اليوم التالي أخذتني إلى الطبيب، ربمّا لتفنّد كلام عمّتها وأمّ زوجها، أو لأنّ شكوكاً راوَدتها لم تصدّقها، وتجلّت لها بالأمس. أجرى الطبيب فحوصاته الكثيرة، وبعد أيّام أخبر والديّ بأنّ التشخيص الأوّليَّ بناءً على الأعراض يُشير إلى أنني مصابة بنوع نادر من العمى يُدعى فَقْد البصر الوراثي، تختصره ثلاثة أحرف (LCA)، ونتائج الفحص الجيني لدمي ستحسم نتيجة التشخيص، ولكنها سوف تستغرقُ وقتاً لتظهر. ظلّ يشرح لهما عن الجين الذي يحملانه، ورسَم لهما خطوطاً وحروفاً لكيفية انتقال المرض. ظلّ أبي صامتاً، وبعد أن أنهى الطبيب كلامه سأله سؤالاً واحداً: كم نسبة الإصابة في الطفل القادم؟ أجابه الطبيب: 25% غالباً، وإذا كان المرض مهيمناً ترتفع النسبة إلى 50% أو أكثر، وما اقتربَ أبي من أمّي بعدها.

وهَن بصري خلال السنوات الخمس المقبلة، ولمّا انطفأ كان أبي قد كوَّن عائلةً أخرى، وأنجبت له زوجتُه طفلَين سليمَين، وثالثاً كان في الطريق. عادت أمّي إلى بيت والدَيها وطلبت الطلاق. كانت جَدَّتي نورة تُخبرني بتلك التفاصيل والقصص، وكأنها لأشخاصٍ لا تربطني بهم أيه صلة، ثمّ تُتبعها بجملتها الأثيرة: عين ما صلّت على النبي.

أخبرتني عن أمّي هدى، ابنتها الوحيدة. كان صوتها الجميل، والبحّة العميقة التي تظهر حين تندمج في الغناء، كصوت هدى حسين. لا يفارقها مسجّلها الصغير، كيلا تُفوّت تسجيل الأُغنيَّات التي تؤدّيها طالبات المدارس في المناسبات من شاشة التلفاز في صالة البيت، أو تقتنص مشهداً غنائياً من مسرحيات الأطفال الكويتية، وبخاصّة إن أدَّتها

هدى حسين. كانت تعيد الاستماع إلى الأغاني التي سجَّلتها في أشرطة الكاسيت حتّى تحفظها، وتردّدها أمامهم. شاركت في الإذاعة المدرسية، وفي الحفلات التي أقامتها المدرسة، وظهرت ذات مرّة على شاشة تلفزيون دبي مع زميلاتها تؤدّي أُغنيَّةً وطنية بمناسبة عيد الاتّحاد. لا تذكر متى أطلقوا عليها اسم هدى حسين أوّل مرّة، ولكنها حين سمعته ضحكت ضحكة واسعة كشفت عن صفّ أسنانها المنتظم المتساوي في الطول، وكم كانت حينها تُشبه هدى حسين الحقيقية. قبل أن تُنهي حديثها عن أمّي، كانت تتنهّد وتقول: ولمَّا تركها أبوكِ سرقَ منها صوتها وضحكتها. عندها كنتُ أتخيّله لصاً يسرقُ الأصوات والضحكات. كلّما سألتُها عن أسباب عدم زواجها مرّة أخرى، تنهّدت وأجابت بصوتٍ يكاد لا يُسمَع: "الزواج قسمة ونصيب".

أعود إلى رسالة سيف. أجيبه: لا أستطيع، خالي وعائلته عندنا حتّى نهاية هذا الأسبوع، يناسبكَ يوم الاثنَين؟ يجيب: بعد ثلاثة أيّام؟! أردُّ عليه: الأحد مناسب؟ يسأل: يعني يوم واحد أبكر؟ أضحكُ عليه. نتّفق أن نلتقي يوم الأحد عصراً. ثمّ أرسل له: على فكرة، نسيتُ أن أخبركَ، اليوم أحببتُ اسمي أكثر.

البيت مزدحمٌ. عائلة خالي يشغلون الغرف العلوية. لا أحتكُّ بهم كثيراً، لكنّ ضجيجهم يملأ البيت. تتأفّف منهم إيفلين؛ لأنّ أعباءها تزيد. تشتكي: طلباتهم لا تتوقّف، لماذا لا يسكنون في فندقٍ حين يأتون من أبو ظبي أو يستأجرون بيتاً؟! آتي .. حتّى أنا لا أطيقهم، ولكنّ جَدِّي يريدهم عنده في البيت. لا تُعلّق، وتستمرّ في تذمّرها.

أذهب إلى غرفة جَدِّي. أستخدم عصا المكفوفين هذي المرّة. أظنّ أنّ آخر مرّة استخدمتَها فيها كانت في احتفال الجامعة بيوم العصا البيضاء،

حيثُ شرحتُ للطالبات كيفية استخدامها وفائدتها للكفيف. شعرتُ بالتناقض وأنا أشرح لهم طريقة استخدام العصا وأنا لا أستخدمها في الحياة اليومية، بل أعتمد على إيفلين. أطرقُ الباب وأدخل. يستقبلني كعادته، ويُجلسني بجانبه. بعد قليل يدخل حامد ولد خالي. يُعطي جَدِّي شيئاً، ويُخبره بأنّه من والده. يطلب منه جَدِّي البقاءَ. ثمّ يسأله عن دراسته، وأخبار ناديه الرياضي، ويعطيه شيئاً. أُخمّن أنها أوراق من فئة العشرة دراهم التي يوزّعها على الصغار مع حلاوة البقر. اعتدناه يفعل ذلك مذ كنّا صغاراً. يشكره الصبي. يجلس قربي. رائحة عَرَق طازج تصلني مع صوت أنفاسٍ أقربَ إلى لهاثٍ. أظنّه كان يلعب الكرة مع إخوته في حديقة البيت. يهدأُ نفَسه وينتظم، تتبعه نقرات على الهاتف. يسألني بصوتٍ فيه خشونة يستعدّ لتوديع مرحلة الطفولة: كيف تستخدمين موبايلكِ؟ أجيبه باستغراب: عادي. لكنْ، أنتِ ما تشوفين، كيف؟ أشير إلى السمّاعات في أُذُني، وأقول: بكلّ بساطة أفعّل خاصّية قراءة الشاشة، وايد سهل. يعلّق: أوه عجيب، ما كنت أعرف. ثمّ يعود إلى هاتفه. أسمع صوت أمّه. أميل نحوه وأسأله: هذي أمّك؟ إيه، أختي أرسلت مقطع فيديو في سِناب، ولكنْ، كيف عرفتِ أنها أمّي؟ من الصوت، يا حامد، أنا ما أشوف، لكنْ، أسمع، وأسمع زين، يمكن أحسن منك. يحاول أن يكتم ضحكةً صدرت من أنفه: تعرفين كنّا نحسبكِ ما تتكلّمين. أنا .. أنا ما أتكلّم! مَنْ قال لكَ؟ أقولها مستنكرة وغاضبة. الكلّ يقول نورة عمياء وبكماء، واليوم أوّل مرّة أسمع صوتكِ. صدمتني إجابته. يباغتني بسؤالٍ قبل أن أستوعب ما قاله وأردّ عليه: عندكِ حساب سِناب أو إنستغرام لأُضيفكِ؟ لا، ما عندي. يسألني عن السبب. أجيبه بأنني لا أعرف. يصمتُ قليلاً. يلكزني في ذراعي: هيي .. هل تريدين أن يكون لكِ حساب؟ وقبل أن أجيبه يلتقط الهاتف من يدي في ثوانٍ. أصوات نقرات سريعة. يتأفّف ثمّ يُرجع

الهاتف، ويطلب منّي أن أُلغي خاصّية قراءة الشاشة. أفعل ما طلبه، ثمّ يلتقطُ الهاتف مرّة أخرى، ويسألني: ماذا تريدين أن يكون اسم حسابكِ. ما أعرف. فكّري بسرعة. نورة على اسمي. ما يصير بس نورة، أتحسبين أنكِ نورة الوحيدة في العالم؟ بسرعة اختاري اسماً آخر. مممم .. ما أعرف. أضيفي أحرفاً إلى الاسم أو أرقاماً أو اسم العائلة أو أيّ اسم مستعار. اسم مستعار؟ أيّ اسم، اسمكِ مع رَقْم أو اسم العائلة أو أيّ شيء. مممم. فكّري بسرعة. يمكن Noora1991. ينقر على الشاشة بعد لحظات يقول. الاسم مأخوذ، جرّبي غيره بسرعة، لحظة لحظة. أسمع نقرات سريعة ثمّ يقول. _Noora1991هذا الاسم متوفّر؟ زين. اكتبي بسرعة الرَّقْم السرّي. يعطيني الهاتف. احفظي الرَّقْم لا تنسينه، يقولها ثمّ يسترجع هاتفه بسرعة فور أن أنتهي. وإيميلك؟ أعطيه عنوان البريد الإلكتروني. تريدين أن يكون حسابكِ في سِناب بالاسم نفسه؟ أردُّ عليه بالإيجاب حتّى قبل أن أستوعب ما يقوم به. ممم، أظنّ ذلك.

يستمرّ في نقر الشاشة. بعد أن ينهي عمله يعلّمني كيف أستخدم تلك المنصّات، ثمّ يسألني عن الحسابات التي أرغب بمتابعتها: تحبّين الطبخ، الرياضة، الموضة، كرة القدم، بسرعة .. ماذا تحبّين؟ ما أعرف، أيّ شيء، أنتَ اختار. يتابع حسابات يخبرني عنها. يقول: هذا يعرض آخر الأخبار، وهذي مشهورة تتابعها كلّ أخواتي حتّى أمّي، هذا فنّان ويضحك وايد لازم تضيفينه، وهذا الحساب الكلّ يتابعه. يعلّمني كذلك كيف أُنزل صور ومقاطع فيديو. يمكنكِ أن تكتبي تحت الصور أيّ شيء، جرّبي. أصوّر مكتبة جَدِّي. أنزل الصورة. أحصل على إشعار إعجاب من حساب حامد. خلاص، حصلتِ على لايك منّي، وعرفتِ كلّ شيء، مع السلامة. وأسمع صوت الباب يُغلَق، حتّى قبل أن أشكره وأستوعب ما فعله خلال الدقائق الماضية.

كنتُ قابعةً في هوّة عميقة بعد وفاة خالي سعيد، أسمعُ ما حولي كصدى يأتي من مكان بعيد. بعد انقضاء أيّام العزاء أهداني أبي أوّل هاتف أيفون حصلتُ عليه، وعلّمني استخدامه، حين كنتُ معه في سيّارته المركونة عند باب بيتنا. قضيتُ بقية يومي أستمع إلى المرأة التي يصدر صوتها من الهاتف، وخطر لي بأن هنالك على الأقلّ مَن يُفكّر فينا في هذا العالم. لم أعُد أسأل إيفلين عن الأوقات والتواريخ، ولا أعتمد عليها عندما أريد أن أتّصل بأبي أو جَدَّتي مريم. شغلَ الأيفون مساحة من حياتي، وأعطاني فسحة من الاستقلالية، وصار يلازمني كلّ وقت. أصبحت تلك المرأة التي أسمع صوتها في الأيفون صديقتي، مع أنها مزعجة أحياناً كشأن الأصدقاء أو الأقرباء في الحياة الواقعية، ولكنْ، لا أستغني عنها أبداً. ولم يعُد الصَّمت يُرعبني طالما يمكنني وضع الهاتف على وضع التشغيل.

مساءً أخبر سيف بما حدث اليوم؛ عن حامد العَجول الذي ظنَّ أنني بكماء كذلك، وعن حساباتي الجديدة، وأسأله عن حساباته. أنشغل في هذا العالم الافتراضي الجديد الذي ما دخلتُه مِن قبل.

14
الصورة السادسة
البرنامج: على الأرجح رجل يحمل كاميرا.

تمعَّن في صورته. إنه هو، لا شكّ في ذلك. عيناه الواسعتان، وحاجباه المتباعدان، وأنفه الطويل المستدقّ، وأرنبته المنحنية قليلاً نحو الأسفل، وشَعره الأسود اللامع المسرّح إلى الخلف، وجبهته الضيّقة، عندما طلب منه المصوِّر الأجنبي أن يجلس على كرسيٍّ أمام آلة ذات قوائم خشبية ثلاث، وعدَّل طريقة جلسته وميلان رأسه، قبل أن يعود إلى آلته ويخفي رأسه في قماش أسود، ثمّ ومضَت للحظة كالبرق. لم يخطر له أن يعكس ذاك الصندوقُ صورتَه بهذه الدقّة، وإن لم تُظهر أثر نَدْبَةٍ أعلى يمين جبهته. انتقل إلى صورة مطر، قال وهو يمسح على شَعر رفيقه المجعّد: "حتّى شَعركَ الكشَّة طلع في العَكس". واستغرقا في الضحك، كانت تلك دهشتهما الأولى التي خلَّفتها رؤيتُهما صورتَيهما على بطاقة العمل حين تسلّماها من الموظّف لدى شركة نفط البحرَين بابكو، مرفقةً بأرقام عملَيهما.

حصلا على العمل بعد أيّامٍ من اصطفافهما منذ أوّل النهار عند بَوَّابة الكبائن المصنوعة من الصفائح الحديدية في مقرّ الشركة بعَوالي. كان السيّد الجديد يتفقّدُ طابور الشباب الطالبي العمل وذراعاه خلف ظهره، يتفحّصهم واحداً واحداً برفقة المترجم المحلّي، الذي يعرفُ بعض الكلمات الأساسية في اللغة الإنجليزية. في البدء اختارَ أصحاب الأجسام القوية

المفتولة ولم يلتفت إليهما، وفي اليوم الثالث صاح عليّ حين مرَّ الأجنبي قربه: "أنا وصديقي، يا صاحب العمل، نقرأ ونكتب ونعرف الحساب". انتبه إليهما، فوَقَفَ وسأل المترجم عمّا يقوله هذا الشابّ. اتّجه نحوهما. تأمّلهما من فوق إلى تحت بطرف عينَيه، ثمّ طرحَ عليهما بعض الأسئلة. بعد لحظاتٍ من التفكير، قال للمترُجم شيئاً، ثمّ هزَّ رأسه علامة قبولهما، وانصرفَ نحو البقية.

كانا يخرجان منذ ذلك اليوم كلّ فجر من مقرّ سكنهما في معسكر العمّال في عَوالي، بملابس العمل الكاكية اللون، وحذاء جِلدي ثقيل، وغُتْرَة طُويت على رأسَيهما تحميهما من حَرّ الصيف وبرد الشتاء، وبطاقَتي عمل عليهما صورُهما واسماهما تتدلّيان على صدرَيهما. يحملان السفرطاس(*)، ويركضان نحو باصات الشركة، ليدرّبهما ألِن الأشقر ذو العينَين الزرقاوَين اللتَين لم يريا مثل زرقتهما سوى البحر والسماء، أو الصاحب ألِن كما يناديه البقية، يتفاهم معهم بلغةٍ عربية مكسّرة، ويتعلّمان منه كلّ يوم كلماتٍ إنجليزيةً جديدةً. كان ألِن متقلّباً كموج البحر، يُصدر أوامره بتعالٍ، وحين يغضب تحمرّ وجنتاه وأُذُناه وأنفه الملآن بالنَّمَش، وينهمر العَرَق من مسامّ وجهه، ويلعن اليوم الذي جاء فيه إلى هذه البقعة القاحلة. أمّا حين يكون رائقاً، فيحدّثهما عن شوقه لمدينته الساحلية ساوثهامبتون، وخبز السكونز بمربّى الفراولة الذي تُعِدّه والدته، وأيّام الآحاد مع عائلته في ربوع الأرياف. يرجعان آخر النهار إلى سكن العمّال مُرهقَين، يتشاركان عشاءً سريعاً مع عزيز الذي يعمل في قسمٍ آخر، فلا يرونه طوال النهار، ويشاركانه أحداث يومهما. يلعبان الورق والدومينو إن تبقّى لهما شيء من اليوم مع رفاق السَّكن، أو يعزف لهما عزيز على عوده الأثير أغانيهم المفضّلة، وبعد صلاة العشاء يستغرقان في نوم عميق.

---

*) عُلب معدنية لحفظ الطعام.

مرَّت الأيّام الأولى سريعة، لم يشعرا بمرورها، حتّى جاءهم الطَّارش ذات يوم، يلبس على ثوبه صديرياً له جيوب خارجية وداخلية، مملوءة برسائل وخطوط، وعلى ظهره كيس. بوصوله تجمهر زملاء السكن حوله، إذ نادى الأسماء، وسلَّم كلّ واحدٍ منهم رسالته، أمّا المحظوظ منهم، فوصله شيء من أهله، قد تكون علبة سمن أو سحناه(*) أو أيّ شيءٍ آخر. أعاد عليّ قراءة رسالته التي كتبها مساء أمس للمرّة الأخيرة قبل أنْ يضعها في الظرف.

من المنامة إلى دبي 28 شعبان سنة 1358هـ

إلى حضرة الوالدة العزيزة، أدام الباري وجودها

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

سلامي عليكِ وشوقي إلى لثمِ يدكِ الكريمة، ونرجو من الله دوام الصحّة، وبعد

بعد السلام والسؤال، أنا والحمد لله بخير، وأشتغل في شركة نفط البحرَين بابكو، وهي شركة كبيرة يشتغل فيها كثير من البحرينيّين. كان طابور الطلب طويلاً، وانتظرنا من الفجر مع خَلقٍ كثيرين، عرباً وهنوداً. الحمد لله شغّلونا أنا ومطر، وخلصنا الفحص الطبّي، الحمد لله بنجاح، ونحن في فترة تدريب، والمعاش زين.

ساعدنا عبد العزيز ابن عمّة مطر في الحصول على هذا الشغل، وهو أكبر منّي بنحو عشر سنوات، ويشتغل عندهم من زمان، ويسكن معنا في المكان نفسه. يوم الجمعة إجازة،

---

*) سردين مجفّف.

ونروح فيها المحرّق أو المنامة أو نرتاح في السكن.

البحرَين جميلة، وسوق المنامة مثل سوق ديرة الكبير، وفيه بضائع ما شفت مثلها عندنا. سمعتُ من الإنجليز هنا بأنَّ حرباً بدأت عندهم في أوربّة الشهر الماضي. هل وصلتكم أخبارها؟

سلامي لكِ وللجميع.

ابنكِ البارّ

عليّ بن عبد الرحمن

أرسلتُ في الخطّ خمس روبيات من طرفي، وأعطيتُها للطّارش.

دوّن الطَّارش اسمَ أمّ عليّ وعنوان بيت خاله والمبلغ المرسَل لها، بعد أن تسلّم المبلغ منه، وروبية إضافية قيمة التوصيل. ثمّ قفل راجعاً، بعد أن وزّع الرسائل كلّها، وأخذ منهم رسائلهم. صاح الرجال وسألوه عن موعد عودته، فرفع ذراعه اليمنى، حرَّك أصابعه الثلاث، ومضى قائلاً دون أن يلتفت نحوهم: "ثلاثة أسابيع، جهّزوا الخطوط والروبيات قبل العيد".

جاء رمضان، ولأوّل مرّة يُفطر عليّ بعيداً عن أمّه. افتقد السُّفرة التي تجمعهما، وهريس بيت خاله، وثريد أمّ راشد، ولُقيمات أمّه بدبس التمر، وأداء صلاة التراويح في المسجد القريب من بيتهم. يُصبّره عزيز كلّ جمعة عندما يعود حاملاً معه من طبخ أمّه، فيتسحرّان منه.

وجاء الطَّارش قبل العيد بأسبوعٍ كما وعدهم، يحمل رسالة له من دبي. تلقّفها، وقرأها بلهفة:

حضرة جناب الابن البارّ عليّ بن عبد الرحمن، حفظكَ الله ورعاكَ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

إن تفضّلتم بالسؤال عنّا فنحن بخير وعافية ولله الحمد، ولا ينقصنا سوى رؤية وجوهكم الكريمة،

أمّا بعد

الله يوفّقكَ في شغلكَ الجديد، ويوفّق صديقَيكَ مطر وعبد العزيز. أمّا نحن هنا، فأخبارنا تسرّ الحال، وينقصُنا وجودكَ معنا. احتفلنا بزواج حمد بن الحاجّ قاسم على لطيفة بنت خالتكَ قبل شهر رمضان المبارك، وكان عرساً كبيراً حضره الأعيان والأهالي والجيران. لا ترسل لي روبيات، لأن الحالة والحمد لله مستورة، واحتفظ بمعاشكَ للمستقبل. سمعنا عن الحرب من خالكَ الحاجّ قاسم، وأتمنّى ما تكون مثل الحرب الكبيرة التي استمرّت سنوات وتركت العباد في جوع وفقر، وخلصت ولله الحمد قبل ولادتكَ.

وأبلغكَ سلام خالكَ الحاجّ قاسم وزوجتَيه وأولاده وبناته، والعمّة أمّ حسَن، وخالتكَ وعائلتها، والأهل كلّهم، وأمّ راشد، والولد راشد الذي كتبَ هذه الرسالة بخطّ يده، ويدرس في المدرسة الأحمدية، وفّقه الله.

والدتكَ المشتاقة

مريم يوسف

حُرّر في دبي، الاثنَين 11 رمضان عام 1358هـ

حدس بأنّ خاله أتمّ خطّته، وزوّج أمّه مع زواج ابنه من لطيفة. على غير ما توقّع، ما عاد يكنّ ضغينةً لخاله ولا ابنه، وما كَّدره زواج لطيفة من غيره، بل أحسَّ بخفّة. كان حُرّاً، لا أحد ينتظره، ولا ينتظر أحداً، لعلّ هذا أفضل لهم جميعاً. كلّ ما أراده أن يبدأ حياةً جديدة تُشبهه أكثر. كتبَ رسالة سريعة لأمّه يبارك فيها بحلول عيد الفطر، ويرسل لها أشواقه وتحياته، أمّا مالُه هذه المرّة، فخبّأه في مكانٍ أمين.

قصدا يوم العيد المحرّق، إذ زار مطر عمّته ليُعايدها، وانتظره عليّ في قهوة بو خلف. خرج صوت محمّد بن فارس من الفونغراف شجياً: "على دمع عيني من فراقك ناظِرُ .. تُرقْرِقه إنْ لم ترقه المحاجرُ .. يمثّلك الشوق الشديدُ لناظِري .. فأُطرقُ إجلالاً كأنك حاضرُ". فاندفعت وجوه مَن فارقهم في ذاكرته دفعةً واحدة: لطيفة التي آلت إلى غيره، وأمّه التي تأكّد من مطر أنها عقدت قرانها وستنتقل قريباً إلى مشيخة عجمان، وعبُّود الذي لن يراه، ووالده الذي بدأت تتيه منه ملامحه. داهمته وحشةٌ مباغتة كأنه يغرقُ وحيداً، ما استطاع معها أن يكبحَ دموعه التي تحرّرت على الرغم منه. جاءه صوتٌ قريب منه بين دقّات العود وضجّة المكان:

- إشلونك وليدي، إنت بخير؟

مسحَ عينَيه سريعاً بباطن كفّه اليمنى قبل أن يرفع رأسه نحو الصوت، فرأى رجلاً في منتصف العمر، ممشوق القدّ، طويل الوجه، حادّ الملامح، عيناه واسعتان ناعستان مسحوبتان نحو الأسفل، وحدقتاه لامعتان، يحمل على ذراعه اليمنى بشتاً أسود بحاشية مذهّبة، ويضوع منه عبق دهن عود معتّق. يبدو أنه دخل للتوّ، لأنّ كلّ مَن في المقهى وَقَفَ لتحيته والسلام عليه. وَقَفَ مرتبكاً.

- الحمد لله .. بخير عمّي.

- متأكّد؟

- بس تذكّرت أهلي.

- نحن كلّنا أهلك.

- والنعم فيكم.

- من المحرّق؟

- لا من دبي.

- من ولده؟

- عليّ ولد عبد الرحمن.

- والنعم عليّ .. تشتغل؟

- في بابكو.

- زين .. وفي دبي اشتغلت؟

- إيه كرّاني عند الحاجّ قاسم.

- تاجر الموادّ الغذائية؟

- تعرفه؟

- سمعت عنه.

- الحاجّ قاسم خالي .. أقصد خال أمّي.

- والنعم فيه .. عليّ، أنت ضيفي اليوم.

- ما تقصّر عمّي .. ما أقدر .. أنتظر ربعي.

ربّتَ الرجل على كتفه، ثمّ قال:

- أنتَ بين أهلك .. حيَّاك عندي في الحفيز بالسوق في المنامة في أيّ وقت.

وغادر الرجل المهيب مع مرافقيه، وظلّ عبق طِيْبه في المكان. ولمّا سأل عنه أخبره الصبي في المقهى بأنه ناصر بن سالم المحرّقي ابن الطوَّاش المعروف، وأنه يأتي كلّ عيد من المنامة ليعايد أهله في المحرّق، وأكمل هامساً بأنه يمكنه أن يطلب ما يشاء؛ لأنه دفع حساب كلّ مَنْ في المقهى لبقية اليوم.

بعد قليل رجع مطر ومعه عزيز، ليغادروا جميعهم إلى المنامة بالمركب الشراعي. حدّثهم خلالها عزيز عن ناصر بن سالم بعدما سأله عليّ عنه. أخبرهم بأنه تركَ الطوَّاشة والمتاجرة باللؤلؤ، مهنة أبيه وأجداده بعد وفاة والده، والنزاعات بين إخوته غير الأشقّاء، وتخلّى لهم عن كلّ شيء، لينتقل إلى المنامة، ويعمل في استيراد الموادّ الغذائية وتوريدها. ازدهرت تجارته وتدهورت تجارتهم مع انخفاض طلب اللؤلؤ، وخلافاتهم المستمرّة. أمّا حياته في المنامة، فهي غامضة، لا أحد يعرف عنها شيئاً بعد أن فَقَدَ معظم أفراد أسرته. ختم عزيز حديثه بأنه لم تتبقَّ له ذريّة كما سمع، سوى ابنة وحيدة مدلّلة يُقال بأنّه أدخلها المدرسة. كانت الأحوال الجوّية مستقرّةً لحُسن حظّهم ذلك الصباح؛ لذا لم يتأخّر وصولهم إلى الجزيرة الأخرى، فأنهى عزيز حديثه.

تسكّع الشباب في طُرُقات المنامة، وجرَّب عليّ ومطر لأوّل مرّة الزلابية البرتقالية الشديدة الحلاوة، ثمّ ذهبوا إلى سينما مرسح البحرَين، واشتروا تذاكر درجة ثالثة بـ 6 آنات؛ ليشاهدوا الفيلم المصري "كلّه إلّا كده". اندمجَ الشباب مع المشاهد على رغم صعوبة فهم اللهجة المصرية عليهم،

وتعاطفوا مع البطل شاهين تاجر الفاكهة الذي احتالت عليه الراقصة فكيهة وسلبته أمواله.

بعدها توجّهوا إلى مطعم كباب في سوق المنامة يعجّ بالناس وأدخنة الشواء، يقدّم ألذّ مشاوي البحرَين كما قال لهم عزيز. وهناك بعد أن أحضر النادل الشواء وسط الخبز الساخن، أخبرهم عن طابوقة الحديد: جهاز يتكلّم يسمّونه راديو، ويقولون: إنه سِحر، وليس كالفونوغراف الذي يحتاج إلى أسطوانات. قال إنه شاهد مثله بالمصادفة عندما مرَّ قرب نافذة مشرَّعة لأحد بيوت تجّار المحرّق، وعرفَ أنّ سعر الجهاز يصل إلى 120 روبية، عندها شهق عليّ ومطر: "120 روبية"! وبدآ يحسبان الشهور والأيّام التي يجب أن يعملاها؛ لشراء ذلك الجهاز أو الطابوقة العجيبة. ضحكَ منهما عزيز وأخبرهما أنه لا داعي لذلك، فقد بدأت المقاهي في جلبها لسماع الأخبار. قال لهما: "اطلبا ناموليت أو شاي، واسمعا الطابوقة ببلاش". تحمّسَ عليّ لمشاهدة هذا الجهاز، كي يُشبع فضوله لمعرفة ما يحدث حوله في هذا العالم.

أثبتَ الشابّان كفاءتهما في العمل وانتقلا من قسمٍ إلى آخر، وتعلّما التحدّث بالإنجليزية، وبعد فترة وجيزة أصبح بإمكانهما قراءة وكتابة حروفها وبعض الكلمات. في الفترة ذاتها كان الغرب منشغلاً بحربٍ لم يُعرَف مصيرها بعد، وحشدوا جنودهم على حدود دُولهم، ولكنّهم في عَوالي ما شعروا بشيء، سوى أخبار متفرّقة ينقلها لهم الموظّفون الأجانب بين حينٍ وآخر، والصاحب ألِن ذو الأُذُنَين الحمراوَين، وجريدة البحرَين. تلك الجريدة بصفحاتها الأربع الكبيرة، التي كان يشتريها عليّ أسبوعياً بآنةٍ واحدةٍ، وأثار تعجّبَه حجمُ أوراقها، إذ كانت مختلفة عن صحيفة صوت العصافير الحائطية التي كانت تُكتَب بخطّ اليد، وتُعلّق على باب مجلس

مؤسّسها إبراهيم المدفع، وحظيَ بفرصة قراءتها مرّة واحدةً في أثناء مروره على الشارقة مع خاله العام الفائت.

تعلّق عليّ بجريدة البحرَين، وبمقالات عبد الله الزَّايد، فما كان يترك خبراً دون أن يقرأه، بل يعيد قراءته أكثر من مرّة، وعرف منها تفاصيل الحرب الدائرة في أوربّا بين الحلفاء ودول المحور، وأخبار العرب وأوضاعهم. قرأ بين صفحاتها سرديات لقصص مترجمة من الإنجليزية والفرنسية والفارسية، وقصائد الشيخ محمّد بن عيسى آل خليفة، وشاعر البحرَين إبراهيم العريّض، وعبد الرحمن المعاودة، وخالد الفرج. احتفظ بأعدادها تحت سريره، وتمنّى لو تصبح يومية، كما يُفترَض بها أن تكون، إذ حملت ترويستها عبارة: "جريدة يومية سياسية أدبية علمية جامعة، تصدر مؤقّتاً كلّ أسبوع".

تعلّق كذلك بعكّاسة الصور، وتمنّى لو يمتلك صورة أبيه أمام سدرتهم، وعبُّود المبتسم. كان يراقب المهندس جوزيف وهو يستخدم الآلة العجيبة التي تُظهر الصور، وبعد فترة تشجَّع وسأله عنها. أراه المصوِّر الآلة عن قرب، وتركه يحدّقُ عبر عدستها. كانت محمولةً وأصغر من تلك التي رآها أوّل مرّة.

ذات صباح شتويّ ناداه جوزيف لمّا رآه من بعيد، وطلبَ منه أن يقفَ أمامه في الهواء الطلق، وأن يتقدّم خطوة ويرفع ذقنه قليلاً، ويبتسم. حدَّق المصوِّر في العدسة، ثمّ أطلقَ يده اليسرى عالياً، مشيراً بأصابعه الثلاثةِ بالتزامن مع صوته بالإنجليزية: "واحد .. اثنان .. ثلاثة". دعاه جوزيف لاحقاً بعد صفّارة استراحة الغداء إلى مجمع سكنهم الذي كان حُلماً للعُمّال العرب، حيث أطلقوا عليه اسم الكامب الفردوسي.

كانت بيوتاً حديثة متطابقة ومتجاورة ما شاهد مثلها، منتظمة في أربعة صفوف، أعلى باب كلّ منها رَقْم. أخفى ارتباكه في أثناء سيرهما بين البيوت

ورؤيته نسوةً بملابس غربية لم يألفها، وجاهِداً غضَّ بصرَه. أدخله جوزيف بيتاً تعلوه لافتة كُتب عليها رَقْم 122، يشاركه فيه رجل آخر، أصهب بَدين، ووجهه مملوء بالنَّمش، كان منشغلاً بتزيين شجرة مخروطية الشكل بكراتٍ فضّية وذهبية لامعة قرب المدخل، حتّى إنه لم يُكلّف نفسه عناء رؤية الزائر الغريب، واكتفى بتحية سريعة. أدخله جوزيف غرفته، وعلى طاولة صغيرة قرب سريره رأى صورة شابّة شقراء، شَعرها مموّج ومصفّف بعناية مع طفلة تُشبهها، مؤطّرة ببرواز مربّع فضّي. أشار جوزيف نحوها وأخبره بأنهما زوجته وابنته، اللتان تعيشان في كولورادو. سأله عليّ: "هل كولورادو هذه بعيدة"؟ تنهد جوزيف: "أبعد ممّا تتخيّل". جلسا على كرسيَّين متقابلَين حول طاولة صغيرة قرب النافذة، وقدَّم له جوزيف من علبة معدِنية زرقاء عليها صورة طفلة شقراء حبّات بسكويت تُشبه البقسماط أو الخبز المجفّف، هشَّة وسكّرية. تنبّه لأوّل مرّة على أطراف أصابع جوزيف وأظافره المصبوغة باللون البنفسجيّ. اختفى بعدها وراء باب دولاب خشبي واسع شغل حائطاً بأكمله، ثمّ أقبل يحمل علبة معدِنية تُماثل علبة البسكويت تماماً، لكنْ، تكدّست فيها صورٌ كثيرة. أراه جوزيف صوراً لأماكن مختلفة: صورة رجلٍ يجدّف بقارب خشبي في البصرة، وأخرى لرجالٍ يشربون الشاي تحت ظلال النخيل في الزُّبير، ونسوة يحملنَ فوق رؤوسهنّ جِراراً، وكهل نحيل يجلس القُرفصاء ويعزفُ على مزمار أمام سلّة، يُطِلّ منها ثعبان في بومباي، وأطفال حفاة شبه عراة يلعبون على الرمال في بوشهر، ورجل نحيل بلا ساق يحمل عكّازه عالياً ويتّكئ على آخرَ يصغره سنّاً في بندر عبّاس، وشابّة تَظهر من تحت غطاء شَعرها ضفيرتان طويلتان، تحاول إخفاء ضحكتها والأساور تملأ ذراعَيها من رسغَيها حتّى مرفقَيها، أخبره أنها لفتاة لطيفة كانت تبيع المكسّرات في أحد بازارات كراتشي. تنهد قائلاً: "لو أنكَ رأيتَها، يا رجل! اجتمعت ألوان العالم كلّها في أساورها وثيابها، ولكن الأبيض والأسود

خذلاها". كان يحكي عنهم كأنه يعرفهم، ويتذكّر التفاصيل الصغيرة كلّها. أخبره أنه كان يتحاور معهم قبل أن يصوّرهم، ويخلق معهم علاقة سريعة، ليكسر الحواجز بينه وبينهم، ولو مِن طريق الإشارات والإيماءات. أخبره أيضاً عن حُلُمه بالسفر إلى مناطق جديدة لاستكشافها وتصويرها. سأله عليّ هل صوَّر أشخاصاً مهمّين في أثناء تجواله ورحلاته، حكّاماً أو أثرياء أو أمراء؟ أجابه جوزيف بأنه حين يصوّر يبحث عن الإنسان البسيط الذي يعكس الحياة الحقيقية، وأكمل: "هؤلاء لديهم مَن يصوّرهم، أمّا البُسطاء، فلا أحد يكترث لهم، ومعهم يتجلّى معنى الحياة .. ولا تنس كذلك أن كلّ صورة هي وجهة نظر المصوِّر". سأله عليّ: "ماذا تقصد"؟ أجابه المصوِّر: "أنا أصوِّر ما أريد أن يراه الرائي". أكمل وهو يشير بسبّابته نحوه: "ما أريدكَ أنتَ أنْ تراه". ثمّ استطرد قائلاً، كأنه تذكّر شيئاً مهمّاً: "لحظة". قلَّب الصور، حتّى صاح قائلاً: "وجدتُها". أعطاه صورة، تضمّ رجالاً متجمهرين ملامحهم ليست واضحة، أخبره بأنها صور من الإضراب العمّالي(*) في بابكو الذي حدث فور قدومه إلى هنا. «صوَّرتُها للتاريخ». قال. سأله عليّ عن سبب الإضراب، فأجابه: «للمطالبة بحقوقهم». صمَت قليلاً، ثمّ همس قائلاً: «إنهم أصحاب الحقّ وأبناء البلد، أليس كذلك»؟ «ولكنكَ لستَ منهم. أنتَ مع مَن»؟ «أنا مع العدل». أطرقَ عليّ وتمعَّن في الصورة محاوِلاً تخيّل ملامحهم ومطالبهم.

ثمّ أخذه جوزيف إلى غرفة مظلمة تَصدُر منها رائحة نفاثة غريبة، أسماها: الغرفة السوداء، صغيرة جدّاً، وشديدة الظلمة، وقال: «كما تحتاج الصورة إلى الضوء، تحتاج كذلك إلى الظلام». راقبه يصبُّ موادّ سائلة ذات روائح نفّاثة في ثلاثة أحواض، ثمّ أخرج الفيلم، وسدَّ أي منفذٍ للضوء. كان المكان مظلماً لا يكاد يرى فيه شيئاً. غمسَ الفيلم غير المعالج في المادّة الأولى

*) أوّل إضراب عمّالي في البحرين بخاصّة وفي الخليج بعامّة عام 1938.

وشرحَ له أنها مادّة الحمض، وهي أطول مراحل معالجة الصور. بعد ذلك غمَس الصورة في مادّة أخرى لوقف التفاعل، وهي الأقصر، ثمّ في مادّة التثبيت ذات الرائحة النفّاثة القوية. همسَ جوزيف: «كي نحافظ على الصور ولا تتلاشى مع الزمن». وأخيراً في الماء. أصبح النيجاتيف أو الفيلم المعالج جاهزاً للطباعة على أوراق التصوير.

وتحت إضاءة اللون الأحمر، وضع جوزيف النيجاتيف تحت مكبّر الصور، حتّى وصل إلى المقاس الذي ينشده. ثمّ غمسَ الصور في الماء وعلّقها مقلوبةً على حبلٍ بملاقط. أراه كذلك مجموعة أوراق تصوير خاصّة أحضرَها معه من بلاده، ويوصي بها مَنْ يأتي من هناك، أو يشتريها من محلّ فيكتور مراد في المنامة.

في صباح اليوم التالي أعطاه جوزيف صورته: شابّ بملابس العمل، يبتسم، وحول عنقه بطاقته، وخلفه أحد مباني بابكو. أرسلها إلى أمّه، وكتب على ظهرها: عليّ بن عبد الرحمن أمام مبنى بابكو، الموافق من يوم الأربعاء عاشر شهر ذي القعدة، 1358 للهجرة.

ومع تلك الصورة توطّدت علاقته بجوزيف أو يوسف الأمريكي كما صاروا ينادونه، صار يقضي معه فترات استراحته ويُساعده على معالجة أفلامه وطباعتها، وتعلَّم منه رياضةً تُمارَس على مساحةٍ واسعةٍ من العشب الأخضر في مكان خُصِّص للأجانب تُسمّى الغولف، وسمعَ منه قصصاً حدثت في بابكو قبل مجيئه، وتفاصيل أيّام الإضراب، ولقاءاته بالمستشار بلجريف، وما سمعه عن هولمز النيوزلندي مكتشف الآبار الارتوازية والنفط في البحرَين، ووقائع حدثت في أثناء أسفاره الطويلة، وحبّه للبصرة ونخيلها، وعن خبايا الحرب المشتعلة في أوربّا. كان جوزيف يتحدّث بعربيةٍ أقرب إلى لهجة أهل البصرة التي ظلّ فيها مدّة من الزمن وخالط أهلها، بل يُشبههم

بشَعره الأسود الكثيف وبشرته التي لفحتها الشمس، وعينَيه الداكنتَين. أخبرهم ذات يوم، وهو يتربّع على الأرض بينهم، بأنه ورثها من أمّه التي تنتمي إلى الهنود الحمر. توقّف عزيز عن دَوْزنة عوده وصاح مستغرباً: "عندكم هنود في بلادكم بعد"؟ ضحك جوزيف، وأفهمه بأنهم سكّان تلك الأرض الأصليون، ومختلفون عن الهنود الذين يعرفهم.

تعلَّم منه كذلك أساسيات التصوير، وأنواع الكاميرات، وطريقة التحميض. أخبره أنّ كاميرته اللايكا قديمة، وتوجد كاميرات أصغر حجماً وأحدث، يمكنه شراؤها من سوق المنامة، وقد يجد منها مستعملةً بأسعار أرخص. عمل بجِدّ، وحرص على ادّخار ما يكسب؛ ليحقّق حُلمه بامتلاك كاميرا ذات يوم.

كان عدد عمَّال شركة بابكو في تلك الفترة يتجاوز ثلاثة آلاف عامل، يشكّل البحرينيون أكثر من نصفهم، ومعظمهم في وظائف متدنّية، واحتلّ الأجانب وظائف إشرافية وإدارية. أمّا عليّ ومطر، فبعد فترة تدريب استمرّت ستة أشهر، عمل الأوّل في مهمّة مراقبِ لقياس كمّيات الزيت في حقل عَوالي، والثاني في مراقبة موازين الحرارة وتدوين مؤشّراتها.

كانا في نهاية كلّ أسبوعَين، يقفان في طابور طويل، ينتظران الوصول إلى المحاسب، فتتّجه أنظارهما نحو صندوق عن يمينه، ويتسلّمان منها روبيّاتهما، ليرسل مطر جزءاً منها إلى أبيه، ويحتفظ بما يتبقّى منها لمصاريفه ولتكاليف زواجه، أمّا عليّ، فيجمع روبياته لبناء بيت من الجِصّ، لا يصبح رماداً في لحظات، وعكّاسة صور تحتفظ باللحظة.

15

لافندر

مكتبة
t.me/soramnqraa

أفكّرُ في لقائنا وأنا أفطر وأتجهّز سريعاً، كيلا أتأخّر عن موعدي. جهّزتُ الصور الجديدة، وصورة جَدِّنا عليّ أمام مبنى بابكو التي أرسلها لأمّه. سأخبره بحكايتها، وكيف تعلّق بالكاميرا أو العكّاسة كما يسمّيها جَدِّي.

أصِلُ إلى العيادة. تطلب منّا موظّفة الاستقبال الانتظار. روائح معقّمات ومطهّرات، ووقع أقدام لا تتوقّف. أحدهم يناديني. أدخلُ غرفة الطبيب. صباح الخير، يا بنتي. صباح النور، دكتور زاهر. اتّفقنا، بابا زاهر، يا نورة، كيف حالكِ؟ من زمان ما شفتك؟ وكيف حال جَدِّكِ؟ ونسترسل في الحديث.

أخبره عن برنامج سينغ آي. سرعان ما أصوّره. نسمع معاً البرنامج يقول إنه يرى رجلاً في الخمسين من عمره، ويلبس نظّارة، وقميصاً أبيض، ويبدو سعيداً. يضحك. أسأله أصَغَّرَهُ البرنامجُ أم كَبَّرَهُ في السنّ؟ إلّا أنه لا يعلّق على ذلك، بل على أنَّ البرنامج ظنّه سعيداً. ربمّا لا يعرف برنامجكِ أنني سوري. ثمّ يحدّثني عن بيته في حلب، والصور التي تركها هناك ذات ربيع، عندما جاء لزيارة ابنه الذي يعمل هنا في دبي. يخبرني عن مظاهراتٍ بدأت قبل عودته المفترضة بأيّامٍ، ظنّها لن تدوم، أجَّل رحلة عودته على أمل أن يرجع بعد أيّام أو أسبوع. مرَّ أسبوع، شهر، شهران، سنة، سنتان، ولم يعُد حتّى اليوم. ضاعت ذاكرتي المرئية، يقولها وهو يفحص عينَيّ. يُكمِل حديثه: صور العائلة كلّها، صور زواجنا، مولِد

ابني وبنتي، صورهما مع رفاقهما في المدرسة، تخرّجهما في المدرسة والجامعة، صور أمّي وأبي، إخوتي، الصور كلّها ما نعرف مصيرها، يمكن سرقوها، أو احترقت، ما ظلّ أحد نعرفه بقي حتّى نسأله. يضحك ضحكة قصيرة مبتورة خرجت من أنفه، ثمّ يتابع بصوتٍ خافت، يُشبه صوت طائر حزين: راحت البلد وكلّ شيء، ناس ماتوا وتشرّدوا، وأنا زعلان على شوية صور. أتذكّر كلام جَدّي، فأخبره بأنّ ما وراء تلك الصور أهمّ من الصور نفسها، كمشاعر أصحابها، وأفكارهم، وقصصهم، حتّى إنْ ضاعت الصور تبقى الذكريات. يربّت على كتفي، ويقول إنني صرتُ أتحدّث كالكبار. يعود إلى طاولته، ويؤكّد أنَّ الفحوصات كلّها جيّدة وأنّ الحرَقان الذي أشعر به من الجفاف، أسمع نقرات قلم، ويخبرني أنه وصف لي قطرات للعين فقط. يعطيني الورقة. أصوّرها. البرنامج لا يتمكّن من قراءة ما كتبه. يقهقه ثمّ يخبرني بأنّ خطّ الأطبّاء لا يفهمه إلّا الأطبّاء والصيادلة. يأخذ الورقة ويكتب عليها مرّة أخرى الاسم. هذه المرّة يقرؤه البرنامج. يشكرني على تعريفي إيّاه بالبرنامج؛ ليفيدَ مرضاه من ضعاف البصر، يرافقني حتّى باب غرفته. تأتي إيفلين. يحيّيها. ثمّ يودّعني: خذي بالك من حالك، يا بنتي، وسلّمي على جَدِّكِ، ولا تتأخّري على فحوصاتكِ مثل آخر مرّة. مع السلامة، بابا زاهر، أقولها وأمضي.

أصل إلى البيت، أسرع ناحية مكتبه. أجده على كرسيّه عند باب مكتبه في الهواء الطلق. يطلب منّي أنْ أشاركه غداءه: غدانا اليوم سمك الصَّافي وعيش. بالعافية عليك أبويه. ثمّ أبلغه سلام الدكتور، وأحدّثه عن صوره المفقودة، وتأثير ضياعها عليه. لأن الإنسان لمّا يشتاق للماضي ولتلك اللحظات، يعود إلى العُكوس، وأبويه عليّ أحبّ التصوير لهذا السبب، يقول ذلك، ثمّ يصمت. أريده أن يكمل. أستفزّه للاسترسال، فأسأله عنّا نحن العميان، ألَا نرى؟ ألَا نمتلك صوراً؟ ثمّ أذكر له مقولة لأرسطو يقول

فيها إن التفكير مستحيل من دون صور. يردّ بحدّة بأن الرائحة صورة .. الصوت صورة .. المذاق واللمس .. كلّها صور، وأننا حين نشمّ رائحة أو نسمع صوتاً ترجعُ ذاكرتنا إلى شخص أو مكان أو موقف. أخبره أن كولونيا ما بعد الحلاقة التي يستعملها تذكّرني به، وكذلك رائحة الكُتُب والسجائر، والسمك المقلي وقت الغداء. يضحك بصوتٍ عالٍ.

أتغدّى في غرفتي. أطلب من إيفلين أن تُنهي أعمالها مبكّراً، لأننا سنقابل سيف. أحتارُ ماذا ألبس. أسألها عن ألوان وأشكال الملابس في الدولاب. تتعجّب: نورة منذ متى وأنتِ تهتمّين بهذه الأمور؟ فقط أردتُ أن أعرف ماذا ألبس اليوم؟ هذا كلّ ما في الأمر. تُغيّر نبرتها وهي تُعلّق: الآن فهمتُ، هذا كلّه من أجله. آتي .. ساعديني. لا تقلقي، أمّكِ لديها ذوق جيّد في اختيار الملابس. وتتركني.

أتذكّر تطبيقاً أنزلتُهُ قبل أيّام اسمه: بي ماي آيز(*). أتجرّأ وأجرّبه على الرغم من أنّني لستُ معتادةً على التحدّث مع الغُرباء. أنتظرُ بوجلٍ. أُفكّر أن ألغي الطلب، أو أُغلق هاتفي، لكنْ، في اللحظة ذاتها يتّصل أحد المتطوّعين المبصرين. أتردّد للحظات، قبل أن أستقبل اتّصال فيديو مرئياً مباشراً من خلال الكاميرا الخلفية للهاتف، يصدرُ منه صوت أنثوي يتحدّث الإنجليزية: كيف يمكنني مساعدتكِ؟ أسألها بعد تردّدٍ قصير: هل يمكنكِ مساعدتي لأختار ماذا ألبس؟ بالطبع. دعيني أرى ماذا عندكِ؟ أصوّر لها دولاب ملابسي. آه، هنالك كثير من الملابس والألوان، تقول. ربّما يمكننا أن نسهّل الاختيار .. اختاري مثلاً اللون الذي تشعرين به اليوم. ممم، دعيني أفكّر. طيّب .. رأيتُ ألواناً كثيرة، أصفر .. أحمر .. أبيض .. أسود .. أزرق .. أخضر .. لافندر. أقاطعها، أحبّ رائحته، أقصد اللافندر

(*) Be my eyes

.. وأظنّ أن لونه سيعجبني أيضاً. صوّبي الكاميرا على الملابس في الخزانة مرّة أخرى، ودعيني أرى الفستان جيّداً لأصفه لكِ. أحرّك الكاميرا، تصيح فجأة، توقّفي، اتّجهي يميناً، ها هو. أُخرج الفستان. أفرده على السرير. تخبرني بأنَّ لونَه بلون الخزامَى، وبه نقوش بيضاء على شكل ورود صغيرة، وياقتُه دائرية، مع أزرار لونها أبيض، والكُمَّين طويلَين، ثمّ تسأل، هل تبحثين عن حذاءٍ أيضاً؟ آه، صحيح، لحظة، سأريكِ رفّ الأحذية. أصوّر لها. لحظة هنا توقّفي، أرى صندلاً صيفيّاً لونه أبيض يلائم لون النقوش في الفستان، هل يناسب الأجواء عندكم؟ نعم، مناسب. إذن سيبدو رائعاً مع الفستان. هل تحتاجين إلى أمرٍ آخر. لا .. شكراً.

أضعُ على شفتَيّ قليلاً من ملمّع شفاهٍ طلبتُهُ قبل أيّام من أحد مواقع التسوّق. أخرج. كنتُ أخبرتُ سيفاً بأنني سألبس فستاناً بلون اللافندر؛ لأني أحبّ رائحته. ألبسُ عباءتي وأمضي.

ندخلُ المقهى. أسأل إيفلين عن مظهري. تبدين رائعةً، ولكنْ، منذ متى يهمّكِ مظهرك؟ ومن أين أتيتِ بهذه اللمعة الزهرية على شفتَيكِ؟ ألكزها في ذراعها؛ لأُسكِتها. اخترنا طاولةً في زاويتنا المفضّلة. لم يصل سيف. اتّصل يُعْلمني بتأخّره.

يصل بعد مدّة. أشمّ رائحة لافندر. أرتبك. يُعطيني شيئاً، ويقول: بلون فستانكِ، أعتذر، أخَّرني اللافندر. ألمسُ الأزهار المجفّفة الخشنة. تتناثر أجزاء منها في يدي. أعصرها بين أصابعي. تضوع رائحتها، ثمّ تبدأ حكايات صُور جَدِّنا عليّ. أريه صورته عند مبنى بابكو. يقرأ ما كُتب خلفها. تخيّلي، يا نورة، أكثر من ثمانين سنة مضت على هذي الصورة. يشمّها، ويقول إنّ لها رائحة الزمن. أُجيبه بأنّ لها قصصاً أيضاً، ثمّ أخبره بحكاية الصورة، وجوزيف المصوِّر. يعلّق سيف بأنّ المصوِّر يقفُ دوماً وراء العدسة، يرى كلّ

شيء ولا يراه أحد، أو بالأصحّ، لا يكترثُ أحد لمعرفة هُويّته أو مظهره، مع أنه على الأرجح هو مَن يختار زاوية التصوير وما يريد من الآخر أنْ يراه، ولو أنها لم تُخبره باسم المصوِّر لما عرَف هُويّته، وهذا سبب شغفه بالتصوير. أربكتني فكرة أن تَرى ولا تُرى، وأنا على النقيض من ذلك تماماً. استوقفني كذلك سبب شغفه بالتصوير، وحين صارحتُهُ بذلك ضحكَ ضحكة قصيرة بدت لي غريبة بعض الشيء، وقال إنه يمزح، ولا بدّ أنّه ورثه من جَدِّنا المصوِّر.

في طريق العودة تصلني رسالة منه: لأوّل مرّة أنتبه إلى رائحة اللافندر، أحببتُ رائحته ويعجبني اسمه العربيّ خزامى أكثر. في تلك اللحظة أستعيد رائحة أزهار الفلّ الفوّاحة التي كانت تأتي بها سهير إلى المدرسة صباحات الشتاء عندما يعتدل الجوّ، وتقول إنها أزهار بيضاء صغيرة تزرعها أمّها في أصصٍ تضعها في شرفة شُقَّتهم. يُذكّرني الفلّ بها وبأبلة فوزية المسؤولة عنّا. كانت تُشرف على متابعة دروسنا، وتقرأ علينا أسئلة الامتحانات، وتُلقّننا الإجاباتِ أحياناً. اعتدتُ أنْ أهديها في نهاية اليوم الدراسي أزهار الفلّ كلّها التي بحوزتي. توقّفتُ عن ذلك لمّا سمعتُها ذات يوم تُتمتم لإحدى المعلّمات: ما لي حظٌ في الدنيا، حتّى الفلّ الذي تعطيني إياه الطالبة العمياء ذابل. لم أفهم قصدها إلّا حين عرفتُ من سهير أنها لم تتزوّج حتّى الآن، وسمعتُها تشكو سوء حظّها في الزواج لمعلّماتٍ أخرياتٍ. لم أفهم كيف لم تتزوّجْ وهي أرقُّ وأحنُّ معلّمةٍ في المدرسة، على حين تزوّجت أبلة فتحية للمرّة الثالثة وهي التي لا تتوقّف عن الزعيق. ظلَّت معنا أبلة فوزية حتّى تخرّجنا في الثانوية، وفي سنتنا الأخيرة انضمّت إلينا طالبة كفيفة أصغر منّا بمراحل، أشرفَت عليها أيضاً.

مساءً، أبحثُ عن أبلة فوزية وسهير على منصّتي إنستغرام وتويتر. أكتب اسمَيهما الكاملَين، فلا أجد لهما أثراً. أفكّر في سهير، لعلّها تخرّجت في

كلّية الآداب بجامعة الإسكندرية، كما أخبرتني في آخر مكالمة بيننا عندما انتقلت مع عائلتها إلى مصر، وأخبرتُها بدوري أنّني قُبلتُ في جامعة زايد للبنات. كانت تحلمُ بأن تكون مثل طه حسين، وأنا بأن أكون مثل هيلين كيلير. أستمرّ في البحث وأدخلُ في حسابات نساء لهنّ أسماء قريبة منهما.

يُداهمني تعبٌ ونعاسٌ مفاجئ مع أنّ الوقتَ ما يزال مبكّراً. أرمي الهاتف والسمّاعة وجسمي على السرير.

16

الصورة السابعة

البرنامج: على الأرجح رجل وطفل في السوق.

وسمع الحديدَ يتكلّم لأوّل مرّة، عندما أخذهم عزيز إلى سوق المحرّق، عند مقهى عبد النور، حيث وجد روّادها متحلّقين حولها، الطابوقة كما يسمّيها عزيز، يستمعون باهتمام وقلق إلى صوت رجلٍ يتحدّث بحماسة وبلغةٍ عربيةٍ فصيحة وصوتٍ مجلجِل، وهو يقول: "هنا برلين، حيّ العرب". انضمّوا إلى الجموع، وطلبوا ثلاثتهم شراب ناملیت، فما كان الاستماع للمذياع بالمجّان. وقال الرجل كلاماً مغايراً لما يسمعه في بابكو ويقرؤه في جريدة البحرَين، بل كان يحرّض ضدّ الإنجليز ويُشيد بانتصارات ألمانيا، ويسخر من دُول المحور. صاح بعض الرجال وقد أخذتهم الحماسة لكلام الرجل. لكزَ عليّ ذراع عزيز وهمس في أُذُنه: "هذا يُلعلع ويخبّص في الكلام .. يسمعونه"؟ سأله عزيز: "مَن"؟ أجابه عليّ: "الإنجليز". قال عزيز ونظراته موجّهة نحو باب المقهى الموصد: "إيه، وأكيد ما يعجبهم سماعنا لهذي الإذاعة". "ونصدّق الإنجليز أو الألمان"؟ "ولا أحد فيهم .. إنتَ بس اسمَع واطمّش".

منذ ذلك اليوم صار يتردّد إلى المقاهي للاستماع إلى الإذاعات المختلفة، فاستمع إلى أخبار باري روما وبرلين العربية، وغيرها. وعرف المزيد عن خفايا هذه الحرب، ليس فقط من جريدة البحرَين وإذاعة لندن، بل من رؤية ألمانيا الكبرى كما كان يردّد يونس البحري وحلفاؤها. شاهد قبل مدّة صورةً لهتلر مع ستالين، في ملصق على جدار جمرك

المحرّق، وقد وضع كلّ واحد منهما قدمه مع قدم الآخر في فردة حذاء طويلة الساق، في كاريكاتير يرمز إلى اتّفاقية عدم الاعتداء بين السوفييت والألمان، وتعجّب كيف يمكن لهذا الرجل أن يكون مصدر الفوضى في العالم.

أثّرت الحرب في الأوضاع الاقتصادية في المنطقة، وسمع من البحّارة القادمين من دبي أنّ الأوضاع لا تسرُّ هناك أيضاً، بل تكاد تكون أسوأ، بعد أنْ فَقَدَ الغوّاصون مصدر رزقهم الأساسي، وافترش العتّالون الأرض ينتظرون قدوم أيّ قوارب إلى الفُرضة التي خلت من الحركة. ظلّ على تواصلٍ مع أمّه عبر الرسائل التي صارت تتأخّر أشهراً، وفي رسالتها الأخيرة طلبت منه العودة وترك العمل لدى الإنجليز خوفاً عليه، إلّا أنه طمأنها، فعلى الرغم من أخبار الحرب المتصاعدة المتواترة، ومعايشتهم لأخبارها عبر جريدة البحرَين والإذاعات، إلّا أنّ أثرها لم يمتدّ إلى هذه الجُزر الصغيرة البعيدة.

جاء رمضان آخر وهو بعيدٌ عن أهله، ولكنْ، هذه المرّة تركه مطر بعد أن غلبه الشوق وسافر في منتصف الشهر إلى دبي، فأحسَّ بفراغٍ هائل. طلب منه مطر أنْ يرافقه، ولكنه ما كان مستعدّاً للعودة بعد، واكتفى بإرسال رسالة لأمّه وعلبة حلوى.

كان يوم جمعة، السابع عشر من رمضان، بعد يومَين من سفر مطر، عندما عاد عزيز من عند أهله إلى عَوالي. سأله عليّ: "هل سمعت اليوم إذاعة برلين"؟ "ما أهتمّ مثلك بأخبار الحرب، أنا أهتم بأخبار الكرش". وأخرج من كيسه طبق هريس قمح مشبع بالسمن البلدي أعدّته لهما أمّه. قال عزيز: "تعرف يمَّه أنك تحبّ الدهن". ضحكا، وأفطرا معاً بشهية، وعليّ يقلّد نبرة يونس بحري وطريقة إلقاء خطبه في الإذاعة: "هنا برلين، حيّ العرب .. القوّات الألمانية الظافرة تتقدّم وتكتسح، هذه بداية تحرير أوربّا".

بعد صلاة العشاء والتراويح، ولعب الورق مع رفاق السكن، توسَّد كلّ منهما فراشه، وسرعان ما غلبهما النوم. استيقظ عليّ على صوتٍ قويٍّ أشبهَ بانفجارٍ ليس ببعيد، كان دَوِيّاً يشبه الرعد، ظنَّ أنّه يحلم، ولكنْ، لم تمضِ لحظات حتّى تكرّر الصوت بِدَوِيٍّ أشدَّ، واهتزّت الأشياء حوله. قام عزيز مذعوراً. سارع عليّ بإشعال سراج. هرعا إلى الخارج. شاهدا وميضَ ضوءٍ من بعيد، وأصوات انفجارات متتالية، لكأنّ السماء تبرق. سرعان ما انضمّ إليهما بقية العمّال فزعين. صاح عزيز: «الحرب وصلت عندنا»! في تلك اللحظة حلّقت فوقهم طائراتٌ على ارتفاع منخفض مسلِّطة أضواءها عليهم، وطغى أزيزها على صياحهم. أسرعوا جميعاً بدخول مسكنهم. احتمى عزيز بعودِه وعليّ بطاولة خشبية. ظلّا كذلك حتّى توقّف الأزيز وأصوات الانفجارات وصفّارات الإنذار، وخمدَت الأصوات، فخرجا مرّة أخرى، وشاهدا حريقاً بعيداً جهة مصافي البترول لم يستطيعوا تحديده بوضوح.

سرعان ما انتشرت بينهم التكهّنات، فمِنهم مَن جزم بأنّ الغارة مدبّرة من الإنجليز بهدف كسب تعاطف البحرينيّين ضدّ دول المحور، أو لسببٍ أكبر وهو جرّ الولايات المتّحدة الأمريكية إلى الحرب، وبعضهم كان متأكّداً أن ألمانيا أو إيطاليا أرسلت الطائرات، والبعض الآخر استبعد ذلك لبُعد البحرَين عنهما. ثمّ استرجعوا ما حدث قبل أكثر من شهر، حين شاهدوا في السماء مجموعة كبيرة من طيورٍ غريبة ضخمة شكلها غير مألوف، واعتقدوا أنها ربّما تحمل قنابل لتفجير المصفاة، لكنهم عرفوا لاحقاً أنها مجرّد طيور مهاجرة عندما أكَّد لهم جوزيف أنهم عثروا على أحدها ميتاً في مصفاة التكرير، وتبيّن أنه من فصيلة اللقلق. أمّا هذه المرّة، فكانت طائرات حقيقية، سمعوا أزيزها، وشاهدوا وميضها، وما خلّفته من حرائقَ محالٌ ألّا يكون حقيقياً. أحسَّ عليّ بألمٍ في معدته، وقبل الإمساك تجرّع قليلاً

من الماء مع عشبة المصَوْفة، والتهمَ حبّة تمر، أمّا عزيز، فأشعلَ سيجارته الرابعة. أذّن الفجر، صلّى عليّ مع بعض زملاء السكن، وخلدوا إلى النوم.

ظلّ عليّ وعزيز يتقلّبان في فراشَيهما حتّى الصباح، ولمّا لم يُسمَح للعمّال بالذهاب إلى العمل صباح اليوم التالي قرّرا الذهاب إلى المنامة لاستطلاع الأخبار، عن طريق زميلهم في السكن محسن سائق الباص، إذ طلبا منه أن يُنزلهما في أقرب مكان يمكنه دون أن يُكشف أمرهما.

سمعا في مقهى الفرضة إذاعة باري روما ما حسم الأمرَ، فقد أعلن أنّ وحدة سلاح الجوّ الإيطالي استطاعت أن تضرب أماكن إمدادات البترول في البحرَين، التابعة للأسطول البريطاني في منطقة الخليج وشرقي آسيا، وتركت فيها الحرائق مشتعلةً إلى درجة أنّ قُوّاد الطائرات كانوا يرونها من بُعد مئات الأميال، ولأول مرّة أحسَّ عليّ بالخوف من حربٍ وشيكة قد تصلهم. بعد أربعة أيّام من القصف جاءهم الخبر الرسمي أخيراً في جريدة البحرَين.

بيان من حكومة البحرَين برَقْم 25-1359 هـ، وتاريخ 17 رمضان 1359هـ، الموافق 19 أكتوبر 1940 نجد فيه ما يلي:

«نعلن لجميع المواطنين الكرام أنه في ليلة السبت 17 رمضان 1359هـ، حلّقت طائرات معادية مخترقة أجواء وطننا في محاولة تخريبية لقصف مصفاة شركة نفط البحرَين في المنامة. وعلى رغم عدم وجود عوائق دفاعية للمجابهة، فإنّ الطائرات التي كانت تحلّق على ارتفاع ألفَي ذراع، قد ألقت قنابل بلغ عددها

نحو أربعين قنبلة، سقطت كلّها خارج محيط المصفاة بمسافة نصف ميل. وحمداً للعناية الإلهية، لم تقع أيّ إصابة بشرية أو خسارة ماديّة تُذكَر، وتقوم حكومة الدولة البريطانية العليّة بجميع إجراءات الدفاع، وكلّ ما يحفظ سلامة الأمن في الوطن».

قرأ عليّ الخبر بصوتٍ عالٍ على زملائه في السكن على ضوء سراج بجانبه وهم يتحلّقون حوله. ران صمتٌ ثقيل تبعته همهمات، وما لبثوا بعدها أن بثَّ كلّ منهم مخاوفه. بدأ عبّاس الحديث غاضباً بعد أن أطفأ سيجارته على الأرض بقوّة: «هذي حربهم وما لنا شغل فيها». أمّا حسين، فخائفٌ على عائلته التي تسكن سترة، القرية القريبة من عَوالي ومحطّات البترول. وحمد العائل الوحيد لأسرته بعد وفاة والده، قال بحسرة: «ما لهم غيري». أمّا سند المعجب بهتلر، فعلّق وهو يفتل شاربه: «ألمانيا تحبّ العرب وستطرد الإنجليز من عندنا». فردَّ عليه محسن حانقاً: «صح ما نحبّ الإنجليز، بس هتلر بعد ما نحبّه». أمّا جابر القادم من العدّامة، فقال وهو مستلقٍ على ظهره، ومتأمّلاً الظلال المتأرجحة المنبعثة من إضاءة السِّراج وحركة الجريدة بين يدَي عليّ: «هذي لقمة عيشنا، ما لنا غيرها». وافقه عبّاس الذي سارع بإشعال سيجارة أخرى، واستنشق منها نَفَساً طويلاً، ثمّ أخبرهم حمد عن تهافت أهالي المحرّق على شراء الموادّ الغذائية وتخزينها خوفاً من حربٍ وشيكة. ظلَّت أفكار الشباب وأسئلتهم تتوالد، ومعها حَيْرتهم وقلقهم وأرقهم، حتّى أحضر عزيز عوده، واستنشقَ آخر نَفَسٍ من سيجارته قبل أن يسحقها على الأرض، وعزفَ، فأخذهم بصوته بعيداً عن ذلك كلّه.

في عطلة نهاية الأسبوع ذهب عليّ إلى سوق المنامة، قاصداً محلّ المصوِّر جينجرا لبيع أدوات التصوير، وفي جيبه نصف مدّخراته. لاحظ ازدحاماً على محالّ الموادّ الغذائية، وذلك ما جعله يدخل أحدها؛ ليشتريَ علب الأناناس التي يحبّها عزيز لسحورهم، كي يراضيه، بعدما وقعت بينهما مشادّة عندما عرف أنه يريد أن يشتري آلة تصوير. صاح به عزيز: «مجنون .. إنت أكيد انهبلت! الأسعار نار والناس خائفة من هذي الحرب وتدوّر على لقمة تأكلها، وأنت تشتري عكّاسة صور. إنت تعبان على كلّ روبية وبيزة يا خِبل». كان يدرك أنَّ ما يقوله صحيح، ولكنّ هوسَ الحصول على آلة تصوير غلب على المنطق ونصائح رفيقه.

بينما كان في طريقه إذ رآه، تماماً كأوّل مرّة، بالهيبة والنظرة نفسها، مواجِهاً له. تنحّى قليلاً، ليُفسِح له الطريق، لكنّ الرجل توقّف، وألقى عليه السلام. التفتَ حوله. لم يكن هناك غيره، فردَّ عليه بارتباكٍ، فما توقّع أنه سيتذكّره. سأله الرجل بصوتٍ خافت:

- ذكّرني باسمك؟

- عليّ.

- إيه عليّ صح تذكّرت .. إشلونك عليّ؟ طمئني عنك.

- الحمد لله.

ثمّ سأله عن وجهته، فأشار عليّ يميناً، وقال:

- محلّ جينجرا.

- في دربي .. تعال.

دردشَ ناصر بن سالم مع الشابّ، وعرف خلالها غايته. عندما اقتربا من

محلّه أمسك الشيخ بقبضة الشابّ، وطلب منه أن يدخل معه. كان المحلّ واسعاً، تعبق منه روائح عيّنات من أكياس الأرز، والزعفران، والقهوة والشاي والهيل وغيرها، ذكّره بمحلّ خاله في سوق ديرة. ألقى الرجل السلام، ثمّ اتّجه ناحية بابٍ خشبيٍّ مقفلٍ في آخر المحلّ، فتَحه كهلٌ قصير أحدب الظهر، عرَّفه باسم حجّي صالح.

دخلا غرفةً تعبق منها روائح أوراقٍ وحبر وتبغ وقهوة، وتغطّي أرفف خشبية حائطَيها الأيمن والأيسر، تكدّست بكُتُبٍ ودفاتر. جلس الرجل على كرسي خلف طاولة خشبية تواجه الباب، وأشار لعليّ أن يجلس على أحد الكراسي الأربعة المواجهة للطاولة. سأله:

- تعرف تقرأ؟

- أقرأ وأكتب. ويقولون خطّي حلو.

- وتعلّمت إنجليزي منهم؟

- إيه .. وأقرأ وأكتب كلماتٍ وجملاً بسيطة.

- مرتاح في شغلك؟

- بعد غارة الطليان اعتفسَ المكان وصرنا نخاف.

- قصف ميوتي(*) فشل وأخطأ هدفه، بس نجح في تخويفنا. المشكلة هي تأثير الحرب على استيراد البضائع والموادّ الغذائية.

- لاحظت الزحمة في السوق.

- هذا الوضع طبيعي في الحروب .. في الحرب الأولى تدخّلت الحكومة

---

*) أتوري ميوتي قائد الغارة الجوّية الإيطالية.

وفرضت غرامات على أصحاب الدكاكين الذين يبيعون زيادةً على الأسعار المحدّدة .. بس بعدنا في البداية ..

- متى تتوقّع تخلص الحرب؟

- الحرب مثل النار ما توقّف إلّا بعد أن تحرق كلّ شيء .. والله أعلم.

بعد قليل أخرج من أحد الأدراج علبة مصنوعة من الجِلْد الأسود، كشف عنها الغطاء بعناية، فظهرت آلة تصوير سوداء. ناولها عليّ:

- من بومباي.

قال عليّ وهو يتفحّصها بعناية:

- واضح، إنها جديدة.

- ما استخدمتها .. صرت ما أشوف زين.

- من علامة أجفا .. سمعت عنها من جوزيف.

- إيه .. صناعة ألمانية.

- ألمانية؟ معقولة؟

- وصاحبهم يريد أن يحكم العالم.

- أوّل مرّة أشوف مثلها.

- تحبّ العكّاسات؟

- إيه، وعلّمني جوزيف كلّ شيء عنها.

وحدث ما لم يتوقّعه عليّ، عندما عرضَ عليه الرجل عرضاً غيَّر حياته.

17
الصورة الثامنة

البرنامج:
رجلان واقفان، خلفهما باب، ولافتةٌ كُتب عليها رَقْم 122.

كان بين روّاد مقهى بو خلف ثالث أيّام عيد الفطر، مع عزيز وابن عمّه، ينتظرون أخبار الثامنة من المذياع، بين قرقرة القدو وقرقعة فناجين الشاي والقهوة. قبيل الساعة الثامنة حرّك الصبي الذي يعمل بالقهوة زرّ التشغيل، خرج صوتٌ مشوّش، ثمّ أدار المؤشّر بتأنٍّ حتّى انطلق صوتٌ واضحٌ فصيح: "هنا البحرَين، إذاعة الخليج العربي". صاح الرجال مندهشين ومتحمّسين: "وقّف .. وقّف .. هذا صوت محمّد دويغر". وطلبوا منه أن يرفع صوت المذياع.

استرجع عليّ ما قرأه الشهر الماضي في صحيفة البحرَين عن قُرب افتتاح المحطّة اللاسلكية للإذاعة العربية في البحرَين، وها هو لحُسن الحظّ يعايش الحدث بنفسه. عمَّ الهدوء أرجاء المكان عندما بدأ البثّ المباشر من حفل الافتتاح، بتلاوة القرآن الكريم، ثمّ تبعه خطاب الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة حاكم البلاد، ألقاه سالم العريّض، الذي بدأها: "السلام عليكم .. نحن حمد بن عيسى آل خليفة، نتكلّم من مدينتنا المنامة عاصمة جُزر البحرَين مذيعين للعالم الافتتاح الرسميَّ لمحطّة الإذاعة الأولى في الخليج». تحدّث خلالها عن مجريات الحرب العالمية الثانية ودعمه للحلفاء ضدّ المحور، وأهمّية افتتاح الإذاعة التي هي المحطّة الإذاعية الأولى في الخليج، وكذلك هجوم طائرات إيطالية على البحرَين. وفي

نهاية الحفل صدح صوت إبراهيم العريّض بقصيدة عنوانها راية العدل، تفاعل معها الجميع.

كان ذهن عليّ مشغولاً بالتغيّرات السريعة في حياته، منذ حادثة الحريق، وأخيراً، عندما اقترح عليه العمّ ناصر قبل أيّام أن يعمل عنده، ويعطيه الكاميرا ويخصم من راتبه كلّ شهر. لم يستغرق وقتاً طويلاً ليقرّر، وقد شجّعه عزيز على ذلك: «أحسن لك من الشغل مع الإنجليز». وكذلك مطر، الذي يفكّر بترك بابكو حالَما يدّخر مبلغاً جيّداً.

تعجّب ألِن من قراره، وبوجهٍ ازداد احمراراً ذكَّره بأنَّ كثيرين غيره يتمنّون أنْ يكونوا مكانه، وهو يضيّع بكلّ سهولة هذه الفرصة من يدَيه. صمتَ عليّ، ولم يخبره أنه لم يطِق المكان أبداً، ولا رؤية وجهه المحتقن كلّ صباحٍ، ولم يجدْ نفسه بينهم يوماً، ولولا حاجته للعمل لتركهم من قبل، بل اكتفى بهزّ كتفَيه.

في زيارته الأخيرة لجوزيف، صارحه الأخير بشوقه إلى امرأته وابنته التي تكبر بعيداً عنه. كان ثملاً وهو يحكي له أنّها هَجرتْه وتزوّجتْ غيره، فترك كلّ شيء، وهربَ من خيبته بالتصوير. قال: «تخيَّل .. صوَّرت أشخاصاً من أقصى بقاع العالم ولم أصوّرهم». حين أخبره عليّ عن عزمه ترك العمل في بابكو وتوديعه، اقترح عليه جوزيف أن يهاجر إلى الولايات المتّحدة الأمريكية، قال له: «أنتَ وسيم وذكي، وتلك بلاد عظيمة فتَحَت أبوابها أمام المهاجرين للعمل وجني المال». وأخبره بأنه هو نفسه، ابن مهاجر إيرلندي، أجابه: «ليس المال هو السبب .. أنا أبحثُ عن مكانٍ يُشبهني .. أشعر فيه بالراحة .. وأريد أن أصوّر كما تفعل أنتَ». ضحك جوزيف: «أيّها الشابّ، أنتَ تتحدّث كالحكماء». جاراه عليّ وإنْ لم يجد نفسه حكيماً. قبل أن يودّعه، عانقه مطوّلاً، وأعطاه صورةً تجمعهما، كتب خلفها

بالإنجليزية: «إلى صديقي العزيز عليّ .. وحدها الصور تشهد على تغيّرنا وسطوة الزمن علينا .. وتذكّر جيّداً أن اللحظات التي نُصوّرها لن تعود أبداً. احمل كاميرتكَ حيثما ذهبتَ، ولا تكترث باللغات والأعراق والحدود. المجد للصورة وتبّاً للحروب. تحيّاتي. جوزيف».

تمعَّن في الصورة، تذكّر ذلك اليوم جيّداً، كان أوّل أيّام السنة الإفرنجية الجديدة، دعاه جوزيف إلى مجمع سكنهم، ثمّ أخرج كاميرته وثبّتها فوق قاعدة خشبية، ووضعها في زاويةٍ مناسبةٍ تواجه باب بيته، وأعلاهما لافتةٌ كُتب فوقها رَقْم 122. وقفا أمام العدسة وقد لفحتهما إضاءة الشمس، قبل أن يطلب من زميله أن يلتقطَ الصورة. ضحك حينها، ورفع ذراعه عالياً مشيراً بعلامة النصر، وقال: «بمناسبة السنة الجديدة 1940 يا صديقي. ولنأمل أن تتوقّف هذه الحرب المجنونة». ولم يرَ الصورة إلّا ذلك اليوم.

تبعَ جوزيف المصوِّر شغفه، وغادر بابكو بعد عام، ورحل إلى وجهةٍ أخرى حاملاً كاميرته اللايكا، ليبحث عن صورٍ تنتصر للإنسان كما كان يُردّد. بعد أعوام سمعَ أنه قضى نحبّه بمرض الكوليرا في القاهرة. حزنَ من أجله، فقد كان يختلف عمّنْ عرفهم في بابكو. اقتربَ منهم، وجلسَ معهم، ولبس مثلهم، وشاركَهم سُفرتهم. أحبّهم فأحبّوه، وأسموه يوسف الأمريكي. رحل جوزيف أو يوسف، ولم يُعرَف مصير صوَره، وإن ظلّت تلك الصورة التي جمعتهما ذات يوم، عَصيّةً على النسيان.

18
خُزامى

يقودني معه إلى مكانٍ ما. تنبعث منه رائحة كولونيا. نسير معاً. ريحٌ ساخنةٌ تعبثُ بغرتي. يوقفني. يرفع غرتي. يثبّتها بدبابيس. أنا هنا طفلة. يمُسكُ بيدي مرّة أخرى. نكمل سيرنا. قدماي حافيتان. تغوصان في رمالٍ حارّةٍ. عَرَقٌ غزيرٌ ينزّ من مفارق شَعري. على شفتيّ مَلمَس حبّات رمل. أبلّلهما بلساني. يلذعه مذاقٌ مالحٌ. ألفظُ حبّات الرمل من فمي. أمسحها بكفّي. أسأله عن وجهتنا. لا يجيب. يحكمُ قبضته على يدي فقط. أشعرُ بالظمأ. أتوقّف. يشدّني نحوه. لا أقوى على السير. أجثو على ركبتَيّ. سخونة الرمل تلسعُ باطن كفّي. أرفعها. عطشانة. أريد ماءً. لا أحد يجيبني. الحرّ شديد. شفتاي جافّتان. أزدردُ ريقي بصعوبةٍ. حلقي ما زال جافّاً. أبويه سالم .. أبويه سالم .. أريد ماء. صوتي واهن. أقع. كفّاي تغوصان في الرمال، وتختفي رائحة الكولونيا.

أستيقظ. ألمٌ في أنحاء جسمي. صداعٌ شديد. حلقي يؤلمني. روائح غريبة. أحرّكُ ذراعيّ. شيء يمنعني من تحريكهما. أحدهم يناديني. أظنّه جَدِّي، لستُ متأكّدةً، أو شخصٌ آخر. أعاود النوم، أحلم بخزامى. لا أشمّ سواها. تتغيّر الروائح .. كولونيا .. عطور عربية .. كلوركس .. أوراق قديمة .. دوف .. مطهّرات .. صابون لايفبوي .. حِنَّاء .. دهن عود. تتداخل الأصوات. أسمعُ أصواتاً مألوفةً، لا يمكنني تذكّر أصحابها. مَن أنا ..؟ ماذا يحدث ..؟

عقلي مشوّش .. لا أعرف أأنا أحلم أم لا ..؟! لا يُمكنني أن أفكّر. أستسلم. أتوقّف عن التفكير والحُلم ومعرفة الزمن.

أحاول أن أتكلّم. تَصدرُ منّي كلماتٌ بصوتٍ واهنٍ. لا أُدرِكُ ما أقوله، ولا أعرف أثمّةَ أحدٌ يسمعني؟ يمسكُ بيدي. يأتيني صوته من مكانٍ بعيد، كأنني في قاع بئرٍ عميقةٍ. نورة .. بنتي نورة. أعرفه. أشمّ خلوف فمه وسجائره. يقبّل ظاهر كفّي. شفتاه ترتعشان، ويده أيضاً. صوته خفيف مبحوح، كأنه شاخ فجأةً. هل يُعقَل أن أكون قد نمتُ عقداً من الزمن؟ تتواردُ في خلَدي أسماء كثيرة .. عليّ .. مطر .. بابكو .. ناصر بن سالم .. عزيز .. قهوة بو خلف .. راشد .. يوسف الأمريكي. أناديه: أبويه سالم. يضغط على يدي بقوّة: الحمد لله .. الحمد لله .. إنتِ بخير، يا بنتي. يعود صوته شاباً، وتُشعرني نبرته بالأمان. مكتبة سَر من قرأ

لم أكن أعرف قبل اليوم أنَّ أصواتنا تكبر أو تصغر أعواماً في لحظات!

باب المذاق

19
دبس تمر

كنتُ أسرع إلى المطبخ عندما تخلط الشراب السكّري مع الطحين، وتضوع رائحتها في أرجاء البيت. أطلبُ منها الحلوى. تغطّي القِدر، وتقول: اصبري، يا بنت .. الخبيصة الناجحة هي التي نتركها حتّى تنضجَ بهدوءٍ، تعالي. تقولها، وهي تلكزني أعلى ذراعي لكزةً سريعةً. أتبعُها إلى غرفتها. تجلس على الكرسي. أتربَّعُ على الأرض إلى جانبها. تقرأ الفاتحة، وسورة الشمس والضحى. أردّد معها. تصلّي أربع ركعات، وأحياناً ركعتَين. أنتظرها. أحاول ألّا أفكّر في الحلوى كثيراً، ولكنّ رائحتها لا تغادرني. تُسلّم، ثمّ تردّد أدعيتها. تدعو لكلّ مَن تعرفهم اسماً اسماً حتّى حفظتُهم، ثمّ تختمها بدعوةٍ تَعُمُّ المسلمين كلّهم. كنتُ أسأل نفسي: هل تعرفهم جميعاً؟ حتّى سألتُها ذات مرّة، فأجابتني: أدعو للجميع؛ لتشملَ عيالي وذرّيتي. ثمّ لكزتني في ذراعي، وأكملَت: يا بنتي، لا تبخلي بالدعاء، فلا نعرف أيّ دعوة تُستجاب.

أسمعُ حركتها وهي تهمُّ بالوقوف فأقفز وأقوم. أنتظرها إلى أن تقف، وتخلع غطاء رأسها الواسع المخصّص للصلاة، لتُعيد وضع وشاح البيت القطني الخفيف على رأسها. ألتقطُ وشاح الصلاة وأعيد طيّه داخل السجّادة كما علّمتني. أضع السجّادة في مكانها فوق الكرسي، ونعود معاً إلى المطبخ. تغرفُ لي ملعقةً واحدةً؛ لتبرد أسرع كما تقول. أتلذّذُ بذوبان العجينة الناعمة الدافئة في فمي مع نكهة الهيل والزعفران. ثمّ تضيفُ ملعقةً أخرى، وتواصِل هذا حتّى أكتفيَ. كبرتُ وأصبحتُ أستمتع

بطقس إعداد حلوى الخبيصة وقتَ الضحى. أنخلُ معها الطحين. مَلمَسه كرمل البرّ؛ جافٌ ناعم. أخلط الزعفران مع ماء الورد، فتنبعثُ منها رائحة زكية. تقول إن لون المزيج يصبح برتقاليّاً، فأتذكّر طعم البرتقال الحامض، والشمس وقت المغيب، وشَعرها المُخضّب بالحِنَّاء.

دُونَ الأيّام كلّها، منذ أنِ استيقظتُ هذا الصباح ما فارقني مذاق خبيصة يدّوه. أنادي إيفلين: أشتهي حلوى جَدَّتي. خبيصة، تنطقها بقلب الخاء إلى كاف، والصاد إلى سين، ومدّ الخاء والباء، فتصبح كابيسا. وتكمل: ما ذكّرك بها؟ لا أعرف، ولكنْ، أريد أنْ أُعدَّها. نورة لا أتذكّر مقاديرها، ماما نورة كانت طاهيةً ممتازةً، أنا وميري كنّا نساعدها فقط، وميري كما تعلمين رجعت إلى موطنها، وقد مرَّت فترة طويلة منذ آخر مرّة. تعالي نجرّب. نورة، الآن؟ نعم الآن، أقول ذلك وأتّجه إلى المطبخ. أحاول أن أتذكّر ما نحتاجه: دبس تمر، طحين، سمن، زعفران، ماء ورد، هيل. نجهّز المقادير.

أقلّب الطحين على نار هادئة بملعقة خشبية، حتّى تتصاعد رائحته. أنخله وأتركه ليبرد. أضع الماء والدبس والسمن والهيل وماء الورد والزعفران في قدر حتّى يغلي، وأتذكّرها تقول: لا نتركه يغلي لمدّة طويلة؛ لنتجنب المرارة. أضيف إليه الطحين على دفعات، وأستمرّ في التقليب. الرائحة تتغيّر. لا أعرفُ كيف أصفها. حنونة، أو دافئة، أو حلوة، لا أعرف. أرشّ عليها المزيد من السمن والهيل والزعفران مع ماء الورد. أنتِ ماهرة مثل ماما نورة، تقول إيفلين. الرائحة ذاتها تنتشر في المكان. لم تُغيّرها الأعوام. أُحكم إغلاق القِدر، وأترك الحلوى على نار هادئة كما كانت تفعل. أذهب إلى غرفتها. لا أجد رائحتها. إيفلين، أين عُلب الفيكس؟ تبحث بين الجوارير، فتجد واحدةً، وتعطيني إيّاها. أُزيحُ عنها الغطاء، وأمسح بإصبعي سطح المرهم. أفركُ بها ظاهر كفّي. إنها رائحتها. أبحث عن سجّادتها. أعرف

أنها خضراء زيتونية مزخرفة وأعلاها رسمة للكعبة المشرّفة. ألبسُ غطاء رأسها الفضفاض. أبيضُ عليه نقوش ورود ملوّنة، وأوراق أشجار خضراء صغيرة. لمّا أخبرتني بذلك تخيّلتُها مزرعة جَدِّي في منطقة الخوانيج. أصلّي الضحى. أقرأ سورة الشمس والضحى. أجدني أردّد أدعيتها، والأسماء نفسها، وأضيف إليها اسمها، ثمّ أختمها بدعوةٍ للناس جميعاً، مَنْ نعرفهم ولا نعرفهم.

أعود إلى الحلوى التي أصبحت جاهزةً. أغرفُ منها لجَدِّي. أسير إلى مكتبه. حلوى أمّ سعيد، يقولها بصوتٍ يُشبه عبق وردٍ غير مقطوفٍ في صباحٍ ربيعيٍّ. أعطيه الصحن. الطعم نفسه، يقول، ثمّ بصوتٍ خافت يكمل: كأنها رجعت. يسترسل في الحديث، كأنَّ مذاق الحلوى أعاد إليه شهية الكلام، وأرجعه أعواماً.

كان قد انفصل حديثاً عن زوجته الأولى أمّ خالي يوسف، عندما رافق والده يوم العيد الكبير لمعايدة أهلهم في عجمان في رحلةٍ طويلة متعبة. شقّت سيّارتهم اللاندروفر الطُّرُقات الوعِرة، غير المعبّدة، بين المشيختَين. وهناك تذوَّق ألذَّ حلوى ذاقها في حياته. أخبرتهم عمّته فاطمة بأنها من بيت جارهم، تُعِدُّها ابنته الكبرى التي لم تتزوّج مع أنها اقتربت من الثلاثين؛ لترعَى إخوتها الصغار بعد وفاة أمّهم. تعجّبوا وتساءلوا بينهم عمّنْ سيتزوّجها، فالنسوة في ذاك الزمان كانت الواحدة تستعدّ لتزويج أبنائها حين تصل إلى تلك السنّ. دون أدنى تفكير، قال إنه سيتزوّجها. في البدء ظنّوه يمزح، لكنّه كان جادّاً. لكزه والده، ومال نحوه هامساً: كيف تتزوّجها وأنتَ حتّى ما شفتها؟ وما سمعتهم يقولون إن عمرها قُرب الثلاثين؟ أكبر منك! اقترحت عمّته سريعاً أن تبحث له عن أخرى أصغر وأجمل، وإن شاء أختها الصغيرة. لا يعرف لماذا وكيف حدث ذلك، ولكن شيئاً في

حكايتها شدَّه، أو لعلّه أراد أن يتمسّك بقراره. هو حقّاً لا يعرف السبب، ولكنه كان مقدّراً. ازدرد ريقه، وقال كلمةً واحدة، حتّى اليوم يتعجّب كيف صدرت عنه: سأتزوّجها!

يتنهّد، ويقول: تزوّجنا، وصارت كلّ شيء في حياتي. أفكّر في كلامه، وأسأل نفسي: هل يُمكن أن نتّخذ قراراً حاسماً في حياتنا بناءً على مذاق؟ يعيد وضع صحن الحلوى على الطاولة، ونظّارته. تلاشت حماسته مرّة واحدة. يخرج صوته كغصنٍ متهدّلٍ على وشك السقوط لا يُشبه صوته: أريد أن أرتاح. يتمدّد على الصوفا. أظنّ أن الذكريات أثقلت عليه. أنسحِب، وأتركُه.

بعد صلاة العصر أذهب إليه مرّة أخرى. يُمسك بيدي. أسير معه. شمسٌ هادئة تصافح وجهي. خفتُ عليكِ، وما قدرتُ أن أتركِكِ في المستشفى ولا دقيقة. يقولها وهو يشدّ قبضته على كفّي، كأنّه خائفٌ أنْ أتركه. التهاب بسيط مثل ما قال الطبيب. الحمد لله، بس خفت لأنّ الحمّى ظلّت عالية لأيّام. أنا معك أبويه، أقولها بصوتٍ خافت، ولكنْ، أحرصُ أن يسمعني. يُدني قبضتَينا المتشابكتَين نحوه. تعالي. يأخذني إلى غافتَيه الأثيرتَين. أسأله عن سبب حبّه لهاتَين الغافتَين. يصمتُ قليلاً ثمّ يقول: هذي غافة سعيد وهذي غافة أمّه. كيف يعني؟ ما فهمتُ. يصمتُ مرّة أخرى، ثمّ يجيب: زرعتُهما بعد وفاتهما. أصوّر الغافتَين من هاتفي، يقول البرنامج إنَّ في الصورة شجرتَين. يُعلّق بأنّ برنامجي لا يعرفُ أنها أشجار الغاف.

ثمّ يفتحُ راحة كفّي اليمنى، ويضعُ فيها شيئاً وهو يقول: هذي بذور الغاف. أتحسّسها بأصابعي. كرات بيضاوية صغيرة. ممكن نزرعها؟ ننتظر الموسم. متى؟ لمّا يدفأ الجوّ أكثر. نتقرفص. يُمسكُ بيدي. أتحسّسُ رمالاً

رطبة. هذا تراب أحمر في أصيصٍ نضع فيه بذوراً سليمة، ويُفضّل أنْ تكون منقوعةً في الماء، ونسقيها شوية ماء، وبعد أسبوع ستنبت، إن شاء الله. معقولة، الغافتان الكبيرتان من هذي البذور الصغيرة؟ الغافات أشجار قوية، يا بنتي، تطول وتكبر بسرعة، وإلّا ما نبتت في الصحراء.

نقوم. نقتربُ من الغافتَين. نُحيطُ بجذع الشجرة الأولى، ثمّ الثانية. يقول: الفرق بينهما نحو أربع سنين، لكن غافة سعيد كبرت أسرع، وطالت حتّى وصلت إلى غافة أمّه. يمكن لأنه يشتاقُ إليها، أقول. يصمتُ كأنه يفكّر في شيء ما. حفيف ريح تعبثُ بالأغصان، يقطعه هدير محرّك سيّارة تقطع الشارع القريب. أسمعه يقول: تصبرانني على فراقهما. في نبرته حزنٌ يُشبه ظَهراً محدّباً مُثقلاً بالأحمال.

أتذكّر آخرَ مرّة رأيتُ فيه خالي سعيد. كنتُ أذاكر لامتحانات الفصل الثاني في سنتي الدراسية الأولى في الجامعة. دخل غرفتي فملأ المكانَ بصخبِه المعتادِ: تذاكرين؟ ما تشوفني. ضحك وقال: شاطرة مثلي. أضحك، وأتذكّر درجاته المُتدنّية في المدرسة، وأعلّق: لا، مثل هيلين كيلر. مَن هذي هيلين؟ أخبرتُكَ عنها ألف مرّة. مممم، نسيتُ. خالي، صرت وايد تنسى. مشغول هذي الفترة. هيلين كيلر قالت إن المعرفة هي الحبّ، والضوء والرؤية. وضع كفّه على كتفي، وكانت ترتعش. أكملتُ: كانت صمّاء وعمياء، لكنها دخلت الجامعة ودرست وصارت كاتبة، أريد أن أكون مثلها. أكيد تقدرين، قالها قبل أن يستأذن، ليعرّجَ على جَدِّي قبل أن ينام. رافقتُهُ حتّى باب الغرفة. شعرتُ ببرودة ورجفة يدَيه أكثر هذي المرّة. خالي، أنتَ بخير؟ تعبان شوي. صمتَ برهة ثمّ قال: نسيتُ أن أخبركِ. أمسكَ بكفّي اليمنى ومسحَ باطنها بقمّة رأسه. قال: حلقتُ شَعري بالماكينة على رَقْم اثنَين. علَّقتُ: كأنها سجّادة. ضحك، ثمّ قال:

شدّي حيلكِ وذاكري زين. قبل أن يخرجَ وعدني أن نسافر في الصيف. كان مرِحاً وصاخباً مع أنَّ تلك التي يُحبها وأسرَّ لي بنيته الزواج منها قد تزوّجتْ قبل أيّام. عرفتُ بالمصادفة من ابنة خالتها. كانت معي في فصل اللغة الإنجليزية بالجامعة، وصادفَ أن جلسَت قربي. فضولية تسأل عن كلّ شيء وكلّ شخص. عندما عرفتْ اسم عائلة أمّي سألتني عن قرابتي بخالي سعيد. وعندما عرفتْ ثرثرتْ عن علاقته بابنة خالتها التي كانت زميلته في جهة العمل نفسها، وقالت: تركَتْهُ وتزوّجتْ غيره. أكملتْ هامسةً: يقولون أغنى منه، محظوظة! انقبضَ قلبي لمَّا سمعتُ ذلك، كما انقبضَ بعدما أغلق الباب وراءه ذلك اليوم. ما عاد، وما عدتُ إلى الجامعة، وما أصبحتُ مثل هيلين كيلر.

يُعيدني جَدَي إليه: تعالي ندخل. نسير معاً إلى مكتبه. أخبره بأن جَدَّتي مريم اتّصلت تسأل عنّي، وسترورني غداً مع أبي. أنتظرُ ردّه، لكنه لا يُعلّق. أُخمّن أنَّ تلك إشارة مُطمئِنَة. ندخلُ. يُرخي قبضته من يدي. لا أريده أن يصمت. أريده أن يتكلّم .. يثرثر .. أن يقول أيّ شيء. أذكّره: وترك عليّ الشغل في بابكو. يُجلِسني قربه. ثمّ يسعل بمهل كما يفعل عندما يهمُّ بقول شيء مهمّ، ويحكي: تركَ بابكو .. تركَ الآلات وروائح الزيوت .. ورطانة الأجانب .. وطوابير الانتظار .. ومريوله الكاكي المبقّع .. وحذاءه الطويل الثقيل .. وثرثرة ألِن ومزاجه المتقلّب، وبدأ فصلاً جديداً في حياته.

20

الصورة التاسعة

البرنامج: رجال يجلسون تحت نخلة.

سارا إلى شارع التجّار، جنوباً نحو مخازن التمر. وأمام أحد الأبواب الخشبية أخرج حجّي صالح مجموعة مفاتيح جُمعَت في حلقة واحدة، ودون أنْ ينظر اختار أحدها، وفتح القفل. أشعّة شمس الظهيرة أنارت المكان المظلم دفعة واحدة، فشاهد أكياس التمور المكدّسة، وجِرار الدّبس الفخاريّة المصفوفة. تذكَّر في تلك اللحظة العجوز الحدباء العمّة أمّ حسَن، التي كانت تجلس تحت السلّم قرب مخزن الأطعمة في بيت خاله قاسم، لا تفارقها عصاها، وتحذّرهم من سويدا خصف، الكائن الخرافي المخيف الذي يعيش بين أكياس التمور في المخازن. كانت تلك العمّة تعيش في بيت خاله الحاجّ قاسم، ولا أحدَ من الصغار يعرف اسمها، ولا صلة قرابتها بهم، ولا ابنها حسَن. هي أمُّ حسَن فقط، ولا تفارقها عصاها أبداً، يخافونها لأنها تهدّدهم بها، وبصوتها الغليظ الذي لا يناسب هيئتها. تضربهم حين يُشاكسونها أو يقتربون منها. الوحيد الذي ما كان يخاف منها هو عبُّود، وتسلّلَ مراراً إلى المخزن، وملأ قبضته بالتمر ودسَّها في جيبه، وجلسَ قرب حظيرة الأبقار خلف البيت، يلوكها مبتهجاً. لم يعرِفْ أحداً سواه، سارق التمور الذي لا يخاف سويدا خصف ولا العمّة العجوز.

أشار حجّي صالح نحو الأكياس المصنوعة من سعف النخيل:

- عندنا الخصيب .. الخنيزي .. والخلاص .. أرخصها الخصيب، والقَلَّة بثلاث روبيات، وأغلاها الخلاص بعشرة.

صمتَ قليلاً ثمّ أكمل:

- لكنّ التُجّار رفعوا الأسعار هذي الفترة ..

- والعمّ ناصر؟

هزَّ رأسه نافياً:

- بس يمكن يأثّرون عليه.

- مَنْ؟

- أغنياء الحروب.

- أوّل مرّة أسمع عنهم!

لم يُعلّق حجّي صالح الذي ازداد انحناءُ ظهرِه المحدّب وهو يُحصي أكياس التمر، ويطلب من عليّ أن يدوّن الأرقام. كانت أشعّة الشمس تسطع على الورقة التي يحملها، وعلى أنف المسنّ اللحمي الضخم. لمّا أنهيا رنَّ صوت المفاتيح في المكان الهادئ، بالتزامن مع صوت حجّي صالح الأجشّ الذي لا يناسب عمره وحجمه الضئيل: "نرجع إلى الحفيز".

قبل أن ينعطفا يميناً إلى المحلّ، أوقفهما أحدهم. كان ممتلئ الجسم، متورّد الخَدَّين، نظيف الملبس. بعد أن تبادلوا التحايا والسلام، أخذ الرجل حجّي صالح في حديث جانبي. استطاع أن يلتقط منه جملته الأخيرة، إذ علا صوته غاضباً: "أخبر معزّبك أننا زدنا أسعار التمور، هذي تجارة وأكل عيش، وأحسن له أن يفعل مثلنا". أومأ المسنُّ برأسه، ومضى الرَّجل. عندها أشار حجّي صالح ناحية الرجل، وقال لعليّ: "سألتني عن أغنياء الحروب .. هذا واحد منهم".

في الطريق اقترب منهما صبيّ يُمسك بيد طفلةٍ تمشي بمشقّةٍ، كانا حافيَين، تعلو وجهَيهما بُقع لسعات الحَشرات والبثور، ويستر بدنَيهما بقايا أسمال لونها بلون رملٍ باهت يكاد يُشبه لون بشرتَيهما. كانا يهرشان رأسَيهما دون توقّف. أشار الصبي بيده نحو فمه، فأخرج حجّي صالح حبّات تمر من جيبه، ومدَّ كفّه نحوه، فالتقطها في لحظة، أكل منها وأعطى بعضاً منها للطفلة، ثمّ أمسكَ بيدها واختفيا سريعاً في أحد الأزقّة الضيّقة. ظلّ حجّي صالح في مكانه هنيهة يُحوقل ويستغفر، ثمّ أكمل طريقه. شاهد عليّ احْدِيدَابَ ظهره بوضوح، بدا له كأنّ كيسَ تمرٍ لا مرئيٍّ يضغطُ عليه. سمعه يردّد: "حتّى الحرب ما تزيدنا إلّا فقراً وشقاء وتزيدهم غنًى وغروراً .. الله المستعان". وأدركَ عليّ أنّ كلّ جزءٍ من هذا الشيخ في تلك اللحظة كان يتوجّع.

بينما هما يسيران في سوق الطواويش، إذ لفت نظرَه دكّانٌ من الطين والحصى، يطلّ بابه على الجهة الشَّمالية للسوق، فوقه لافتةٌ كُتب عليها: مكتبة التاجر. توقّف عند بابها مشدوهاً. قال حجّي صالح: "هذي مكتبة الحاجّ محمّد التاجر .. تعال ندخلها". ودخلا، فذُهل الشابّ ممّا رآه.

كان اللون البنّي طاغياً على المكان. أمامه طاولة خشبية تناثرت عليها أوراق وكُتُب، يجلسُ خلفها رجل في منتصف العمر منكبّاً على الكتابة، وعن يساره خزانة حديدية، وعلى الجدار أعلاها مسمارٌ كبير، وضع فيه سلكاً من الحديد، شُكَّت به أوراقٌ، لاحظ عليها أرقاماً، لعلّها أرصدة أو فواتير. سلَّما عليه، ثمّ اتّجه نحو الكُتُب المتراصّة بعضها فوق بعض تاركاً الرجلَين يتجاذبان أطراف الحديث. ركع عليّ على الأرض ليتصفّح الكُتُب. رأى مجلّداتٍ لكتاب الأغاني للأصفهاني، وحيّ بن يقظان، ورباعيّات الخيّام، والعقد الفريد، ونهج البلاغة، ومقدّمة ابن خلدون، ورحلة ابن

بطّوطة وغيرها. لا يصدّق أنه رأى بعينَيه أخيراً الكُتُب التي طالما سمع بها، ولمسها بيدَيه. ظلّ يتنقّل بينها، ويتصفّحها بسرعةٍ خائفاً أن يفوته شيء، حتّى ناداه الحجّي.

عندما وصلا المحلّ اتّجها على الفور نحو مكتب العمّ ناصر، حيث نقل إليه الحجّي رسالة التاجر. نقرَ ابن سالم على طاولته الخشبية بيده اليمنى، ولم يقُل شيئاً. تسارعت دقّات قلب عليّ وهو ينتظر ردّة فعله، حتّى خشي أن يصل صوتها إلى الرجلَين أمامه. بعد قليل سأل:

- كم من القلال عندنا؟

أعطاه الحجّي الورقة. أخرج نظّارته، وقرأ ما فيها. أطال القراءة، ثمّ ظلّ يحدّقُ في الورقة صامتاً، كأنه ينظرُ إلى الفراغ وراء الورقة. وَنقلَ بصره إلى الحجّي وسأله عن رأيه، فأجابه:

- ما نرفع الأسعار .. وسيخسرون.

رانَ صمتٌ في المكان، قطعه صوت عليّ الخافت كأنه يردّ على الحجّي:

- سيخسرون مؤقّتاً.

أعاد ناصر بن سالم الورقة على الطاولة، ورمَق عليّ. هزَّ رأسَه، ليشجّعَه على الاسترسال.

- سيشترون منّا بأسعارٍ رخيصة، وسيُعيدون بيعها بعد فترةٍ بأسعارهم.

قاطعه حجّي صالح بحدّة:

- ما نبيعهم.

قال عليّ:

- سوف يشترونها مِن طريق آخرين، ونتورّط.

قاطعه الحجّي:

- والحلّ؟

- نحطُّ شروطنا.

- مثل؟

- نبيع هذي الفترة بالتجزئة ولكلّ شخصٍ كمّية محدّدة .. قَلّة تمر لكلّ عائلة مثلاً .. ونبيع لِمن نثق به مِن أصحاب الدكاكين الصغيرة.

سكت العمّ ناصر قليلاً، ثمّ قال:

- نتأكّد من وصول التمور والموادّ الغذائية لأكبر عددٍ من الناس .. وإذا زدنا الأسعار تكون زيادة مناسبة.

ثمّ خفض صوته كأنه يُحدّث نفسه:

- على الأقلّ هذا ما نقدر عليه .. والحكومة ستتدخَّل إذا الأمر زاد عن حدّه.

ثمّ قام من مكانه، وربَّتَ على كتف عليّ وأكمل:

- نتوكّل على الله.

في نهاية ذلك اليوم، كان عليّ يحمل سِراجاً وهو ينتظر حجّي صالح ليُقفل باب الدكّان، ويعيد حلقة المفاتيح في جيب ثوبه. قال المسنّ بصوتٍ خافت:

- أحسنتَ اليوم، يا ولدي.

- أظنّه طيّب.

- بس خفت من تأثير التجّار عليه.

- تعرفه من زمان؟

- من يوم كان في عُمر أصغر أحفادي.

ثمّ ابتسم ابتسامة عريضة أبرزت أسنانه القليلة المتبقّية في فمه. كان الطريق مظلماً، منذُ أن قرّرت السلطات أن تُطفَأ الأنوار ليلاً بعد الغارة الإيطالية لا تنيره سوى إضاءة السِّراج بيد عليّ، وكان هادئاً إلّا من حديث حجّي صالح عن أوّل مرّة تعرَّف فيها إلى عائلة الوجيه سالم المحرّقي قبل سنوات طويلة.

كان يجلسُ قرب مرسى العَبرات ينتظر وصول خالته وأبنائها من المنامة على متن أحد القوارب الشراعية، ويراقب تلاعب نور الشمس بسطح الماء وقت الضحى، عندما تنبّه إلى ظلّ يتحرّك في المياه، ظنّه في البدء سمكة كبيرة، ولكنْ، عندما سطع النور قرب الشيء تنبّه إلى أنه طفل، ودون أدنى تفكير قفز وانتشل الجسم الصغير. كان صبياً جميلاً يبلغ من العمر عامَين أو ثلاثة. تجمّع حوله خلقٌ كُثر ليعرفوا ما حلَّ بالغريق. سعل الصغير بين ذراعَيه وشهق، إلى أنِ استعاد شيئاً فشيئاً لونَه ونفَسه. اكتشفَ لاحقاً أنه ابن تاجر اللؤلؤ الشهير سالم المحرّقي، وقد أفلت يد والده ولحقَ بأحد نوارس البحر. كافأه الأب بمبلغ مجزٍ، وعرض عليه أن يعمل عنده. قال: "وارتحت من رحلات الغوص المتعبة وديوني للنوخذة، وما فارقته".

أخبره بأن ناصراً كان ولداً شقياً مدلّلاً، من آخر زوجات أبيه، وحيد أمّه،

يعيش مع إخوة غير أشقّاء، وزوجات أبيه في بيتٍ كبيرٍ يضمّهم جميعهم. عمل مع الطوّاش، وعلَّمه، وزوَّجه، وائتمنه على بيته وحلاله، وبعد وفاته بقي مع ابنه الأصغر، وانتقل معه إلى المنامة. ظلّ يحكي ويحكي حتّى وصلا إلى حيّ الفاضل، ودخل كلّ منهما مسكنه.

في غرفتِه الملحقة ببيت حجّي صالح بمدخلٍ منفصلٍ، التي استأجرها منه، استعاد تفاصيل يومه، ومرَّت أمامه كصُور: الصَّبيّ الجائع يلتهم حبّات التمر، والتَّاجر الجشع يطالب برفع الأسعار، والعمّ ناصر سارحاً ينقر الطاولة، والحجّي يتسامرُ معه في الطريق.

بعد قليل سمع دقّات على الباب، أعقبها صوت أنثوي: "يمَّه تسلّم عليك، وتقول لك بالعافية". أسرع نحو الباب، ولمّا فتحه رأى صحناً به خبز تنّور مع مرقة عدس أمامه على الأرض. رفع رأسه، وشاهد ظلّها من ضوء السِّراج الذي تحمله، تدخل بيت الحجّي قبل أن تنظر نحوه، تبتسم ثمّ تختفي. شكرها بصوتٍ حرصَ أن يصلها. وأكل الطبقَ بشهية وسعادة.

منذُ أن وطأت قدماه هذه الجُزر الصغيرة وهي تُدهشه، تلك الدهشة التي تغذّي فضوله وتُنسيه همومه.

21
بداخلي شجرة

أصوِّر بذور الغاف، أنشرها في حسابي على منصّة إنستغرام. أكتبُ تحتها: لعلّها أشجارٌ. يُعلِّق سيف على المنشور: ومتى ستحيا؟ أردّ عليه: في الوقت المناسب. يكتبُ أحدهم مقولةً نسبها إلى شمس التبريزي: كيف يمكن للبذرة أنْ تصدّق أنَّ هناك شجرة ضخمة مخبّأة داخلها؟ أختار زرّ الإعجاب مكان تعليقه. أضعُ البذور بحرصٍ في ورقة محارم، وأعيدها في درج الطاولة الجانبية قرب سريري. لا يمكنني التخلّص منها أو رميها، وهي التي يمكنها أن تتحوّل إلى كائنات حيّة، وتكبر، وتتنفّس، وحتماً تشعر. إنها هنا بقربي في أمان.

تدقُّ إيفلين باب الغرفة، وتصرخُ من وراء الباب: والدكِ وماما مريم هنا. أخرجُ على الفور. أسمعُ أمّي تتذمّر وتسأل إيفلين: وهذي العجوز مَنْ أدخلها البيت؟ مَنْ سمح لكِ بذلك؟ بابا سالم، تجيبها خائفة. تُكمل أمّي استجوابها وزعيقها. أتركهما وأتّجه إلى مجلس الضيوف.

يصلني صوتها مِن وراء الباب، على الأرجح تُكلّم أبي: هذا خالك وسارة بِنتك، والظّفر ما يطلع من اللحم. أظلُّ في مكاني لفترةٍ، أنتظرها لتكمل جملتها أو يردّ عليها، لكنهما يبقيان صامتَين، على الأرجح تنبّها لوجود أحدٍ ما. أفتحُ الباب. أتّجه نحوهما ببطء. أقتربُ من دهن العود. أُقبّل رأسه. أمسكَ بذراعي قبل أن أتّجه نحو جَدَّتي. نورة، إنتِ بخير؟ الحمد لله أحسن. تعانقني. الحمد لله على سلامتكِ. الله يسلّمكِ يدّوه. نحيلة

يابسة، العصقولة كما كانت تُطلق عليها يدّوه نورة، رغم العيال العشرة الذين أنجبتهم، لا تُشبه في ذلك جَدَّتي نورة، مع أنها أنجبت اثنَين فقط.

لم تتقبّلها جَدَّتي نورة، ربمّا لأنّ الأخرى كما تقول كانت تعيّرها منذ زواجها من أخيها بأنها تكبرُه، وتتندّرُ عليها في المجالس وتردّد بسخريةٍ حكاية حلوى الخبيصة. كلّما حذّرتني منها، رددتُ عليها بأنها تعاملني معاملة جيّدة ولم أرَ منها سوءاً، فتلكزني أعلى ذراعي وتقول غاضبة: ما عليكِ من كلامها المعسول قدّام الناس، القطو العود ما يتربّى. أضحكُ وأتخيّلُ جَدَّتي قطّة كبيرة تموء، مع أنّ الوصف لا يناسبها أبداً. مرَّت الأعوام وتزوّجت إحدى عمّاتي رجلاً يصغرها بسنواتٍ كثيرة. يوم العرس ردّدت جَدَّتي نورة أمام الجميع وبصوتها العالي ذي البحّة المميّزة: العيب بلاء ومَن عاب ابتلي، وصوَّبت نظراتها ناحية أخت زوجها. أخبرتني بذلك جَدَّتي نورة وهي تضحك بحبور وانتصار، وأنا أمرّغ قدمَيّ في رمال البحر الخشنة، وأتخيّلُ موقف جَدَّتي الأخرى أمام النسوة. مع ذلك كلّه بكتها جَدَّتي مريم يوم وفاتها، سمعتُها بنفسي، وهي التي جرَّبت الفَقْد في عمرٍ مبكّر. فَقَدَتْ جَدَّتي مريم أحد أبنائها صغيراً، وترَّملت في شبابها وهي لم تتجاوز الأربعين. ظلّت بحاجةٍ إلى جَدِّي، أخيها الوحيد، حتّى كبر أبناؤها. هكذا تُفسّر جَدَّتي نورة طيبتها معي، وتُردد: تُفكّر في مصلحتها. لم أفهم علاقة المرأتَين الملتبسة أبداً.

تُجلسني قربها. تسألني عن جَدِّي، أخيها الوحيد. أخبرها بأنه في مكتبه. يسألني أبي أسئلته الاعتيادية، وتخرجُ إجاباتي كلّها متشابهة، بنبرةٍ واحدة لا يمكنني تغييرها، كطالبةٍ أمام معلّمتها. بعد قليل تطلبُ منّي أن أرافقها إلى مكتب جَدِّي. أرغبُ بشدّة أن تتصالح معه، وفي الوقت نفسه أجدني خائفة من ردّة فعله عندما يراها. لا يُمكنني إخبارها بأنّ الوقتَ

غيرُ مناسبٍ، أو إيجاد طريقةٍ تثنيها عن ذلك. أتعجّبُ كيف أمكنهما أن يستمرّا في الخصام تلك السنين كلّها، ثمّ أقارنها بعلاقتي مع أمّي. لستُ على خصام معها، ولستُ على وفاقٍ أيضاً، قريبة منها وبعيدة، نعيشُ في بيتٍ واحد، وتفصلنا جدران لا مرئية سميكة. أحاول أن أتذكّر منذ متى أصبحت علاقتنا هكذا، وللغرابة لا يمكنني أن أتذكّرها بغير تلك الصورة، ولا تخيّلها بصورةٍ أخرى. تُمسكُ بيدي: تعالي. أقوم متثاقلة. قبل أن نتحرّك أسمعُ صوت سعاله. يقتربُ منّا. رائحة دخان سجائره قوية طازجة. سالم، تُناديه. تتداخل أصواتهما، هي بصوتها العالي، وهو بصوته الهادئ. يتهدجُ صوتاهما. يفضفضان. تختلط كلماتهما. لا يمكنني أن ألتقطَ منها جملة واضحة.

أنسحبُ من المكان. يُناديني أبي. أعِده كاذبة بأنني سأعود. لا رغبة لي في البقاء. تسألني إيفلين: ماذا حدث؟ تصالحا. أمّكِ ما زالت غاضبة، لأن أباكِ وأمّه هنا. تجاهليها وستنسى.

أرسلُ لسيف: أخيراً تصالحا. وأرمي الهاتف على السرير. أفتح حاسوبي المحمول. صوت أزيز الجهاز الخافت الرتيب يدفعني إلى الكتابة. أصابعي تتحرّك على لوحة المفاتيح. أسمعُ الكلمات التي أكتُبها. أبتهج. أُحرّر جزءاً من تلك الشجرة المخبّأة داخلي. إنها تكبر. أُنجز ثلاثة آلاف وثمان مئةٍ وثلاثة وعشرين كلمة، ذلك المساء، من يوم سبتٍ، من منتصف شهر فبراير عام 2020. لا أعرف لماذا أكتبُ هذه التفاصيل، أَلِأَنَّهُ اليومُ الذي صالحَ فيه جَدِّي جَدَّتي؟ أم لأنيّ رجعتُ فيه للكتابة بغزارةٍ بعد انقطاع؟ ولكن السؤال الذي يحيّرني ولا أعرفُ إجابته: لماذا أكتبُ؟ ولِمَنْ؟

22

الصورة العاشرة

البرنامج: على الأرجح شخص يحمل كتاباً.

ارتبطَت معرفتُه بمولدِ أختٍ له في ليلةٍ باردةٍ من ليالي شتاء المنامة، عام ألف وثلاث مئة وتسعة وخمسين للهجرة. كان يوم أربعاء، بعد العيد الكبير بخمسة عشر يوماً، عندما فرضت الحكومة على سكّان جُزر البحرَين حظر تجوّل بعد تمام الساعة الثامنة مساءً بالتوقيت الإفرنجي. يومها التقى أخيراً بمطر في أحد مقاهي الفُرضة على شارع الحكومة، إذ رجع من دبي بعد العيد. سأله عليّ:

- كيف الأوضاع في دبي؟

- ما تسرّ ..

- بعدك في بابكو؟

- ما حصّلت شغل غيره وأبويه صيده من السمك ما يسدّ.

- يقولون يمكن يطلع عندنا نفط.

- صدق؟

- بس الحرب أخّرت التنقيب.

- تعرف حمد ولد أخو عزيز سيساعدهم اليوم في التعداد.

- حمد الصغير ما غيره؟

- اختاروه في المدرسة، لأنه سريعٌ في الحساب .. وسمعتُ أن الإنجليز سيأخذون الشباب للحرب.

- ما أظنّ. هذي حربهم، وما لنا دخل فيها.

- هم خايفين وبعد غارة الطليان رجّعوا عوائلهم لبلادهم. نسيت أسألك هل أنت مرتاح في شغلك مع معزّبك؟

- إيه .. وما رفع الأسعار مثل غيره.

- الأسعار صارت نار.

- وصل سعر قَلّة الخلاص عشرين روبية.

يصمتان وهما يتأمّلان البحر أمامهما، ويصلهما صوت ضاحي بن وليد من داخل المقهى. سأل مطر:

- عليّ .. أمّك تنشدُ عنك.

- أنا مقصّر .. أدري.

- ما ولهتَ عليها وعلى دبي؟

هو نفسُه لم يفهم عجزه عن زيارة دبي، يرغب بشدّةٍ في رؤية أمّه، وفي الوقت نفسه هنالك شيء يثنيه عن ذلك. لم يعرف كيف يُفسّر الأمر لرفيقه، لذا اكتفى بالصمت، ومراقبة المارّة أمامهما على الطريق الوحيد المرصوف بالإسفلت في المنامة.

- أوه، نسيت .. لحظة.

أخرج مطر من جيبه ظرفاً:

- خَطٌّ منها.

أشرق وجه الشابّ. التقط رسالة أمّه، ودسَّها سريعاً في جيبه. عند الأصيل افترق الصديقان، مطر إلى المحرّق ليقضي ليلته عند عمّته قبل أن يذهب إلى عَوالي، وهو إلى مسكنه. في طريقه اشترى أرغفةَ خبز تنّور ساخنةً حمَلها معه إلى بيت الحجّي. طرق بابهم ففتحت فطُّوم الباب، اليتيمة التي ربَّاها الحجّي منذ أن كانت صغيرة كما أخبروه، لمّا سأل عنها التقت عيناه بعينَيها اللتَين لم يرَ مثيلاً لهما في اتّساعهما، ثمّ أعطاها الأرغفة دون أن تصدُر عنه أيّ كلمة. ودَّعته بابتسامةٍ خاطفةٍ قبل أن تختفي.

في الثامنة مساءً بدت مُدُن وقُرى البحرَين مهجورةً إلّا من نفرٍ حاملين سُرجاً بأيدٍ، وسجلّات إحصاء النفوس والاستمارات بأيديهم الأخرى، يمرّون على البيوت بيتاً بيتاً. في تلك الأثناء كان عليّ في غرفته، مستلقياً على فراشه، تحت ضوء سِراجٍ يترنّح، وحفيف ريح يتسرب من النافذة، وقرأ الرسالة.

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى جناب الأكرم ابني عليّ بن عبد الرحمن

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. على الدوام دمتم في كمال الصحّة والعافية، أدام الله علينا وعليكم نعمة الإسلام، وبعد.

تعرف بأني تزوّجتُ وحاولتُ أنْ يصلك خبر زواجي، ولكنَّ خبرَ ولادتي أردتُ أنْ تعرفه منّي. رزقني الله ليلة عيد الفطر،

مولودةً بصحّة جيّدة ولله الحمد، أسميتُها فاطمة باسم جَدَّتكَ رحمها الله، ليعوّضكَ الله رحيل أخيكَ عبد الله رحمه الله. ورزق الله ابن خالكَ بولدٍ أسماه قاسماً على اسم جَدِّه. مشتاقة لكَ، وتمنّيتُ أن تكون معنا. متى سترجع إلى دبي؟

الحالة عندنا مستورة والحمد لله، ولكنْ، ليست سهلة. كيف الأحوال عندكم؟ متى تترك الشغل عند الإنجليز وترجع؟ أدعو الله في هذه الجمعة المباركة أن تزول الغُمّة عن بلاد المسلمين وتتوقّف الحرب الكبيرة التي لا نعرف لها سبباً ولا غايةً، وأن يوفِّقكَ الله تعالى ويهديكَ إلى ما هو خير لكَ، وأن يديم عليكَ الصحّة والعافية، ويرشدكَ إلى الطريق القويم، وترجع إلى بلادِكَ بأسرع وقت.

أبلغكَ سلامي وسلام خالكَ وخالتكَ، وراشد ولد جارنا كاتب هذه الرسالة يبلغكَ سلامه، وهو رافق أمّه التي جاءت من دبي إلى عجمان لتزورَني بمناسبة ولادتي، ويُبشّركَ بأنه في الصفّ الأخير بمدرسة الأحمديّة. وفّقه الله في علمه وعمله. أطلب منكَ أن تُرسل الخطوط في المستقبل على عنوان زوجي في عجمان. سلِّم على الجميع في المنامة.

والدتكَ مريم يوسف

حُرّر في عجمان الجمعة 7 ذي القعدة عام 1359هـ

لا يعرف ما الشعور الذي انتابه تلك اللحظة .. مباغتٌ، غريب، غامض، عندما اكتشفَ صِلَةً أو قرابةً جديدةً لم يتوقّعها، أنْ يخبركَ أحدهم دون

مقدّمات بأنكَ صرت أخاً لأحد وُجد في هذا العالم. لماذا لم يتوقّع؟ لم تكن أمّه كبيرة على الإنجاب، ولكنه بكلّ بساطة لم يتصوّرها أمّاً لسواهما هو وعبُّود، وذلك الغريب الذي يمقته حتّى قبل أن يراه صار فجأةً والدَ أخته. علاقةٌ لا يمكنه نكرانها. لا يُمكنه استيعاب ذلك دفعةً واحدة.

قاوم أفكاره، وحاولَ أن يكون طبيعيّاً. أشاح بوجهه عن الرسالة، وتعلَّق نظره بالصور المعلّقة أمامه على حبلٍ في غرفته، تُنيرها إضاءة السِّراج. خطر له: ماذا لو أنّ لديه صورة أخته؟ تخيّل شكلها، هل تُشبهه؟ تُشبه أمّه أو زوجها؟ فكَّر بأنّ الصور تحتفظ لنا باللحظة، وبالوجوه، وبالملامح. لا يُمكننا دوماً الرّهان على الذاكرة، إنها هشَّة، سريعة الهرم، وتعطب مع الزمن والسَّقم. التقطَ صوراً لمطر، وأحفاد حجّي صالح الكثيرين، والبحر الكبير، ورفاقه في المقاهي، والمراكب والسفن الشراعية، ومنارة الفاضل، ومكتبة التاجر، وشارع الحكومة، وعزيز يُدَوْزِنُ أوتار عوده، ومطر بملابس العمل الكاكيّة وغُتْرَته على كتفه. لم يتوقّف عن استخدام الكاميرا، على الرغم من صعوبة الحصول على أحماض التظهير وأوراق الصور، وغلاء كلّ شيء غلاءً جنونياً.

وعندما أصدرت الحكومة قراراً يُلزم عمَّال الغوص جميعهم الذين يدخلون البحرَين بلصق صُورهم الفوتوغرافية على تأشيرات دخولهم، صار ينتظرُهم عند مبنَى الجوازات أو مواقع تجمّعاتهم قرب الفُرضة، فيجلس على قطعة خشب من مخلّفات إحدى السّفن، ومعه كاميرته. يطلب منه بعض العابرين أنْ يصوّرهم؛ ليرسلوا صورهم إلى أمّهاتهم وأقربائهم. يفعل ذلك بطيب خاطر؛ لأنه يعرف بأنه سيُفرِح أحدَهم. يُفكّر كثيراً في مغزى أنْ يصوَّر أحدٌ ما، وفي لحظةٍ ما، دون غيرها. لماذا تلك اللحظة؟ وذلك الشخص؟

عندما يصوِّر، كان يتّخذ مكاناً حيث تسطع أشعّة الشمس على وجوه مَنْ يصوِّرهم، يدردشُ معهم سريعاً وهو يُغيّر مِن وقفتهم وزاوية التصوير حسب غرضهم من الصورة. إذا كانت الصورة للأمّ يحرص على اختيار زاويةٍ تُظهر صاحبَها أسمن وبصحّةٍ جيّدةٍ، وإن كانت للزوجة يختار زاويةً يبدو فيها أوسمَ. في المساء يحوّل مخدعه الصغير إلى غرفةٍ مظلمةٍ، ويغمس الأفلام في الأحماض كما علّمه جوزيف، وفي اليوم التالي يأخذ الفيلم المعالَج إلى محلّ التصوير، ليطبع الصور. يتفحّص صورهم المعلّقة بالمقلوب على الحبل. يتذكّرهم: هذا جاسم من الكويت، وذاك عبيد من رأس الخيمة، وهذان الأخوان حسَن وحسين من الأحساء، وهذه صورةُ خميس القادم من الخُبر مع عياله، وفي هذه الصورة يظهر عبد الرزاق المغادر إلى أحد البنادر القريبة، وتلك الصورة يضحكُ فيها الهندي المعمّم الذي يعمل في بابكو ولا يذكر اسمه، وهنا إسماعيل الذي يعمل عتّالاً في الفُرضة، وغيرهم.

من حُسن الحظّ أنّ أجهزةَ التصوير في تلك الفترة لم تكن بجودة أجهزة اليوم، فلا تُظهِر شقاءَ الزمن على وجوههم. جميعهم مبتسمون، ووجوههم صافية لا تشوبها شائبة، فالأبيض لا يترك مجالاً لظهور الخطوط والحفر والندوب التي خلّفتها الأمراض والحوادث والزمن، أمّا الأسود، فيضفي إلى نظراتهم عُمقاً، ونورُ الشمسِ يزيد صوَرهم بهاءً.

كتب لأمّه:

بسم الله الرحمن الرحيم

من المنامة إلى دبي 25 ذو الحجّة سنة 1359هـ

إلى حضرة والدتي الغالية، حفظكِ الله ورعاكِ،

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فإن سألتُم عنّا، فنحنُ ولله الحمد بخيرٍ وعافيةٍ ولا نسأل إلّا عن صحّة حالكم وسعادتكم.

الحمد لله على سلامتكِ وسلامة المولودة، جعلها الله من الذرّية الصالحة. طلبت منّا الحكومة اليوم أن نبقى في بيوتنا لإحصاء نفوس سكّان البحرَين، وأنا الآن في غرفتي أنتظرهم. أبشّركِ بأنني طلعت من بابكو مثل ما كنتِ تريدين وأشتغل مع التاجر الوجيه ناصر بن سالم، وأنا مبسوط بالشغل معاه وأحوالي زينة والحمد لله، وكلّ يومٍ أتعلّم أشياء جديدة، ومواظب على الصلاة والدعاء والقراءة.

مشتاق لكم وسأزوركم عندما تسمح الظروف ويوافق السيّد الكريم على سفري. سلامي وأشواقي لكم، ولعائلة خالي وخالتي، ولراشد، وفّقه الله في دراسته.

ابنكِ البارّ

عليّ بن عبد الرحمن

ثمّ التقطَ صورةً من الصور المتناثرة على طاولة التحميض. كتبَ خلفها: عليّ بن عبد الرحمن، أُخذت الصورة في تاريخ 14 ذي الحجّة 1359، في المنامة. التقط تلك الصورة بعد عودته من مكتبة التاجر قبل أيّام، وقد صارت ملاذه في أوقات فراغه. كان يتردّد إليها عندما تسنح له الفرصة، يقرأ كُتُب الأدب العربي، ويحفظ الأشعار والقصائد، ويختلس الاستماع إلى المثقّفين والشعراء. اشترى ذلك اليوم كتاباً لأوّل مرّة في حياته، ديوان

المتنبّي، ومن فرط فرحه جعل الحجّي يصوّره وهو يحمله. وضع الصورة داخل ظرفٍ، ومعها رسالته المطوية لأمّه.

بعد أيّام عرفَ من العمّ ناصر أنَّ عدد الأنفُسِ في جُزر البحرَين نحو 90 ألف شخص، معظمهم من البحرينيّين، ولكنه يجزم بأنّ الأرقام غير دقيقة؛ لأنه سمع أن البعض أخفوا عددَ أبنائِهم الذكور القادرين على حمل السلاح خوفاً من إلحاقهم بالجيش البريطاني للمشاركة في الحرب، وبعضهم خبّؤوا أولادهم المصابين بالجُدَرِيّ خوفاً من نقلهم إلى المحجر. عرفوا لاحقاً السبب الحقيقي وراء التعداد.

كان العالم منشطراً، يتقاتل على الجهة الأخرى، لتمتدّ آثار الحرب على هذه المنطقة البعيدة، حيثُ بدأت سنوات عجاف، أُطلق عليها سنوات البطاقة، تُوزّع فيها الأغذية تبعاً لعدد الأنفس في كلّ بيت. اعتاد عليّ مرافقة الحجّي نهاية كلّ شهر إلى إدارة التموين في مبنى البلدية؛ لتسلّم حصصهم التموينية من الأرز والسكّر والطحين والقمح والشعير، بأثمانٍ مناسبة؛ للحدّ -:ما أمكن - من جوع الفقراء وطمع الأثرياء.

23

الصورة الحادية عشرة

البرنامج: على الأرجح مبنى له نوافذ.

كان يقفُ عند بيت ناصر بن سالم، ذي الجدران العالية، أمام الباب الخشبيّ المحفور بزخارف هندسية فريدةٍ. نفَصَ ثوبَه، وتأكّد من حُسن هندامه ونظافة نعلَيه، وبحركة سريعة أعاد وضع الطرف الأيمن لغُتْرَته على يساره، وطرفه الأيسر على يمينه، على طريقة أهل البحرَين أو كما يسمّونها في البحرَين: جرينبه. تأكّد من أوراقه، ثمّ وضعها تحت إبطه الأيمن، وطرق الباب بالمدقّ النحاسي.

سمع صوتاً من داخل البيت، على الأرجح صوت امرأة، لكنه لم يتبيّن ما قالته. بعد فترةٍ من الانتظار فتحت سيّدة باب الفرخة الصغير ذا الارتفاع المنخفض والملحق بمصراع الباب الأيمن. كانت تغطّي نصف وجهها الأيمن، بغطاء رأسها الأبيض. "أنا عليّ من الحفيز". قالها سريعاً ومرتبكاً. اختفت السيّدة دون أن تردّ عليه بكلمةٍ واحدة، وبعد قليل عادت وأدخلَته. سار وراءها. كانت سمراء البشرة، وفارعة القوام بجذعٍ سفلي عريض، حتّى إنها كانت تقاربه طولاً. تجاوزا الدهليز، والمجلس عن يمينه، إلى الحَوش. ثمّ أشارت إلى كرسيٍّ خشبيٍّ طويل يسع ثلاثة أو أربعة أشخاص جهة اليمين، فُرِشت عليه مطارح ومساند قماشها أبيض مطرّز بورود ملوّنة بالأحمر والأزرق والأخضر، في ليوانٍ مسقّف بخشب الجندل، ذي أعمدة دائرية وأقواس هندسية ومطلٍّ على الحَوش، ودون أن تنطق فَهِم أنّ عليه أن يجلس هنا وينتظر.

اختفت المرأة فاستعاد هدوءه قليلاً، وأعاد مرّة أخرى طيّ غُتْرَته. أمامه أشجارٍ كثيفةٍ، وفي أقصى اليسار بئر ماء، وليس بعيداً عنه رأى سلّماً يؤدّي إلى ليوانٍ أمام غرف الطابق الأعلى، ويُطلّ على الحَوش بحاجزٍ خشبيٍّ مخرّمٍ بأشكالٍ هندسية.

أمامه شجرة بَمْبر وارفة لها أفرع متدلّية، وعن يمينها في زاوية الحَوش نخلتان طويلتان متعانقتان، وأمام الدهليز مشموم وريحان ورازجي وياسمين. كانت ريحٌ هادئة باردة تعبثُ بأوراق الأشجار، وأضواءٌ نحيلةٌ تتسلّل وتتراقص على الأرض، وأصوات طيور ودواجن تأتيه من إحدى زاويا البيت الخلفية، وهو يرتشفُ شاياً شديد الحلاوة، قدّمته له تلك المرأة.

كان غارقاً في ذلك كلّه عندما أقبلت من جهة السلّم نحوه، وصاحت: "حجّي صالح .. حجّي صالح". التفتَ حوله بارتباك، ما كان غيره في المكان. أعاد استكانة الشاي إلى مسند الكرسي الخشبي، وقام. اقتربت أكثر، ثمّ توقّفت فجأة. كانت تقفُ أمامه تماماً، خلفها شجرة البَمْبر تعبثُ الريح بأوراقها، وبغرتها الظّاهرة من البُخْنق. قالت: "أوه حسبتُك الحجّي". تسمّر في مكانه، ثمّ تمتم: "لا، أنا عليّ من الحفيز". ثمّ تنبّه على أنه كان يُحدّق بها، فغضَّ بصره. دقَّ قلبه بشدّة، كعصفورٍ وُضع للتوّ في قفصٍ ويحاول الهرب. سألت: "الحجّي بخير"؟ رفع رأسه قليلاً، وأجابها: "إيه .. بس مشغول مع جماعة من التجّار". لا يعرفُ كم ظلّ مطرقاً رأسه يحدّقُ نحو الأرض، ويتأمّل أوراق شجرٍ تزحفُ قرب قدمَيه، وظلالاً تتأرجح على أرضية الليوان المبلّطة بالحصى والمرتفعة بدرجةٍ عن أرضية الحَوش. عندما رفع رأسه تلاشى كلّ شيء، كأنّ أحدهم مسحَ كلّ ما أمامه، لا أشجار ولا رياح ولا أزهار ولا ظلال ولا ضوء. ظلّ هكذا حتّى سمعَ اسمه، فأدار رأسه ناحية الصوت.

كان حاسراً، يلبس ثوباً صوفيّاً ترابيّ اللون. رأى لأوّل مرّة انحسار مقدّمة شَعر رأسه، وبياض فودَيه. بدا له في ذلك اليوم أطول وأنحف وأكبر سنّاً. سلَّم عليه وقبَّل جبينه، ثمّ أخبره عن سبب قدومه عوضاً عن الحجّي لإنهاء بعض أوراق العمل. أجلسَه ابن سالم قربه على الكرسي، ثمّ أشار نحو استكانة الشاي قائلاً: "اشرب الشاي، يا وليدي .. سيبرد". كان الشاي بارداً بالفعل، ولكنه ارتشفه مرتبكاً. ولمّا أكمل ما جاء من أجله حمل دفتره وأوراقه وهمَّ بالمغادرة، إلّا أن صاحب البيت قبضَ على ذراعَيه، وطلب منه البقاء، ثمّ بدأ الحديث.

كان ناصر بن سالم يرتشفُ الشاي بصوتٍ مسموع، ويحكي بين رشفة وأخرى. حدَّثه عن الحرب، وعن هتلر وستالين ودول المحور، وعن يونس بحري وقدرته على اللعب بعواطف العرب بخطاباته الحماسية، والغارة الإيطالية على البحرَين، والإنجليز والهدف الحقيقي من وجودهم في البحرَين والمنطقة، وأزمة الغذاء والفقر، ومنها انتقل إلى مكتبة الإرسالية ومكتبة التاجر والنادي الأدبي بالمحرّق، وزيارة أحمد شوقي البحرَين، وأمين الريحاني، وعن مجلس الشيخ إبراهيم بن محمّد آل خليفة، وعن تعليم الفتيات. كانت لديه قدرةٌ عجيبةٌ على القفز من موضوعٍ إلى آخرَ بسلاسةٍ، دون أن يشعر المتلقّي. في أثناء الحديث أحسَّ لوهلةٍ أنَّه يُذكّره بوالده. لم يكن يُشبهه في شيء، سوى في طريقة حديثه. شيءٌ منه كان يتسرّب إليه إذا انتقل من موضوع إلى آخرَ. عاودته الذكرى صبياً يقضي أوقاته مع أبيه وهو يعلّمه السباحة. كان يثرثر معه، ويحكي له قصصاً عن أيّ شيء يخطر له؛ ليُبعِد عنه الخوف من البحر الهائل حوله. تأخذه حكاياته إلى قصّة السلطان الذي غضب من ابنته الصغرى؛ لأنها تحبّه كما تحبّ الملح، يربطها مع قصّة جَدَّته التي أضافت بالخطأ الملحَ إلى الحلوى في إحدى المرّات وهو صغير، ولم يتجرّأ أن يُخبرها أنّ الحلوى مالحة ومذاقها غريب، واضطرّ

إلى أكلها كيلا تغضب، لينتقل بعدها إلى بودرياه(*) وخوف البحَّارة منه، ويُلحقها بقصّة صديقه البحَّار الذي صادفَ هذا الكائن المخيف في إحدى رحلاته واستطاع أن يهرب منه، ويختمها بقصّة سندباد الذي يجوب البِحار ببساطِه السحري العجيب، ثمّ يشرح له طريقة حياكة السجّاد، ونقوشها وألوانها. كان ينغمس في تلك القصص حتّى ينسى نفسه، ويكتشف أنه ابتعد عن أبيه، فيحرّك ذراعَيه بأقوى ما يستطيع ويسبح نحوه، حتّى تعلَّم السباحة دون أن يشعر.

أدخله الرجل إلى مجلسه الخاصّ خلفهما مباشرةً. كانت غرفة واسعة بُسِطت بسجّادٍ فارسي بلون دم الغزال وعليه نقوش ملوّنة، ولها نافذة مطلّة على الحَوش. ثمّ أشار إلى كُتُبه المصفوفة فوق أرففٍ خشبيّةٍ، خلف طاولة خشبية عليها مذياع وفونوغراف، قائلاً: "ما عدتُ أقرأ مثلما كنتُ في شبابي، ما أشوف الخطّ زين، وصرتُ أسمع الراديو". ثمّ أكمل: "وأحياناً تقرأ لي بنتي بعض الكُتُب". ازدادت سرعة دقّات قلب الشابّ، ثمّ تجرّأ وقال: "وأنا أقدر أن أقرأ لكَ". التقطَ العمّ ناصر أحد الكُتُب من مكتبته، وكان ديواناً للمتنبّي. أعطاه للشابّ، وقال: "اشتقتُ إلى قصائده".

تصفحَ عليّ المجلّد ذا الغلاف الأحمر، ثمّ قرأ بصوتٍ رخيم ونطقٍ سليم، قصائد المتنبّي، على الكرسي في ليوان البيت، حتّى اقتربت الشمس من المغيب. عندها طلب منه ابن سالم أن يتوقّف: "نكمل بعدين، يا وليدي". ثمّ نظر نحو السماء، قائلاً: "قرَّب موعد الصلاة".

مساء ذلك اليوم، سأل حجّي صالح عنها. "اسمها سارة، ما عنده غيرها". أجابه. سأله: "وعرفت أنها تقرأ وتروح المدرسة"؟ "إيه .. أمّها كانت مصرّة على تعليمها". لم يكتفِ بالإجابة المقتضبة، أراد أن يحثّه على

---

*) كائن خرافي من الحكايات الشعبية.

الاسترسال، فسأله عن أمّها وأخوالها. أغمض عينَيه، كأنه يحاول استرجاع الزمن: "مرّ بفترة صعبة بعد وفاة زوجته الأولى وعياله .. نصحوه أن يزور بيت الله .. سافر وبقي لموسم الحجّ، وبعدها أكمل رحلته إلى الشَّمال مع حجّاج من الشَّام .. انقطعت أخباره، وبعد سنة رجع معها .. كانت غريبة من دِيرة بعيدة". سكت هُنيهةً، ثمّ تنهَّد وقال: "ماتت قبل سنتَين". أراده أن يُكمل، لكن الحجّي توقّفَ وغيَّر الموضوع.

بعد يومَين كان يسير في سكّةٍ يسار بيت ابن سالم، وقبل أن ينعطف يميناً نحو الجهة الرئيسة للبيت استوقفتهُ عبارة مكتوبة على الجدار بخطٍّ صغير. اقتربَ وتمعّن في الحروف: "أشكو النوى ولهُمْ من عَبرتي عجبٌ، كذاكَ كنتُ وما أشكو سوى الكللِ .. وما صبابةُ مشتاقٍ على أملِ، من اللقاء كمشتاقٍ بلا أمل". ازدردَ ريقه. هل يُعقل أن ما فكَّر فيه تلك اللحظة صحيح؟ التفتَ حوله، وبعد أن تأكّد من خلوّ المكان وقت القيلولة، التقط فحماً مدبّباً مُلقًى أسفل الجِدار، وكتب كذلك بيت شِعرٍ للمتنبّي: "لعينَيكِ ما يَلقَى الفُؤادُ وما لَقِي، وللحُبِّ ما لم يَبقَ منِّي وما بقِي .. وما كُنتُ ممّنْ يَدخُلُ العِشْقُ قلبَهُ، ولكنَّ مَنْ يُبصِرْ جُفُونَكِ يَعشَقِ".

وابتعدَ سريعاً عن المكان. صباح اليوم التالي وقبل أن يذهبَ إلى المحلّ مرَّ على الجدار مرّة أخرى، لكنه لم يجد أيّ تغيير، فأدركَ بأنّ خياله بالغ كثيراً وطار به بعيداً، فقرّر أن ينسى الأمر، وأكملَ طريقه.

عصر ذلك اليوم سارَ نحو شارع الشيخ عبد الله، ومنه إلى طاحونة رحى كبيرة يجرّها حمار مغطّى العينَين، وطحن كمّية من القمح لبيت الحجّي، وفي طريق العودة وقبل أن ينعطف مال بنظره تِلقائياً على جدار بيت العمّ ناصر. ازدردَ ريقه غير مصدّق. تراجع ليتأكّد ممّا رآه. ألقى بالقمح جانباً، وقرأ ما كُتب على الجدار: «لقد حازني وجدٌ بمَنْ حازه بُعدٌ، فيا ليتني بُعدٌ ويا ليته وجدُ».

رفعَ رأسه. لمحها هناك، بين فتحات النافذة الخشبية ذات الأعمدة الحديدية. انعكاس ضوء الشمس على شَعرها أكسبه لون رطب الخلاص الناضج وقت القيظ. خفق قلبُه بوتيرةٍ ما اختبرها من قبل. كان متأكّداً ممّا رآه وأحسَّ به. التقط الفحم المدبّب وكتب: "فلو خُلق الناس من دهرهمْ، لكانوا الظلامَ وكنتِ النهارَا".

ومنذها كانت له الضَّوء والنهار.

24
ما نراه أم ما نشعر به؟

العالمُ كلّه منشغلٌ بهذا الفيروس الجديد، هل تظنّين أنه جاء من الصين؟ يقولون إنه ينتشر بسرعةٍ، أسرع من الأنفلونزا العادية، أبويه متأكّد أنّه من صنع البشر، وأنّ وراءها مؤامرة عالمية. لا أعرف مصدر معلوماته. هل تؤمنين بنظرية المؤامرة؟ يتذمّر سيف، ويُبربرُ دون توقّف ويسأل دون أن ينتظر أيّ إجابات. يتداخل صوته مع صوت رشفات إيفلين لبقايا العصير مع الثلج وجهاز تحضير القهوة وضجيج المكان. يُخبرني بأنّه تعجّب حين رأى البارحة في السوق أشخاصاً يرتدون كِمَامَات مثل التي يلبسها الأطبّاء في غُرَف العمليات، ولكنه لبسَ قفّازاً حين دخل السوبر ماركت، وعقّم عربة التسوّق. ثمّ سأل: كيف يمكن لشيءٍ صغيرٍ لا نراه هذا التأثير كلّه؟

هنا أقاطعه بحدّة وأوضح له أنَّ رؤية الشيء ليست مقياساً لمدى تأثّرنا به، هنالك أشياء لا نراها، ولكننا نشعر بها، كالكراهية والحبّ، الحزن والسعادة، ثمّ أسأله عن الشيء الأكثر تأثيراً فيه، أهو ما يراه أم ما يشعر به؟ يكتفي بقول: لا أعرف، ويعود إلى الموضوع نفسه: هل تظنّين أن هذا الفيروس سيطول وجوده؟ حتّى المدارس بدأت إجازة الربيع قبل الموعد. صحيح، أخبرني حامد بذلك، وبأنهم بعد الإجازة سيكملون الدراسة عن بُعد. دراسة عن بُعد .. عمل عن بُعد .. اجتماع افتراضي .. هل تتخيّلين أنْ يحدثَ ذلك؟ يضع معقّماً على يدَيه، ويفركهما. تنبعثُ رائحتها القويّة. تريدين؟ لا، وشكراً. أتركه يكمل وأُخرج أوراقاً أحضرتُها معي. يتنبّه: هل

هذي صور جديدة؟ لحظة، لحظة لا تستعجل. أُعطيه الأوراق بحذر. أُكمل: أعطاني إيّاها أبويه سالم قبل يومَين. يُقلّب الأوراق وهو يخبرني بأنّ والده وأعمامه ومن بينهم والدي كانوا أمس عند جَدّي سالم. علّقتُ: وأخيراً! بعد لحظاتٍ يشهق: آآآآه وايد قديمة. أظنّها يوميات أو مذكّرات مثل ما أخبرني. يقرأ جملاً قصيرة منها بصوتٍ خفيض، لكنه مسموع. أظنّها أقرب إلى يوميات. يتمتم. أسمع خشخشة أوراق. يقول: أحاول أن أرتّبها من الأقدم، يمكن هذي .. لحظة هذي أقدم .. هذي تعود إلى عام 1929 .. هذي غير كاملة .. وهذي ما عليها تاريخ .. هنا حروف غير واضحة تحوّلت إلى بقع من الحبر .. أحاول أن أكتشف الكلمات.

يظلُّ هكذا فينةً من الزمن، ثمّ يقرأ بمهلٍ مقطعاً من ورقة يظنّ أنها الصفحة الثانية من ورقةٍ مفقودة: بدأ الصيف، والحَرّ والشُّوب. ألبسُ أخفَّ ما عندي، ولكن الرطوبة عالية ورائحة البحر تكاد تخنقني. يقول سيف إن التاريخ غير واضح لوجود ثقوبٍ أسفل الورقة، ولكن ما يظهر منها هو يوم الأحد ثمانية آب، ورَقْم سبعة فقط، لعلّه يكون 1927. يقرأُ بعدها مقطعاً آخر: وأتركُ حبّات البيض الأخيرة للخالة عفيفة قريبة أمّي؛ لأعطيها في طريق عودتي، فتصنع منها كلّ يومٍ إفطاراً شهيّاً لي ولها. ثمّ يتوقّف، ويقلّب الأوراق مرّة أخرى، بحثاً عن ورقةٍ أقدمَ. يظلّ هكذا ثمّ يصيحُ: حصَّلتُها. يقرأ بمهلٍ الورقة الأولى من أوراق ماري حنّا.

الورقة الأولى

كلّما أشتاق إلى أمّي، أروح عند الخالة أمّ جميل، أكبر معمّرةٍ بالحيّ كلّه، ويمكن بالمَشتى كلّه، لتحكي قصصاً عن أمّي مارتا؛ أحلى بنات الضيعة كما تقول عندما نأتي بسيرتها.

أخبرتني بأنها ماتت بعد أن أنجبتني وهي ما زالت نفساء. ما كان فيها شيء، حتّى ما لحقت تكمل الأربعين، قالتها بنبرةٍ تجمع بين الحسرة والتعجّب. توقّفت عن الكلام لتُحضّر منقوع زهورات. بعد قليلٍ وضعت أمامي الكوب، ففاحت رائحة البابونج واليانسون والزعتر والنعناع البرّي والورد والخزامى، وأكملت الحكي. في تلك السنة اشتدَّ البرد، وانقطعت القوافل، وارتفعت الأسعار، وانتشرت الأمراض الصدرية ونزلات البرد. كان يوم أحد والدنيا ثلّجت، الثلوج تراكمت على أبواب البيوت، وصارت الناس تدفعها دفعاً لتطلع من بيوتها وتروح إلى الكنيسة. صلّينا، وبعدها فُجعنا بالخبر. رضّعتكِ أمّكِ ونامت، وما عرف أحد أنها ماتت، إلّا بعدما علا صوت صياحكِ. بكينا كلّنا، وصلّى الخوري من أجلها ومن أجلكِ، وأخذتكِ الستّ عفيفة عندها، بعدما تركها زوجها وسافر. وستّكِ أيضاً ماتت في فترة النفاس، ما جابت غير أمّكِ، ومثلها أمّ ستّكِ ماتت بعد ولادة متعسّرة وحمّى عالية ظلّت ليومَين. سألتُ الخالة أمّ جميل متوجّسة إن كان الحَبَل يموِّت المرأة، فأجابتني: مو شايفتيني قُدّامك. عندي عشرة اسم الله عليهم، من جميل إلى ميليا. هذا قدر ومكتوب، يا بنتي". ثمّ تنتقلُ إلى الحديث عن أبي، فتقول إنه كان مكارياً، من الذين يركبون البغال وينقلون البضائع في قوافل كبيرة، وصلت إلى دمشق وبيروت وفلسطين وحتّى الإسكندرية جنوباً وأنطاكيا شَمالاً. ترتشف من منقوع زهوراتها قبل أن تُكمل حديثها، كان يغيبُ عن المَشتى لفترات طويلة، وفي رحلته الأخيرة بعد وفاة أمّكِ، قرّر أن يكفّ عن الترحال ليهتمّ

بكِ وبأختكِ، ووعدَنا بأنها ستكون رحلته الأخيرة، وفعلاً كانت الأخيرة، فرجعت بغلته بدونه. قالت وهي تبكي: "راحوا الاثنَين مارتا وحنّا وهم شباب .. المجد لك يا محيي الأموات. مع القدّيسين، أرِح، ياربّ، نفوس جميع الراقدين، حيث لا وجع ولا حزن ولا تنهّد، بل حياةٌ أبدية. الرحمة لجميع الأموات ... آمين".

قرّرتُ في زمنٍ ما، ألّا أتزوّج خوفاً أن أحبَل وأموت مثل أمّي، ولم أتخيّل أبداً أنني سأعيشُ بعيداً عن المَشتى في يومٍ ما، ولكنْ، كيف يمكن لنا أن نعرف ما ينتظرنا؟ أنا اليوم حُبلى وشعرتُ برفرفة الجنين لأوّل مرّة، وأسكن بلاداً بعيدة لا تُشبه المَشتى في شيء، ومتزوّجة من رجل غريب، وأفكّر كلّ يومٍ لو صار لي مثلما صار مع أمّي وأمّها وجَدَّتها، كيف سيعرفُ أولادي عنّي؟ لا تعيشُ أمّ جميل هنا لتحكي لهم عنّي وعن المَشتى، ولا الخالة عفيفة لتخبرهم عن طفولتي وكيف كنتُ ألعبُ مع فيّاض تحت أشجار الصفصاف والتفّاح والدرّاق والجوز والزيتون، ولا حتّى الخالة وجيهة التي لا تتركُ أحداً في حاله، وتنشر النمائم، وتلفّق الأخبار، وتخلق المشكلات في الضَّيعة.

يغضبُ منّي ناصر كلّما تأتيني هذه الأفكار، ويقول بلهجته التي أحبّ: «بعد الشَّرّ عليك». بقلب الكاف إلى حرفٍ بين الجيم والشين. أحاول أن أتجاهل تلك الأفكار، ولكنْ، لا أقدر أن أهرب منها، حتّى قرّرتُ أن أحكي لناصر عنّي وعن المَشتى، ليكتب ما قد لا يمكنني أن أحكيه لابني أو ابنتي، إن

رحلتُ قبل أن يبلغوا مبلغاً يمكنهم فيه التعرّف إليّ.

نادتنا حليمة لنفطر بعد ساعات الصوم، وناصر ما أكل ولا شرب منذ الفجر، فطلبَ أن نكتفيَ بهذا القدر اليوم. أخبرني بأنه جلبَ لي من السوق حبّات من ثمرة التُّرُنْج. أنا جوعانة، ورائحة التقلية تناديني.

الجمعة 1 نيسان 1927

يتوقّف. أسمع صوت عدسة الهاتف تلتقطُ صور الأوراق. يعدني أن يُعيد كتابتها الليلة ويسجّلها صوتياً، بعد أن يحاول تخمين الكلمات غير الواضحة، ثمّ يرسلها. يودّعني ويغادر.

أذهبُ إلى السوبر ماركت القريب من البيت. تتبضّع إيفلين أغراضاً للبيت طلبَتها أمّي. أتركها وأتّجه إلى قسم الموادّ الصحّية. أستخدم تطبيق كُن عيني. اتّصلَ متطوّع بعد حوالي نصف دقيقة، يتحدّث العربية بلهجةٍ مصرية ذكّرتني بسهير. أسأله عن أنواع معاجين الأسنان أمامي. يطلب منّي أنْ أحرّك كاميرا الهاتف. هذا بالفلورايد، وهذا للتبيض، وهذا للأسنان الحسّاسة. أبحثُ عن معجون بطعم النعناع من علامة كولجيت. حرّكي الكاميرا إلى اليمين، قرّبي أكثر، هو هذا بطعم النعناع. أشكره على مساعدته.

في المساء أتابع مع جَدِّي القنوات الإخبارية في التلفاز. لا أخبار سوى عن هذا الوباء، وكأنّ الأحداث السياسية والنزاعات بين الدول ما عادت مهمّةً أو ليست موجودةً. أسأله عن رأيه في الأمر. يسعلُ بهدوء، ثمّ يقول إننا بحاجةٍ إلى المزيد من الوقت لمعرفة ماذا يحدث، مع أن الأوبئة ليست

بأمرٍ جديدٍ على العالم. يُقفل التلفاز أو ربّما يضعه على الصامت.

أسأله عن الكلام الذي دار بين عليّ وسارة. يضحكُ ويخبرني بأنه ليس دوماً فحوى الكلام ما يهمّ، بل من يحدّثُكِ. لسببٍ ما تذكّرتُ حديثنا أنا وسيف اليوم. ثمّ يكمل الحكاية.

ومرَّت الأيّام .. وصار ينتظر لقاءاتهما كلّ خميس في المكان ذاته قرب النافذة، حتّى صارت كلّ شيءٍ في حياته.

25

الصورة الثانية عشرة

البرنامج: رجال يجلسون تحت شجرة.

كان جالساً على الكرسي الخشبي الطويل ذلك الصيف، أمامَ شجرةِ البَمْبر، بأفرُعِها المتدلّيةِ الممتلئةِ بالثمار الوردية المائلة إلى الاصفرار، ورائحتها الزكية، لمّا جاء يودّع العمّ ناصراً قبل أن يُسافر أعطته حليمة علبة معدِنية ممتلئة بثمار البَمْبر الزاهية: "خذ .. للرحلة". قالت له: "وهذي لأمّكَ". كانت علبة حلوى، ومعها ظرف دسَّه سريعاً في جيبه. انصرفت وهي تدندن: "أسقي على البَمْبرة وأسقي على التِّينة .. حسبي على من جرح قلبي بسكينة". كان في صوتها بحّةٌ تخترق الروح، تلفّت عليّ يميناً يساراً باحثاً عنها، يعرفُ أنها تراقبه من إحدى فتحات البيت الكثيرة. لمَحها تطلّ نحوه من نافذةٍ داخليّةٍ لإحدى الغرف عن يساره، حيث النخلتان. أضفت الشمس ألقاً ذهبياً على تلك الصورة، شَعرها، وابتسامتها، وعينَيها الصغيرتَين، وحاجبَيها الرقيقَين، والثمار المتدلِّية على الأغصان، وجدران البيت، والبرواز الخشبي للنافذة، حتّى السماء كانت في تلك اللحظة مختلفة. أمّا هو، فكان طائراً حُرّاً يمتلكُ كلّ شيء: السماء، والشمس، والأشجار، والرياح.

حين أغلقت النافذة أقبل والدُها. كان يلبسُ ثوباً قطنياً خفيفاً وحاسر الرأس. أمسكه من ذراعه، وأدخله مجلسه. كانت المراوح ترسلُ عليهما هواءً منعشاً، يخفّف من حرارة الجوّ. لم يكن ترفُ الكهرباء متاحاً لبيوت المنامة كلّها في تلك الفترة. تحاورا عن آخِرِ أخبار الحرب، ثمّ أخبره عليّ

بأنه شاهد قبل أيّام ملصقاً على جدار جمرك المحرّق عليه صورة ستالين مع تشرتشل وقد وضع كلّ منهما قدمه مع قدم الآخر في فردة حذاء طويلة الساق، وكان في السابق مع هتلر. لم يُعلَّق العمّ ناصر، بل اكتفى بقوله: "لا تستغربْ .. هذي هي الحروب ومصالحها". ثمّ أهداه كتاباً سحَبه بين كُتُبه الكثيرة، عنوانه "الذكرى"، وكُتب تحته: "إن الحياة مثل طائر متنقّل صدى صوته الذكرى، الجزء الأوّل من ديوان إبراهيم العريِّض (1340 هـ-1931م) مطبعة النجاح في بغداد".

فرح عليّ بالديوان وتصفّح أبوابه الخمسة. قبل أن يغادر أعطاه العمّ ناصر مبلغاً من المال، أخذه على استحياءٍ: "ما قصَّرت عمّي". ربَّت على كتفه قائلاً: "لا تطوّل الغيبة، يا وليدي .. الحجّي كبر ويحتاجك في الحفيز". في تلك اللحظة أحسَّ الشابّ بإحساسٍ جديدٍ لم يألفه منذ مدّة طويلة، حيث اعتاد صحبة الرجل كلّ مساء، يستمع معه إلى الإذاعات المختلفة، ويتناقشان في أخبار الحرب وما يحدثُ في هذا العالم. تعلَّم منه ألّا يندفع ولا يتأثّر بكلّ ما يسمع، وذكّره مراراً: "اصبر واسمع الكلّ". علَّمه الكتابة على الآلة الكاتبة، وأصول التجارة والحساب، كان يردّد على مسامعه: "لا يكفي فكّ الخطّ، يا وليدي، المستقبل للمتنوّرين والمتعلّمين". يقرأ التلميذ على أستاذه، والأستاذ يُنصِت إليه، حتّى صار ناصر بن سالم يعتمد عليه، ويثق به.

قبل أن يغادر لمحها في الحَوش، لوَّح لها، وغادر مسرعاً إلى مسكنه، ليحمل متاعه. سمعَ طرقات على بابه، والصوت الذي اعتاده نفسه: "يمَّه تسلّم عليك وتعطيك صوغة حقّ أمّك". خرجَ من الباب ليجد أمامه عُلبة أناناس، وعُلبة سمن. ظلّ يتأمّلها حتّى ودَّعته بنظرةٍ خاطفة وابتسامةٍ مقصودة.

مرَّ في طريقه على المحلّ، وودَّع العاملين وحجّي صالح. ثمّ غادر على متن أحد القوارب، ومنها إلى سفينة البوم المتّجهة إلى دبي بعد نحو عامَين من الغياب.

في زاوية مُنعزلةٍ على ظهر السفينة المغادرة فتحَ عليّ الظرف. كان يحوي على صورتها، وكُتِب خلفها: "يقول الشاعر أحمد شوقي: سعَت لكَ صورتي وأتاك شخصي، وسارَ الظلّ نحوكَ والجهاتُ. لأن الروح عندك وهي أصلٌ، وحيث الأصل تسعى الملحَقاتُ. وهبها صورةً من غير روحٍ، أليس من القبول لها حياةُ؟ أنتظركَ .. سارة".

كانت الصورة بالأبيض والأسود، ولكنه يتذكّر ألوانها جيّداً. ذات يوم طلب منه ناصر بن سالم أن يُحضر معه كاميرته. كانَ بدايةَ الربيعِ، والجوُّ ما زال بديعاً، وإنْ خالطه بعضُ الدّفء. في حَوش بيتهم، وأمام شجرة البَمْبرالمزهرة بورودها البيضاء الصغيرة صوَّرَها. لم يرتبكْ عليّ في أيّ تصويرٍ كما ارتبكَ ذلك اليوم. الصورة بالأبيض والأسود، لم تظهر خُصلات شَعرها التي لها لون الرُّطَب الناضج تحت قماش بُخْنقها المصنوع من قماشٍ خفيف أسودَ، ولا التطريز الذهبي عليه الذي يُحيط بوجهها البيضاوي، ولا ثوبها الأزرق الفيروزي الذي له لون البحر، ولا الزخارف الوردية عليه. لم يكن الأبيض والأسود منصِفاً أبداً. وضَعَ الصورة في إحدى صفحات ديوان الذكرى، واحتضن الكتاب. نام، وحلَم بالألوان كلّها.

26

الصورة الثالثة عشرة

البرنامج: على الأرجح امرأة تلبس غطاء رأس، وطفل.

ورآهَا بعد حولَين كاملَين في بيت زوجها بمشيخة عجمان. صاحت باسمِه لمّا رأتْه، وأخذته في أحضانها. اختلط بكاؤها وضحكُها وهي تسحبه إلى داخل البيت، وتهذي باسمه بصوتٍ عالٍ. وسط الحَوش، وتحت شجرة اللوز تماماً، رأى أختَه لأوّل مرّة. مسحت بقايا الدموع والعَرَق من وجهها بغطاء رأسها، وقالت: "هذي فاطمة سميّة جدّتك". جثا على ركبتَيه. تأمّل الصغيرة. ناغاها ولمس أصابعها الدقيقة. رفعَت طرفها نحوه وضحِكت، ولمّا ضحكت كانت تُشبه أمّه .. أمّه حين كانت زوجة العتَّال.

جلسَا معاً على الحَوش الرمليّ، وهي كانت تهفّ على وجه الصغيرة بمهفّةٍ من جريد النخل. أهداها قماشاً قطنياً بوقليم مقلّماً بالطول بدرجات الأخضر، ابتاعه من سوق المنامة، ثمّ أعطاها علبتَي السمن والأناناس، وأخبرها أنها من زوجة الحجّي، والحلوى من بيت العمّ ناصر. فتحت الغطاء، ففاحت رائحة سمن وسكّر وزعفران وهيل، تنشَّقتها وعلّقت: "حلوى التجّار غير". التقطت بأصابعها الثلاث قضمةً منها للصغيرة التي التهمَتها على الفور. قالت بصوتٍ منخفض: "كان يُحبّ الحلوى". ما زال يتجلىّ في ذاكرتَيهما غائباً كما كان حاضراً. صاحت الصغيرة طلباً للمزيد، فعلَّقت ضاحكة: "مثل أخوها". ثمّ ألقمتها قطعة أخرى. تذكَّر سارة، فقال دون أن يفكّر بوقع كلامه: "لمَّا تكبر لازم تروح المدرسة". "ما عندنا مدرسة للبنات". "في البحرين عندهم". شهقت الأمّ: "معقولة"؟!

أومأ برأسه بالإيجاب. "غريبة .. كيف البنت عندهم تروح المدرسة"؟! سألها عن الغرابة في الأمر. رفعت كتفَيها، وأجابت: "بس". "كيف بس"؟ "البنت ما لها غير الزواج". "يعني ما يصير تتعلّم وتتزوّج"؟ لا تجيبه، بل تكتفي بتلقيم الصغيرة الحلوى.

أراد تغيير الموضوع، فأخرج كاميرته من الحقيبة الجِلدية. سألَته عن هذا الشيء، فأخبرها. وضعت يدها على صدرها، وشهقت: "عندك عكَّاسة"؟ التفتَتْ يميناً ويساراً، ثمّ قالت بصوتٍ خافت: "دِسَّه عنه إذا شفته". أومأ يُطمْئِنُها. تراجع، وصوَّرهما. كانت مرتبكةً، عيناها على الباب لا العدسة. ولم تهدأ إلّا عندما أرجع الكاميرا مكانها بعد الصورة الثانية.

قبل أن يُغادر اختفت للحظات، وعادت تحمل الصور التي أرسلها من البحرَين، ودسَّتها في جيب ثوبه بسرعة: "أخفيتها عنه كلّ هذي الفترة، سيُبرطم إن رآها وسيحرقها". نظر في عينَيها، كانتا واسعتَين ومرتبكتَين أكثر من أيّ وقتٍ مضى. سألها: "هل أنتِ مرتاحة معه"؟ أطرقت، وبصوتٍ يكاد لا يُسمع: "أبوك كان غير". حملت صغيرتها، وعلت وجهَها ضحكةٌ واسعةٌ: "بس أحسن من أن أبقى بدون رجل". تجاوز جملتها الأخير وإن أوجعته. تأمّل الخطوط الغائرة حول عينَيها، والشريان الأخضر البارز الذي يخترق منتصف جبهتها المتفصّدة بالعَرَق. لم يكن بحاجة إلى أنْ يدرك أنّ ضحكتها كانت فارغةً بلا معنى، وتبريرها مستهلك كثوبٍ مهترئ استُخدِم مراراً. طلبت منه أنْ يبقَى حتّى يعودَ زوجُها، لكنّه اعتذر. لم تُصرِّ، وإلّا لبقيَ. كان في نظراتها شيءٌ يحثّه على المغادرة. سيراها عند خاله يوم الجمعة كما وعدَته. عانقها مطوّلاً قبل أنْ يُغادرَ. ولم تُغادره روائحها: عَرَق، وطبخ، وبقايا عطر، وكومة أحزان.

منذ أن وَطِئَ أرض الفرضة، ورأى ساحتها خالية من البضائع والدلّالين،

وعتّاليها يترقّبون خبر قدوم أيّ سفينة، تيقّن بأنّ الأحوال هنا ما كانت أفضل من البحرَين، والحرب تركت آثارها. مرَّ على محلّ خاله في السوق، فوجده مع صاحبَيه النوخذة خلفان والتاجر عبد الله بن ثاني. سلَّم عليهم وصافحهم. ولمّا اقترب من خاله أشاح عنه بوجهه قائلاً:

- من طلع من داره قلّ مقداره.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تدخَّل عبد الله بن ثاني:

- خفّ عليه، يا بو حمد.

ثمّ أشار نحو عليّ ليجلس إلى جانبه، وسأله عن أحوال البحرَين. أجابه:

- السوق راكد وارتفعت الأسعار.

سأله خاله دون أنْ يلتفتَ نحوه:

- كيف شغلك مع ناصر بن سالم؟

- الحمد لله.

ثمّ سألهم عليّ عن توقّعاتهم، أجابه التاجر المخضرم عبد الله بن ثاني:

- تحسُّن الأوضاع يرتبط بنهاية الحرب .. الله المستعان.

وافقه النوخذة:

- ننتظر أيّ خبر عن تحسّن الأوضاع في أوربّا .. محاملنا واقفة.

قال خاله:

- الله المستعان.

لم يكن الرجال متفائلين، فلا شيءَ في الأفُق يبشّر بانتهاء الحرب، والقصفُ مستمرٌّ، والقتال يتوسّع، والألمان وحلفاؤهم لا يستسلمون. لا شيء يمكنه أنْ يوقفَ الجوع والهلاك سوى انتهاء هذه الحرب.

عرفَ عليّ لاحقاً أنَّ خلافاً دار بين خاله وابنه، إذ رفض الأب مجاراة ابنه وتخزين الموادّ الغذائية لبيعها بأضعاف أسعارها أو إعادة بيعها في السوق السوداء؛ وهذا ما دعا الابن إلى أنْ يفتح محلاًّ ويستقلَّ بتجارته عن والده. كسرَ ذاك التصرّف التاجر الكبير، ورمَّم شيئاً يخصّه في ذاكرة ابن العتَّال.

التقى كذلك بعمّته. كانت متربّعةً في مجلسها، يحفُّ عليها هواء البرج الهوائي وهي تتحدّثُ كعادتها عن ابنها الغائب، وتُريه أحدثَ صوره التي أرسلها من بومباي. كان يلبس ملابس إفرنجية أنيقة وشَعره الكثيف لامعٌ ومصفّفٌ إلى الخلف، وتظهر جبهته الواسعة. قبَّلت الصورة، وقالت: «هذي العكوس تصبّرني على فراقه». قبل أنْ يُغادر أعطته رزمة روبيات، ولكنه ردّها متعلّلاً بأنه يعمل الآن ويحصل على راتب جيّد، إلّا أنها ردّت غاضبة: «لا تصير مثل أبوك». وجدها فرصة مناسبة، فباغتها بسؤالٍ شغله مدّة طويلة: «هل صحيح ما كان يظنّه عن بو عبد اللطيف»؟ أمسكت به من ذراعَيه، طوّقته لتقرّبه نحوها، ففاحت روائح طيبها ومِسْكها وعودها، ووصلته خشخشة أساورها. تنهّدت طويلاً وأخبرته بقصّة، ما سمعها من قبل.

كانت على الأغلب بين السابعة والثامنة من عمرها، عندما أنجبت أمّها صبياً بعد انتظار، ومعها فارق والدها الحياة دون مقدّمات، كأنه كان ينتظر هذا الابن الذَّكَر ليرحل، ويتغيّر بعد ذلك كلّ شيء. ابتلعت الأحزان روح الأمّ كدوّامة، فما بقي منها سوى جسد يهمدُ شيئاً فشيئاً، وما عادت تكترث برضيعٍ ينتظرها ولا بابنةٍ تحتاجُ إلى رعايتها، حتّى اضطرّت إلى أن ترعى أخاها الصغير بمساعدة جَدَّتها لأمّها. لم يعرفوا ما كان يمتلكه الأب،

فالبيع والشراء كان معظمه يتمُّ بين التجّار شفاهياً، وبين كلامٍ قِيل ولم يُقَل وأمٍّ بين يقظة وخيال خسروا ما يملكون، هذا لو كانوا بالفعل يمتلكونه، فلا أحد يمكنه الجزم بذلك.

عاشت معهم جَدَّتهم، تلك المرأة القوية التي لا تُشبه ابنتها. صارت تعتني بالنفساوات والرضّع مقابل ما تجود به عليها الأُسَر، أمّا هي، فكانت تعتني بأخيها، وبجَدِّها الخَرِف. قالت العمّة: «كنتُ له الأمّ والأب، وما كان يُفارقني».

وعندما بلغَت مبلغ النساء، وصارت في سنّ الزواج، تقدّمَ لها الخُطّاب؛ إذ كانت ذاتَ حُسْن لا تُخطئه الأعين، وحسَبٍ لم ينسَه الناس بعدُ، وأب يتذكّر الناس مآثره، ولكنها ما كانت مستعدّةً لتركه ولا لتركِ جَدَّيها. «وخطبني بو عبد اللطيف». تنهّدت للحظاتٍ وتأمّلت الأساور والخواتم الكثيرة التي تملأ يديها السمينتَين. كان من تُجّار لنجة الذين نقلوا تجارتهم إلى بندرٍ منافسٍ يسمّى دبي على الساحل الآخر، بعد أن رُفعت أسعار ضريبة الجمارك، وأراد أن يستقرّ فيها نهائياً كغيره، إلّا أنّ زوجته أمّ بناته أبَت أن تترك أهلها، فقرّر أن يتزوّج أخرى تنتقل للعيش معه هناك. صمتت للحظاتٍ ثمّ قالت: «وتزوّجتُهُ». صوت خشخشة الأساور وصله مرّة أخرى وهي تُعدّل من وضع غطاء رأسها الذي سقط على كتفها، وكشفَتْ عن شَعرها الأسود المصبوغ، وبياض نحرها ورقبتها.

تركت لهم مالاً وفضّةً وذهباً من مهر زواجها قبل أن تُسافر، لتتفرغ الجَدَّة لتربية أخيها. وكتبت لهم مراراً تطلبُ منهم النزوح معهم، إلّا أنهم استصعبوا الأمر، وكبُر الأخ الذي تناهى إلى سمعه أنَّ أبا عبد اللطيف استولى على تجارة أبيهم، لذا كان يساعدهم ويرسل إليهم الأموال. قالت العمّة: «سألته مرّة عن الأمر، فقال: أبوكِ كان صالحاً، بس ما كان تاجراً جيّداً». «ورأيكِ

أنتِ عمّوه»؟ فكَّرَتْ قليلاً قبل أن تجيبه: «ساعَدنا وما شفت منه إلّا خيراً، بس أبوكَ صدَّق البعض دون دليل، فما تقبّله». وقبل أن يغادر همسَت في أُذُنه وهي تودعه: «اترك عنكَ الماضي، يا عليّ».

لم يبقَ طويلاً في دبي. اجتمع بأهله عند خاله غداة يوم الجمعة. ألفى المكان كما تركه آخر مرّة تماماً، مزدحماً بالأفراد. ذرعَ الليوان سارحاً وباحثاً في زواياه عن صوَر أبيه وعبُّود، حتّى نادته العمّة أمّ حسَن. كانت متربّعة في مكانها المعتاد قرب المخزن تحت السلّم، وعن يمينها عصاها. تضاءل جسمها وانكمش، لكأنها عادت طفلة، ولكنْ، بشَعرٍ أبيض وتجاعيد كثيرة. في تلك اللحظة خطَر له: كيف كانوا يخشَوْنها وهم صغار، وهي الضئيلة الضعيفة؟! سألَته عن أحواله، وبعد أن أجابها، سألها: «هل تعرفين مَن كان يسرق التمور من البَخَّار»؟ «ما أسمعك! تعال قدّامي». اقترب منها، انحنى وأعاد عليها السؤال مرّة أخرى، بصوتٍ أعلى. ضحكَت حتّى بان فراغ فمها الخالي من الأسنان، وأجابت: «عبُّود ما غيره». وسكتت قليلاً ثمّ تابعت: «كنت أحبّه، وما أقدر أزعله». وبعد تردّدٍ قصيرٍ سألها عن حسَن. تهدّلت شفتاها كأنهما على وشك السقوط، وقالت: «حسُّون كان يشبه عبُّود، وجهه مثل البدر وعيناه هلالان مسحوبان نحو السماء». أرادت أن تُكمل، إلّا أنّ صوتها تغيّر وتهدَّج، كأنَّ صخرةً تقف حاجزاً في حلقها. كانت أشبه بطفلةٍ تبكي، لا امرأة عاشَت قرابة قرن كما يزعمون.

ثمّ رآها، أقبلت لتحمل ابنها قاسم الصغير الذي كان يحبو نحوهما، وجفلت كظبيةٍ شاردةٍ لمّا التقت نظراتهما. حيَّاها متمتماً بكلماتٍ سريعة مضطربة، ولعلّها أجابته، ولكنه ما سمعَ منها حرفاً. لا يعرف كيف تحوّل شهد عينَيها إلى صحراء، ولا كأنها تلك الفتاة التي حلَمَ بها ليل نهار.

غادر المكان بعد الغداء. سارَ في السِّكك بين العُرُش التي توالدت

من جديدٍ على الأرض المتفحّمة، لا تُشبه تلك التي تركها قبل عامَين خاويةً على عروشها. كان فرحاً بآثار التعافي الذي حصل بتكاتف الناس ومساعدات الحاكم والميسورين. توقّفَ عند عريشهم المحترِق، قربَ سوره الجديد المصنوع من جذوع النخيل، في انتظار البيت الذي سيبدأ بناؤُه قريباً، على الرّغْمَ من الغلاء والغُربة. لمحَ طيف عبُّود ضاحكاً، يركض حوله، ويردّد: «عبُّود يحبّ عليّ». همسَ: «وعليّ يحبّ عبُّود».

وفي تلك اللحظة ذاتها أحسَّ بأنّ شيئاً يأخذه إلى البحرَين، لا يعرفُ له تفسيراً، فغادرَ إليها على أقرب سفينةٍ.

باب اللمس

27

الصورة الرابعة عشرة

البرنامج: على الأرجح رجل وطفل في السوق.

استيقظَ على صوتٍ يناديه. فتحَ عينَيه بصعوبةٍ. وَقْعُ المطر ما زال مستمرّاً في الخارج منذ مساء أمس، وقطراتٌ منه تتسرّب من النافذة الوحيدة في غرفتِه. ظلّ تحت دثاره، إلّا أنّ الصوت اللَّحوح لم يتوقّف. سار متلكّئاً ناحية الباب، فشاهد الحجّي ينتفض وهو يحمل طفلاً بين ذراعَيه: "ساعدني نسير الأمريكي". لبس ثوبه على عجل، ثمّ حمَل عنه الصغير، وانطلقا نحو المشفى. "ما دخل بطنه أيّ شيء من البارحة". قالها الحجّي وهو يحاول اللحاق بعليٍّ، وفي يده سِراج ينير لهما الطريق بالكاد قبل مطلع الفجر بقليلٍ. كانت الطُّرُقات خالية في هذا الوقت من يومٍ شتويٍّ ممطرٍ على غير العادة. دخَلا فوضع الطفل فوق أحد الأَسِرَّة، وكشفت عليه الممرّضة، فصاحت بزميلةٍ لها لتساعدها. كان الطفل شاحباً، وشفتاه جافَّتَين مزرقَّتَين، وجسده ساخناً على رغم برودة الجوّ، وعيناه غائرتَين، مفتوحتَين، تحدّقان في الفراغ. ولم يصمد طويلاً.

أصابه جفافٌ سريعٌ أنهكَ جسده الضئيل، ولم يُمهله. دفنوه بعد صلاة الظهر، وعادوا إلى حيث نحيب النسوة ونواح أمّه. تذكَّر أنه صوَّر الطفل قبل أيّامٍ مع إخوته. كانوا يجلسون قرب عَتبةِ بيتهم حين اقترب منهم، وأخرج كاميرته ليصوّرهم فهربوا ما عداه. صاحوا: "لا تصوّرنا، يمَّه تقول العكس حرام". كان على وشك أن يُرجع الآلة إلى حقيبتها الجِلدية، حين شاهد أصغرهم محدِّقاً نحو العدسة. ناداه أكبرهم: "تعال". إلّا أنه لم يتحرّك من

مكانه وظلَّ يُحدق نحوه ويبتسم. لسببٍ لا يعرفه، اقترب منه، وصوَّره. كانت الصورة الأخيرة في الفيلم. سرعان ما انضمَّ إلى إخوته، ولعبَ معهم بعُلب الأناناس المعدِنية التي تحوّلت إلى درّاجات بين أرجلهم يجوبون بها ساحة مملوءة بمستنقعات مياه الأمطار.

أخرجَ الصورة من علبه الحلوى المعدِنية الفارغة، وتأمّلها. كان الطفل يبتسم ويغطّي عينَيه بيده اليمنى، ليحميَها من أشعّة الشمس. تذكَّر عينَيه الواسعتَين ورموشه الطويلة وابتسامته الخالية من ثناياها العلوية. عرف اسمه بعد وفاته من جَدِّه الحجّي صالح. كان جاسم يضجّ بالحياة، وصغيراً جدّاً على مغادرتها. طفَرت عيناه بالدموع، تذكَّر أن هذه الصورة هي كلّ ما تبقّى منه، فتوالدت الأسئلة في جوفه حتّى أحسَّ بتخمةٍ في دواخله، وألمٍ يغمر بدنه. لماذا اختار أن يُصوِّره في تلك اللحظة؟ لماذا انفضَّ عنه البقية، وظلَّ واقفاً أمام العدسة، كأنه يطلب منه أن يُصوّره؟ مَن اختار الآخر؟ هو أم الصبي؟ أم كلاهما؟ ولماذا كان يحمل كاميرته ذلك اليوم دون بقية الأيّام؟ ولماذا كان مُصِرّاً على أن يصوِّره مع صعوبة الحصول على الأفلام وموادّ التحميض؟ ما المصادفة التي جعلت الصورةَ الأخيرةَ المتبقّيةَ لديه من نصيب هذا الصّبي؟

ابتلعَ لقمةً من نبتةِ المصَوْفة، ليُخفّف بها من حرَقان معدته. اجتاحته رغبةٌ لحوحٌ أنْ يُمزّق الصورة، بل الصور كلّها أمامه في اللحظة التي طرق أحدُهم فيها بابَه، فمسحَ سريعاً وجهه بكُمِّ ثوبه. كان أخاه الأكبر: "عندك عكس جاسم"؟ أومأ رأسَه بالإيجاب. فتابع: "يمَّه تريد تشوفه". أعطاه الصورة اليتيمة التي كانت بين يدَيه: "ما عندي غيرها". بعد قليل سمع أمّه من وراء السور تهلل فرِحةً برؤية الصورة: "جاسم .. وليدي جاسم". فسكنَ شيءٌ ما بداخله، وشعر بامتنانٍ لكاميرته.

لم تتوقّف الأمطارُ عن الهطول والنسوةُ عن البكاء، وفي اليوم الثالث بعد صلاة الجمعة تناقل الأهالي خبر وفاة الشيخ حمد بن عيسى. بدا التأثّر على كلّ مَنْ سمعَ الخبر، وخصوصاً العمّ ناصر. لاحظ عليّ تهدّل ظهره وشفتَيه، وكأنّ ثقلاً وقعَ عليهما. دُفِن الراحل في الرفاع، وشيَّعه الأهالي، وعمّ الحزن أرجاء جُزر البحرَين.

استمرَّ الظلامُ الذي فرَضته بريطانيا بعد الغارة الإيطالية على أنحاء البحرَين، وشحُّ الموادّ الغذائية، وتكالبُ الأمراض على الناس، وصياحُ يونس بحري في المقاهي، ومعاداةُ الإذاعة البريطانية لهتلر وأنصاره، ومنْعُ الإنجليز الناس من الاستماع إلى الإذاعات المعادية، ومحاولات تشويشها.

وذات خميسٍ، وقت القيلولة، ومن نافذة بيتهم المطلّ على سكّةٍ خلفيّةٍ ضيّقةٍ، سألَها عليّ عن والدها:

- ما نشوفه في الحفيز؟

- من فترة تعبان، البارحة مرّ عليه الطبيب.

- سلامته ما يشوف شرّ.

- الله يسلّمك .. أعمامي سيزورونا هذا الأسبوع.

- غريبة، ما لهم بالعادة.

- بعد افتتاح الجسر زادت زياراتهم.

صمتَ قليلاً، ثمّ قال:

- خلاص قرّرتُ أن أكلّمه .. تظنّين يوافق؟

- قُل إن شاء الله.

- إن شاء الله.

سمع حليمةَ تُناديها. أغلقت باب النافذة قبل أن تقول:

- لازم أروح، أشوفك على خير.

مساء ذلك اليوم صارح الحجّي برغبته في الزواج حين كانا عائدَين من المحلّ، فتهلّل وجهه واقترحَ عليه أنْ يُزوّجه فاطمة: "يتيمة ومطيعة وتربية الحجّية". تلعثم عليّ قبل أن يُخبره بنيّتِه أن يخطب سارة. تسمَّر الحجّي في مكانه، ووضع يده على كتف عليّ، وحدَّق في عينَيه مباشرة: "سارة بنت المعزّب"؟ أطرقَ وأومأ برأسِه، فقال الحجّي: "وصلتني أخبار مِن المحرّق أنهم يريدون أن يخطبوها لولدهم سلمان". سكتَ هنيهة، ثمّ أكمل: "اسمعني زين، يا ولدي، صحيح هو طيب ويعاملكَ مثل ولده، لكنه من عائلة طواويش وهذي وحيدته .. تذكّر كلامي زين حتّى ما ينكسر قلبك".

ولكن قلبه في تلك اللحظة كان قد كُسِر بالفعل.

28
نَدْبَة على شكل هلال

أتذكّرها جيّداً. لمستُها آخرَ مرّة قبل أن يرحل للأبد. كان انتفاخاً أو بروزاً على شكل هلالٍ على ذراعه الأيمن في الجزء المكشوف، تحت كُمِّ قميصه الرياضي القصير، حول مَرفِقه. كانت ذراعه ترتعش. سألته. بردان؟ أجاب بالنفي، وتعلّل بتعبه وقلّة نومه وأشياء أخرى لا أذكرها. كانت سبّابتي على النَّدْبَة، عندما قلتُ بصوتٍ منخفض، وكأني أخشى أن يسمعني أحد غيره: توجد مثلها في روحي. نورة، خلاص نسيت الحادثة. لكنْ، أنا ما نسيتها، وأنتَ تعرف أني فعلتُها متعمّدة. يسكت، ثمّ يقول بصوت هامس: كنتِ طفلة، يا نورة، طفلة.

كنتُ أنزعج من صياح أمّي إذا خافت أن أُوقِع الأشياء، حتّى صرتُ أوقِعُها متعمّدة. أصبح صوت تهشّم الأشياء وصياح الموجودين يُشعرانني براحة غريبة. أعرف أنها تزعجهم، هؤلاء المبصرون الذين ينعمون بشيء لا أعرفه، وللغرابة تريحني. صرتُ أختبر اختلاف وقع تهشّم الأشياء على الأرضيات المختلفة، فوقعُها يختلف في المطبخ عنه في الصالة، وتهشّم الخزف يختلف عن الزجاج. وحتّى حِدّة صياحهم تختلف بحسب ثمن الشيء المنكسر وخطورة وقوعه. صار الأمر مسلّياً لي.

في ذلك اليوم صاحت أمّي: انتبهي، قدّامك مزهرية. حرّكتُ ذراعَيّ يميناً ويساراً. أحدهم أمسكَ بيدي. كان خالي سعيد. وصلني وقع تهشّم المزهرية الزجاجية على الأرضية الرخامية الملساء في الصالة، حادّاً قوياً.

تأوّه خالي. أمسكتُ بذراعه، كانت رطبة بسائلٍ دافئ. ندَّت عنه صيحة خافتة. تراجعت. توافدوا كلّهم نحوه. اصطدمتُ بهم. جُرحه عميق. النزيف لا يتوقّف. يحتاج إلى غُرَز. قِطع الزجاج في كلّ مكان. انتبهوا. سمعتُهم يقولون. أتذكّر كلّ كلمة قيلت ذلك اليوم. أخذوه إلى المستشفى. احتاج إلى غُرزٍ لقطب جرحه. كان جرحُه غائراً على شكل هلال يطوّق مَرفِقه، تُشبه القطعة الذهبية نصف الدائرية التي تتدلّى من قلادة المَريّة الطويلة لجَدَّتي التي كنتُ أعبثُ بها في طفولتي، وانزرعت في روحي نَدْبَة تُشبهها. نَدْبَة لا تغادرني، ألمسُها كالنقاط البارزة التي اخترعها الفرنسي لويس برايل بعد أن فَقَدَ بصره حين كان في الخامسة عشرة من عمره، تلك الطريقة التي أدخلتني عالم القراءة. طلبتُ ذات يوم من جَدَّتي نورة أن تدعو لبرايل في صلواتها حين كنّا على الشاطئ. سألتني عنه. ظنّته في البدء معلّمةً في صفّ المكفوفين قبل أن أُدمَج لاحقاً في مدرسة عادية، وعندما أخبرتها بأنّه مخترع تلك النقاط التي أقرؤها، سألتني أهو على قيد الحياة؟ لم أعرف الإجابة، وانتظرتُ حتّى اليوم التالي لأسأل المعلّمة عنه. أخبرتني أنه توفيّ منذ زمن بعيد. تمنّيتُ حينها لو كان على قيد الحياة؛ لأخبرَه بأنَّ نقاطه البارزة تلك أنقذتني من الفراغ. كنتُ الأسرع في قراءة تلك الطريقة في الكتابة، ولاحقاً ساعدتُ سهير التي وجدت صعوبة في تعلّمها. كان خالي سعيد يُحضر لي كُتبَ برايل باللغة الإنجليزية إذا سافر، ومنها دخلتُ إلى عوالمَ كثيرةٍ. تبعتُ ذات يوم فتاةً لطيفةً تُدعى أليسَ، تركض وراء أرنبٍ وثبَ داخل جُحر، فدخلتُ إلى بلاد عجيبة تسكنها كائنات غريبة، وتعرّفتُ إلى بينوكيو، اللعبة الخشبية، الذي يطول أنفه إذا كذَب، وتخيّلتُني ألمسُ أنف زوجة أبي وهو يطول ويطول، قرأتُ أيضاً رسائل جودي أبوت إلى صاحب الظلّ الطويل، واليوم يخطر لي أنني أشبه جودي وأنَّ سيفاً هو صاحب الظلّ الطويل، فأنا مثلها لا أعرف كيف يبدو، ولكنني على الأقلّ أعرف مَن يكون.

كنتُ أقضي الساعات في قراءة تلك الكُتُب، ألمسُ خلايا النقاط الستّة المرتّبة في صفَّين متوازيَين متساويَين وأمشي عليها بسبَّابتي من اليسار إلى اليمين وأنا أُثبّت السَّطر بسبّابتي الأخرى كي لا أضيع. اسم سيف يتكوّن من ثلاث خلايا، الأولى حرف السين الذي يتكوّن من ثلاث نقاط بارزة: نقطتان يساراً في الصفّ الثاني والثالث، ونقطة يميناً في الصفّ الأوّل. ثمّ يأتي حرف الياء الذي يتكوّن من نقطتَين بارزتَين: نقطة بارزة يساراً في الصفّ الثاني، ونقطة يميناً في الصفّ الأوّل. أمّا حرف الفاء، فيتكوّن من ثلاث نقاط بارزة: نقطتان يساراً على الصفّ الأوّل والثاني، وواحدة يميناً على الصفّ الأوّل. قد يبدو ذلك صعباً على المبصرين، ولكنه كان باباً أتلصّص منه على حيواتٍ أخرى؛ لأتخيّلَ كيف ينطُّ الأرنبُ، وألمسُ ندف الثلج في ليالي الشتاء الباردة، وأمسحُ دمعة أمّ فَقَدَت ابناً في حربٍ اختلقها البشر، وأستشعر خوف لاجئ يعبر بحراً أو برّاً إلى حدود أخرى، كما تفعل الكُتُب السمعية بي الآن.

أسمعُ طقطقات في الخارج. تزداد حدّة. أفتح نافذة غرفتي. أمطار رعدية وعواصف غير متوقّعة. أمنحُ كفَّي للسماء. تتساقطُ عليها قطرات الماء. أعبُّ الهواء المختلط مع روائح التراب والشجر والمطر. تختلفُ روائح الأشياء عندما تبتلّ. في بيتنا القديم كان المطر يتسرّبُ من السقف وحواجز النوافذ. لا يحدثُ ذلك إلّا مرّة أو مرّتَين كلّ سنة. أعرفُ ذلك من تذمُّر جَدَّتي واستنفار الخَدَم وطقطقة الماء في الدلو البلاستيكي طوال الليل. كنتُ في صباح اليوم التالي أتنشّقُ رائحة السجّاد المبتلّ، وأتعجّبُ من تغيّر رائحته.

يتداخل حفيف الشجر مع صفير الريح ووقع المطر. أصوّر المشهد بالفيديو، وأنزله في حسابي بالإنستغرام. وسرعان ما يُرسل إليّ حامد رسالةً

على الواتساب: عندكم مطر في دبي؟ أجيبه بإرسال مقطع فيديو يزداد فيه المطر حدّةً، ثمّ أسأله: هل بدأتُم الدراسة عن بُعد؟ لا، ولكنْ، أتمنّى أن تكون الدراسة دائماً عن بُعد. يُضحكني هذا الصبي الذي لا يُطيق المدرسة. أرسل إليه أيقونة وجه مبتسم عوضاً عن وجهٍ ضاحك بالخطأ. أوّل مرّة تبتسمين. هل تقصد أني لا أبتسم في الواقع أم في العالم الافتراضي؟ في الحالتَين، يجيب. أتساءل: هل أنا حقّاً لا أبتسم؟ أحرّك طرف شفتِي إلى الأعلى قليلاً. ألمسُ شفتِي بباطن كفّي. أكرّر الابتسام أكثر من مرّة. بالفعل تبدو لي هذه الحركة غريبةً. رجّحتُ أنني قد لا أبتسم بالفعل، ربمّا لأنّ الابتسامة رسالة لا تصلني. وأمّا الضحك بصوتٍ، فيُمكنني فهمه. أخبره بوجهة نظري. يجيبني: نجرّب لمّا أشوفك في المرّة القادمة، سأبتسم في وجهكَ وسنرى. أسأله عن سبب تخلّفه عن الحضور إلينا مع والده، فيجيبني بأنه رفض اصطحابه، خوفاً على جَدِّي من أن يلتقط العدوى منهم ويُصاب بفيروس كورونا، مع أنهم لا يخرجون من البيت إلّا نادراً.

أتمنّى له ليلةً سعيدةً، وكذلك لسيف. أرسل لهما على الواتساب. يردّ حامد على الفور. يفتح سيف الرسالة، لكنه لا يردّ. أنتظره دون فائدة. تجتاحني برودة موحشة، ويملؤني إحساسٌ غريبٌ بالخيبة. أستلقي على الفراش. أتذكّر في تلك اللحظة أمّي، هل مرَّت بالإحساس نفسه عندما هجرها أبي؟ أسحب الحاسوب مِن تحت لحافي. أبحثُ في محرّك البحث عن أُغنيَّات هدى حسين القديمة، أنقرُ على أُغنيَّة ماشي قطاري، فيخرجُ صوتُها شجياً. أستمعُ إلى أُغنيَّة أخرى عن الأُمّ. أجدُ نفسي أغنّي معها. أميمتي، أميمتي، إنتِ الوفاء والحبّ اللي ألمسه، واجب أحبّ إيدكِ كلّ صبح ومساء.

في تلك الأثناء تمرّ في ذاكرتي ترنيمةٌ كانت تُردّدها إيفلين بِلُغَتها حين انتقلنا إلى بيتنا الجديد. لم يكن صوتها جميلاً، ولكنّه كان صادقاً. قالت

إنها تُذكّرها بابنها الذي تركته لتعملَ أوّل مرّة في قطر ولم يبلغ العامَين. كان ينام كلّ يومٍ على صوتها وهي تهدهده. طلبتُ منها ذات ليلة أن تترجمها لي بالإنجليزية. كم كنتُ أتمنّى ألّا تنتهي أيّام طفولتي .. ألهو وألعب في حضن أمّي .. ما زلتُ أحنّ إلى أُغنيَّة الحبّ بصوتها الحنون .. وأنا في مهدي أنصتُ إليها وأغمض العيون(*). أسترجعُ كلماتها اليوم وأفكّرُ: هل كان لأمّي صوت شجيّ بالفعل كما كانت تُردّد جَدَّتي؟ لا أذكرها يوماً وهي تهدهدني أو تغنّي. كلّ ما أذكره هو جدالها المتكرّر مع والِدَيْها في مرحلةٍ مبكّرةٍ من طفولتي كحُلْمٍ بعيد يوشك على التلاشي، وتظلّ بعدها لا تُكلّمهما لأيّامٍ وأحياناً أسابيع. كان هنالك شيء غائب في علاقتها معهما، وعلى وجه الخصوص مع والدها، ربمّا تُشبه علاقتي بها. طالما ظننتُ أنني السبب. ظلّت هنالك حلقة مفقودة من الحكاية، حتّى عرفتُها من خالي سعيد حين كبرتُ. أخبرني بأنها أرادت الزواج من زميلٍ لها في العمل، إلّا أن جَدّي رفضه رفضاً قاطِعاً. لم أعرفِ التفاصيل والأسباب، لكني تأكّدتُ بأنَّ الأمرَ لا علاقة له بي. لستُ متيقّنةً أفرحتُ بذلك أم شعرتُ بخيبةٍ منه.

أكتب. وقْع المطر في الخارج يتداخل مع نقرات لوحة المفاتيح. أظلّ أكتب وأفكّر في أوراق ماري حنّا حتّى أنام. يستمرّ المطر طوال الليل.

الورقة الثانية

انتهى شهر الصوم عند المسلمين قبل أيّام، ونحن اليوم في ثاني أيّام عيد الفطر. حضّرتُ مربّى من ثمار التُّرُنْج بمساعدة حليمة. قشّرنا فاكهتنا من الليمون والبرتقال، وقطّعنا اللبّ وخلطناه بالسكّر وماء الورد بدلاً من ماء الزهر، وزادت

---

*) ترنيمة فلبينية من كلمات الشاعر «ليفي سيليريو».

حليمة الهيل والزعفران، ففاح البيت بعبقٍ لذيذ سكّري. أشتهي هذه الأيّام أكلاتٍ غريبةً، لكن حليمة تقول إنه أمرٌ طبيعي مع الوحام. سألتني اليوم لأوّل مرّة عن معنى اسم المَشتى، المكان الذي جئتُ منه، فأخبرتُها بأنه مشتقّ من كلمة أوشتي السريانية، وتعني الأرض الكثيرة الينابيع، ثمّ عدّدتُ لها أسماء الينابيع كلّها التي أتذكّرها، نبع العروس ونبع العطشان ونبع الدّلبة ونبع الأقرع ونبع الساحلي، وأن البعض يظنّ أنه قد يكون من كلمة مشتو السريانية التي تعني النبع العذب، يعني بالمعنى نفسه تقريباً. ثمّ علّقَت بأنها ظنّت في البداية أن الاسم قد يكون مشتقّاً من الكلمة العربية الشتاء. فكّرتُ ثمّ أجبتُها بأنه يمكن أن يكون كذلك، لأنّ سكّان المناطق الجبلية المجاورة يأتون المَشتى في الشتاء، لأن المطرح يكون أدفأ وأنسب للرعي، ولا أحد يعرفُ على وجه التحديد مصدر الاسم.

هنالك أمرٌ غريب عندهم في البحرَين، فحليمة هي أخت ناصر بالرضاعة؛ لأنّ أمّ حليمة التي كانت خَادِمتَهم أرضعت ناصراً وهو صغير. أليسَ هذا غريباً؟ أنا أيضاً أرضعتني الخالة عفيفة قريبة أمّي، يعني تصير هي أمّي بالرضاعة، وابنها فيّاض يصير أخي. الحقيقة هي أنني شعرتُ دائماً بأنّ فيّاضاً هو فعلاً أخي. تملك حليمة صوتاً جميلاً، تغنّي أوّل النهار وهي تنظّف الفناء أو عندما أكون معها في المطبخ. لا أفهم كلّ ما تقوله، ولكنْ، أستنتج أنها أُغنيَّات حزينة عن الغياب والشوق والحبّ والفراق، يمكن تشتاق لزوجها. عرفتُ من ناصر أن زوجها مات شابّاً بالطاعون لمَّا انتشر، وكانت تحبّه، وما خلَّفتْ منه أولاداً. حكت أمّ جميل عن سنوات بعيدة

تفشّى فيها وباء الكوليرا في المَشتى، ومات فيها كثيرون، ونزح بعضهم إلى خارج الضيعة حتّى زال المرض.

أرجع إلى حليمة .. إنها تُذكّرني بالخالة عفيفة، التي تملكُ نَفَساً في الطبخ، ولا يُضاهيها أحد في المَشتى. قالت لي اليوم إنني سأنجبُ بنتاً لأنني أتوحّم على الأطعمة الحلوة المذاق. لاحظتُ أنني منذ أن حبلتُ وأنا آكل التمر عندهم، فهو طيّب جدّاً، وطعمه مثل التين المجفّف، ولكنّ حجمه أصغر. أوّل الموسم يسمّونه البلح أو البُسْرُ، ويكون مقرمشاً مثل التفّاح، ولكنه أقلّ حلاوة وفيه مرارةٌ خفيفة تختلف شدّتها من حبّة وأخرى، أو ربّما نوعٌ وآخر، فقد أخبرني ناصر بأن هنالك أنواعاً كثيرة منها، وعدّد لي أسماءها، لا أتذكّر منها سوى الخلاص، ولمّا تشتدّ الحرارة في الصيف يصبحُ ليّناً وشديد الحلاوة ومَلمَسه ناعماً كالقشدة، وعليه قشرة ملساء خفيفة، ثمّ يجفّف ويُكبس كما نفعل نحن بالخوخ والمِشمِش والتين، فيصير سكّرياً جافّاً، ويستخرجون منه سائلاً يُشبه العسل يسمّونه الدبس، سكّريٌّ طيب يأكلونه مع الخبز. أمّا ناصر، فيظنّ أنني حُبلى بصبيّ، لأنني أنام حتّى تطلع الشمس، كأمّه لمّا كانت حبلى به مثلما سمع من حليمة، وليس كعادتي، إذ كنتُ أفيقُ مبكّرةً كلّ يوم أوّل الفجر.

كان بيتنا في المَشتى من بيوت الشّل، جدرانها صفّان متوازيان من الحجارة، بينها فراغ يحتوي على حجارة صغيرة تسمّى الجمش، والأسقف تراب أبيض وتحته بلّان، ويرتكز على أعمدة ساموك. أمّا جدران البيت من الداخل، فتطيّن من خلطة تبن ناعم مع رَوث البقر وتراب أبيض، ونطليها بالرماد.

أفيقُ كلّ صباح على صياح الديك كوكو المزعج، فأجمع الفراش والغطاء وأضعه في فتحة اليوك ضمن الجدار، ثمّ أغسل وجهي، وأهمُّ بدخول قنّ الدجاج. أُخفضُ رأسي، وأرشُّ حَفْنَة من الحَبّ على الأرض، فيعلو نقيق الدجاج، وتنقُر بين أصابع قدمَيّ بحثاً عن حَبّ تحتها. ثمّ أغرفُ قبضات أخرى من الحَبّ وأطرحها حولي على شكل حلْقةٍ دائرية. بعدها أجمع البيض بحرصٍ، وأضعُه في سلّة قَشّ أحملها معي، وأدور على بيوت الجيران لبيعها. أحمل عصاي التي صنعها لي إلياس، نجار المَشتى، من خشب الجوز؛ لأتأكّد من خلوّ الطريق الذي أحفظه شبراً شبراً، من حصى أو أيّ شيء آخر قد أدوس عليه.

وأتركُ حبّات البيض الأخيرة للخالة عفيفة؛ لأعطيها إيّاها في طريق عودتي، فتصنع منها إفطاراً شهيّاً لي ولها. تبعد دارها خطواتٍ من دارنا، وتعيش وحدها، بعدما تركها زوجها، وهاجر إلى البرازيل أو المكسيك، فلا أحد يعرف وجهته على وجه التحديد. رحَل في يومٍ من أيّام الصيف دون أن يُخبرها أو يُخبر أحداً في الضيعة. قالت عنه أم جميل: "كان آكل شارب وعلى الحمار راكب. تحمّلته عفيفة، وبعدما ولدت فيّاضاً تركها وراح في غمضة عين". أمّا فيّاض، فانتقلَ إلى بيروت ليُكمل دراسته بعد أن حصل على شهادة السرتفيكا.

في ذلك اليوم أعدّت الخالة عفيفة بيضاً مقليّاً في سمنٍ بلدي ورشّت عليه قليلاً من الملح دون إضافة أيّ أعشابٍ أو توابل، وسخّنت أرغفة خبز، وحبّات زيتون جلَبَها قريبُها من حلب. أكلتُ بيضتَين على غير العادة، فقد كنتُ جائعةً بعد أن نمتُ

ببطنٍ خاوية. ثمّ أخذَتني معها إلى النبع، ولكني في الطريق طلبتُ منها أن تتركني أنتظرها عند شجرة الدُّلْبَة المعمَّرة، فجلستُ متّكئةً على جذعها الخشن السمين، أسمعُ حفيف أوراقها وأصوات الطيور والحيوانات والحشرات التي تعيش بين أغصانها. بعد قليل وصلَتني رائحة غامضة، ثقيلة، طيّبة، لكنها غريبة .. قد تكون خليط روائح خشب عتيق، وقَرَنْفُل، وبخور الكنيسة، ويمكن قرفة أو خزامى، لا أعرف، وسمعتُ وقع أقدامٍ بطيئة على الأوراق المتساقطة. سألَني القادم عن دار المختار، كان صوتُه رخيماً هادئاً وفصيحاً وبلهجةٍ غريبة، ومخارج حروفٍ قوية. أشرتُ له بعصاي أن يسير يميناً، وشرحتُ له الطريق بعدد خطواتها. شكَرني وراح.

بعد قليل، وصلَتني ضجّة أشخاص قادمين من بعيد. اقترب الضجيج حتّى التقطتُ صوت الخالة عفيفة مع نسوةٍ التقينَ بها على الأرجح قرب النبع. سألتهنّ عن الغريب، فأجابت إحداهنَّ بأنها سمعت عن رجلٍ جاء من الحجاز، يمكن بدويّ من الصحراء، وهو في ضيافة المختار. فهمتُ الآن سبب شراء خادمة دار المختار نصف البيض في السلّة هذا الصباح. وكانت تلك أوّل مرّة ألتقي فيها الغريب في بدايات تشرين ومطلع الخريف.

الثلاثاء 5 نيسان 1927

الورقة الثالثة

جاءت اليوم القابلة، وقالت: إنّ وضع الجنين مُطمئِنٌ، وإنني

سأنجب في نهاية الصيف. لم أخبرْها عن مخاوفي وعن أمّي وجَدَّتي وأمّها. وحتّى في مشفى مايون ويلز المخصّص للنساء والولادة الذي أخذني إليه ناصر، قالت لي الحكيمة الكلامَ نفسَه. أمّا حليمة، فلا تثقُ بعلاج المشفى وتقول بأنها تكتفي بالأدوية والعلاجات الشعبية.

وماريون ويلز تومز أوّل حكيمة في البحرَين. عالجَت الكثير من المرضى وخاصّة النساء، وكانت تركب حمارها وتطوف على البيوت لعيادة مرضاها. قدِمت الحكيمة إلى المنامة بداية القرن مع زوجها الحكيم شارون ليعملا في مشفى الإرساليّة، قادمَين من البصرة بعد أن تعلّما شيئاً من العربية، لكنها بعد خمس سنوات أصيبت بحمّى التيفوئيد، وتوفّيَت، ودُفنت في مقبرة المسيحيّين بالمنامة. أخبرَتني الممرّضة التي تعمل هناك بالقصّة الحزينة، وأنهم أسموا المشفى على اسمها. يا ربّ، ارحم أنفس موتانا. آمين.

بدأتُ أتعب، فطلبتُ من ناصر أن يتوقّف.

الجمعة 6 أيّار 1927

مقطع من الورقة الرابعة

بدأ الصيف، والحَرّ والشُّوب. ألبسُ أخفّ ما عندي، ولكن الرطوبة عالية ورائحة البحر تخنقني. أحسّ بحركات الطفل قويةً في بطني. أخذني اليوم ناصر إلى الكنيسة، وصلّيتُ للعذراء، وطلبتُ منها أن تسهّل ولادتي. قبل أيّام بكيتُ من

شدّة الحَرّ، فأخذَني ناصر إلى البحر القريب. غريبٌ صوت البحر، لم أسمعْه بهذا القرب إلّا عندما ركبتُ السفينة أوّل مرّة من ميناء البصرة. صوته مستمرّ ورتيب. مَلمَس حبّات الرمل على أقدامي غريب، والرمل هنا مختلف عن رمل قاع النهر عندنا، والماء مالح، بل شديد الملوحة.

الأحد ثمانية آب 7

29

الصورة الخامسة عشرة

البرنامج: مجموعة من الأشخاص يمشون على الطريق، ومبانٍ في الخلف.

حطَّ الحُبّ على كتفِه كحمامةٍ، وهو خائفٌ أن تطير في أيّ لحظة. هكذا كان يشعر عليّ في الأيّام التي تلت زيارة عيال الطوّاش. لم يحِنْ يوم الخميس، موعدُ لقائه المعتاد مع سارة، ولم يعرف ما دار بينهم. وفي يوم الاثنَين كان يقود سيّارة الفورد الزرقاء، نحو منطقة رأس الرمّان، واشترى تذكرة العبور، ومنها انطلقَ نحو جسر الشيخ حمد، ليوصل العمّ ناصر إلى المحرّق. سلَّم التذكرة إلى جابي التذاكر في الغُرفة عند مدخل الجسر، وجاهد بأن يُشغل عقله بأيّ طريقةٍ؛ لينسى. فكَّر في الأعوام التي استغرقَها بناء الجسر، والرِّجال الذين تناوبوا على رصفه بالحجارة، وكمّيات الحديد المستوردة، والحرب التي أخَّرت إنجازه، وأخيراً اكتماله واختصاره رحلة بحرية شاقّة للعبور بين الجزيرتَين. ثمّ خطر له أن الجوّ اليوم خانقٌ وشديد الحرارة والرطوبة مع أنَّ الصيف في بدايته، وأنّ لون البحر تحتهم يُضاهي لون السيّارة، وأنه سمكة عومة ضئيلة بين هوامير عائلة الطوّاش. ثمّ تخيّل نفسه هاموراً، لمَ لا؟! بل قِرشاً أو حوتاً عملاقاً وسط الهوامير، يهابه الجميع ويحترمونه.

محال! فها هو اليوم يذهب مع والدها الهامور؛ ليزور بقية الهوامير، وفكَّر كيف ظنَّ للحظة أنه مثلهم؟ هل لأنه أكل معهم، ولبسَ مثلهم، وقرأ الكُتُب وحفظ الأشعار، ورطن بالإنجليزية، صار منهم أم أنه منذ أن قاد هذه السيّارة، واعتاد رؤية نظرات الإعجاب في أعينُ المارّة، وانبهار الأطفال

الحفاة وتحلّقهم عند مروره في الطُّرُقات، نسي نفسه ومَنْ يكون، وصدَّق تلك النظرات التي يعرفها جيّداً في أعينهم؟!

في لحظاتٍ من حياته، وعند شجرة البَمْبر في البيت الكبير، تلاشت تلك الفوارق كلّها، ولكنه اليوم يشعر بأنه صار كثمارها الفائضة في نهاية الموسم، التي تسقُطُ أرضاً وتفسد، فيقذفها الأطفال على الجدران. تنبّه لصوت ناصر بن سالم وهو يأمره أن يركنَ السيّارة قرب بيت أخيه الأكبر، وينتظره في مقهى بوخلف حتّى يرسل في طلبه، كأيّ شخصٍ يعمل لديه. كان المكان خالياً من الزبائن في تلك الظهيرة القائظة حين دخلها. طلَب من الصبي أن يُحضِر له شراب ناملیت، لعلّه يُخفف من توتّره وحرارة الجوّ، ثمّ غرقَ في أفكاره. **مكتبة سَر من قرأ**

عرف لاحقاً أن ناصراً بن سالم ذهب إلى أخيه الأكبر ليُخبره بموافقته وبموعد الخطبة. "وماذا عن البنت؟ وافقت؟ مستحيل ..! كيف تتزوّج دون موافقتها"؟! صاح عندما أخبره الحجّي بذلك. حدقَّ الشيخ في عينَي الشابّ الغاضب مباشرة، وهزَّه من كتفه: "اسمع يا عليّ .. لازم تنساها .. هذا ولد عمّها .. حفيد الطوَّاشين .. فهمت"؟ احمرّت أُذُنا الشابّ، وتمتم بانكسار: "يا ليت أقدر، يا ليت". "خلاص انساها". قال جملته الأخيرة بحزمٍ وسكتَ.

يوم الخميس، انتظرها ككلّ أسبوع عند النافذة الخلفية لبيتهم. وحين طال انتظاره خرجت حليمة تخفي نصف وجهها، حيَّتهُ بعجلةٍ وفتور على غير عهدها، ثمّ قالت دون أيّ مقدّمات: "الزواج قسمة ونصيب". ظلّ واجماً لبرهة، ينظرُ نحوها بذهول. ازدرد ريقه بصعوبة ومسحَ جبهته المتعرّقة بكُمِّ ثوبه، وتراجع. سمعها تقول: "إنتَ بخير"؟ أراد أن يصرخَ بأنه ليسَ بخير، وأنه مجرّد عومة مهما حاولَ أن يكبر ويجمع الأموال، وأنه يكره الطوَّاويش،

والهوامير، والأثرياء، يكرههم ويكرهها، ويكره نفسه أكثر؛ لأنه صدَّق نفسه، وتوهّم بأنه صار من طبقتهم. لكنه ظلّ واجماً، كجذع شجرة يابسة. ثمّ لمَحها بين الأعمدة الحديدية للنافذة، واقفةً وراء حليمة. نادته. اشرأبَّ نحوها. التفتت حليمة إلى الوراء، وما إن رأتها حتّى أسرعَت وأغلقت باب النافذة في وجهه. تراجع دون أنْ يحيد نظره عن الأعمدة الحديدية، والباب الخشبي للنافذة.

هرع راكضاً. تجاوز مسجد الفاضل، والمئذنة العالية، والبيوت، والبشر، والدوابّ، والطيور، والأحلام، والآمال، والأحاديث، والضَّحكات، والهمسات، حتّى وصل إلى البحر. خلَع ثوبه، وألقى بجسمه في الماء. غمَرته الأمواج، والمياه، والملوحة، والشمس. صاح بأعلى صوته وبكى. لم يسمعْه أحد سوى البحر والسماء. سبَح إلى أقصى ما استطاع، حتّى غدا الساحل خطّاً أفقياً، وذاب جسمه وصوته وحُلْمه في الزرقة اللامتناهية.

30

الصورة السادسة عشرة

البرنامج: على الأرجح مجموعة رجال يركبون قارباً في مسطّح مائي، وخلفهم برج طويل.

انتظرَه بعد صلاة التراويح خارج المسجد. ما إن رآه حتّى سار نحوه، وقال: "عمّي، أريد أن أكلّمكَ في موضوع". سحبه ناصر بن سالم من يده، وطلب منه أن يتسحّر معه، وبعدها يُحدّثه في الأمر:

- سحورنا اليوم بلاليط.

- بلاليط؟ لكنه مخلّص من السوق.

- شغل حليمة .. تعرف أني أحبّه .. وصَّت مرزوق فطحَن القمح بالرحى، وبعدين غربلَته وعجَنته ورشَّت عليه كركم .. حطّت العجينة في مشخال وضغَطَت عليه فنزل على شكل خيوط رفيعة جفّفتها في الشمس.

تذوّق عليّ البلاليط بعد فترة انقطاع طويلة من السوق، ثمّ بدأ الحديث:

- سمعتك عمّي قبل يومَين تدوّر على نوخذة يروح البصرة.

- إيه .. نحتاج تمور.

- أريد أروح معهم ..

- بس ما عندك خبرة، وما رحت البصرة من قبل.

- أتعلَّم.

- الرحلات قليلة والبحر ما له أمان.

- بس الطريق إلى البصرة ما يمرّ عند هرمز وبحر العرب.

راجع العمّ ناصر كلام الشابّ في ذهنه، إن ذهب وعاد بالبضاعة فسوف يُطعم الجياع ويملأ المخازن، ويُدرّ عليه ربحاً جيّداً، وسوف يتعلّم ويكتسب خبرةً. في تلك اللحظة لم يعرف الشابّ أنه أعاد العمّ ناصر إلى الوراء نحو عشرين سنة، عندما غمره إحساس غريب وقويّ كشلالٍ دفعه دفعاً لترك كلّ شيء ليسافر. كان يمتلك كلّ ما يحلم به أيّ رجل في عمره: الشباب، والوسامة، والمال، وزوجة جميلة ذات حسب ونسب، وتوأماً بنتاً وولداً، ملؤوا بيته الواسع. لم ينقصه شيء، ولكنْ، وصل إلى المنامة وباءٌ عن طريق السفن والمحامل، ومات نفرٌ كثير منهم زوجته وابنه وابنته وزوج حليمة. امتلأ رأسه بالأسى حتّى صار أثقل من أن يتحمّله. زهد في كلّ شيء، وتركَ المحلّ وكلّ ما يملكه في يدَي الحجّي، وولّى وجهه شطر بيت الله بمكّة، ومنها ارتحل شَمالاً مع عُصبةٍ من حجّاجٍ راجعين إلى الشام. كانت رحلة مرهِقة وطويلة، لكنه تخفّف شيئاً فشيئاً من ثقل رأسه، وأبصرَ العالمَ بزاويةٍ أخرى وقلبٍ أكثر انفتاحاً. عادَ شخصاً مختلفاً بعد هذه الرحلة، لا يُشبه ناصر ابن الطواش المدلّل.

وعده العمّ ناصر قائلاً:

- سأكلّم النواخذة، وإذا تيسّرت الأمور تسافر مع حسين، لأنه راح البصرة أكثر من مرّة.

قبل أن يغادر، ألقى نظرةً سريعة على ظلال شجرة البَمْبر في الظلام، الخاوية من أزهارها وثمارها، والممتلئة بذاكرتها.

31

الصورة السادسة عشرة

البرنامج:

مجموعة من الناس يمشون قرب طريق بأشجار نخيل.

- بنت الطوّاش مرّة واحدة! انهبلت!

صاح عزيز لمّا أخبرهم عليّ بقصّته وسفره المفاجئ. أشاح عليّ وجهه صامتاً، ثمّ قال:

- هذا قلب، يا عزيز.

- لكنْ، بنت المعزّب ما غيرها .. إنتَ صاحي؟

حدَج مطر عزيزاً بنظرةٍ ثاقبةٍ ليتوقّف، وحاول أن يُغيّر الموضوع، فسأل عليّ:

- متى رحلتكم؟

- ننتظر النوخذة، يمكن خلال أيّام.

نفثَ عزيز سيجارته. زمَّ شفتَيه الداكنتَين، وأغمضَ عينَيه، وسرحَ بعيداً. جرَّب شعور عليّ ويعرفه جيّداً. كانت ابنة جارهم حُبَّ طفولته وفي الوقت نفسه أخت زوجة أخيه. لا شيء كان يحول بين زواجهما الذي ترقَّبه الجميع. كان على وشك أنْ يخطبها رسمياً، إلّا أنّ كلّ شيءٍ تغيَّر بوفاة أخيه بعد صراع مع مرضٍ لم يُمهله طويلاً. اضطرّ بعدها أن يتزوّج أختها، أرملة أخيه، بعد توسّلات أمّه المكلومة. رضَخ لها مُكرهاً، فتغيّرت حياته. كان يذهب إلى عمَله في جبل الدخان مع بدء التنقيب عن النفط، ويحفر مع العُمّال

بين الزواحف والعقارب ورائحة البترول وتحت الشمس الحارقة، وفي آخر النهار يتحلّق حوله العُمّال المُنهكون، فيعزفُ على عوده، جاهداً أن ينسى. يأخذهم صوته وصوت أوتار عوده وأدخنة سجائرهم الرخيصة إلى عوالم أخرى لا تُشبه عالمهم، بل تُحلّق أحلامهم إلى حدود السماء. أمّا في الليل، فيضعُ رأسه ويهمد جسمه المُتعب حتّى طلوع الفجر. كان هذا الروتين اليومي المنهِك بصورةٍ ما يريحه ويساعده على طرد أفكاره، فجسمه المُجهد لا يُمهل عقلَه ليفكّر ولا قلبه ليحنّ. يظلُّ هكذا أسبوعَين متواصلَين، لا تتخلّلهما أيّ مساحة أو فراغ ليفكّر، فينفصلُ عن حياته. وعندما يعود إلى المحرّق يصطدم بواقعه، ويُكمل حياته الأخرى. ها هو ذا بعد هذه الأعوام كلّها لم يتمكّن من النسيان. كلّما ذُكر اسمها ينتفضُ قلبه، وترتعشُ شفتاه، ويتحسَّر على أعوامه التي تمضي سريعاً من دونها.

أخرج عزيز عوده، أسنده إلى قدَمه اليمنى، واحتضنه كرضيع وُلد للتوّ. مال برأسه ناحية اليسار قليلاً، وضربت أصابعه اليمنى الأوتار، فانساب اللحن كنهرٍ جرف عليّاً إلى ذاكرته مذ كان صغيراً. مرَّت أمامه مشاهد من حياته، منذ انغماس أقدامه الحافية تحت رمال السِّيف، وأصابعه الصغيرة تعبث بأساور أمّه فيصدرُ منها رنينٌ محبّب، وارتشافه الشاي الحلو من صحن استكانة أبيه، مناكفاته مع عبُّود، والليالي التي قضاها تحتَ إنارة السِّراج يُراجع حسابات محلّ خاله، والمرّات القليلة التي لمَح فيها لطيفة، واندماجه في رطانة الأجانب وهدير المحرّكات في بابكو، واستمتاعه بحفيف أوراق شجرة البَمْبر وظلالها تحت قدمَيه، والكُتُب التي يقرؤها في مكتبة التاجر، واختلاسه سماع حوارات المثقّفين، وباب النافذة الخشبي الذي يُفتح عصر كلّ خميس، حتّى هذا اليوم، وترقّبه رحلته المُقبلة. ثمّ صدحَ صوت عزيز بكلمات أُغنيَّة محمّد بن زويّد: جسدٌ ناحلٌ وقلبٌ جريحُ، ودموعٌ على الخدودِ تسيحُ .. وحبيبٌ مُرّ التجنّي، ولكنْ، كلّ ما يفعل المليحُ مليحُ. أربكَته تلك الكلمات، وأحسَّ بأنّ قلبه عودٌ بلا وترٍ ولا صوتٍ

ولا نغم، واتّسعت مساحة الأسى في روحه. همسَ عزيزٌ في أُذُنه: "الزمن ينسينا، يا عليّ". ابتسمَ عليّ الذي يُدرك أن لا أحد يُمكنه الاقتراب من روحه مثل عزيز، على رغم قسوته أحياناً. قبل حلول الظلام افترق الرفاق على أمل لقاءٍ بعد عودته من البصرة.

تأخَّرت رحلة عليّ حتّى ظنَّ أنها لن تأتي أبداً، ولكنْ، بعد مرور خمسة أيّام من العيد أرسل العمّ ناصر مَنْ يُخبره بأن يستعدّ للسفر في الغد، وينتظرَ حسين عند الفرضة فَجراً ليُسافرا معاً. وفي صباح اليوم التالي كان على سفينة بوم سفَّارة في بحر الخليج العربي، بعد أن ابتعدت المنامة عن ناظرَيه، ورحل من دون رفقة حسين، الذي أرسل أحدهم وأخبره بأنه لن يتمكّن من السفر؛ لأنّ والدَه تُوفيّ ليلة أمس، لكنّ عليّاً حسم أمره ورحل من دونه. كان راغباً في الرحيل بشدّة، وخائفاً ألّا تتكرّر الفرصة مع أوضاع الحرب المضطرِبة.

انغمسَ أمام الأزرق في ذاكرته، وراقب الشمس وهي تستعدّ للغروب، وهو يقضم قطعة خبز جافّة، يُسكت بها جوع معدته. استرجع صباحات أيّام الجُمع حين توقظه رائحة الخبز الطازج، فيهرع نحو أمّه الجالسة قرب التنُّور المشتعل بالجمر، على كرسي خشبي منخفض، وتذرّ حبّات من المثيبة على أقراص العجين. كان يراقبها وهي تخبز الأقراص وينتظر أن تقتلع الحبّات الناضجة بالمحماس، وتضعها في صينية، ثمّ تذرّ عليها السمن. عندها يتسابق هو وعبُّود إلى أخذ الأقراص التي تتقافز بين أيديهما مِن سخونتها. أحسَّ بخشونة ومرارة اللقمة التي كان يبتلعها في تلك اللحظة.

مرَّت الأيّام ببطء إلى أن رسَت السفينة ذات فَجر قرب ميناء البصرة الذي كان مجهّزاً برصيفٍ لرسوّ السفن وإنزال الحمولة والبضائع مباشرة إلى اليابسة دون الحاجة إلى قوارب كما في المنامة ودبي. تبعَ عليّ بقية المسافرين، وشقّ طريقه نحو المدينة. استوقفته أشجار نخيل باسقة على

ضفاف شطّ العرب، تمازج انعكاسها انعكاساً بديعاً مع الأزرق، حتّى وصل إلى جدول العشّار المتفرّع عن شطّ العرب. شاهد القوارب الهلالية المحمّلة بالناس والبضائع بين ضفّتَيها، فذكّرته بقوارب العبرة في خور دبي. مرَّ قرب نسوة يملأنَ الجِرار بماء الجدول، ويحملنها على رؤوسهنّ، وبأخريات يغسلنَ الثياب، وأطفالهنّ يلعبون حولهنّ.

سأل بعض المارّة عن الخانات، حتّى اتّجه نحو أحدها على ضفّة النهر، فوجده يتألّف من طابق أرضي يحتوي على مكاتب تجارية ومخازن بضائع مستوردة، وطابق علوي هو مسافرخانة، فاستأجر إحدى غرفها. سار بعد استراحة قصيرة إلى منطقة العشّار، ومنها إلى ساحة ممتدّة طويلة مزدحمة، تراصّت على جانبَيها محالّ ودكاكين، ووجد بينها مقهى التجّار. اتّخذ له مكاناً على إحدى الأرائك الخشبية الفسيحة المرتفعة والمفروشة بحصيرٍ أو بما يسمّونه التخوت. طلب شاياً من الجايجي، وسأله عن تاجر التمور الشهير أبي جابر، فأخبره بأنه سيأتي قريباً، وأشار إلى تختٍ محجوز له.

دُهِشَ عليّ من مهارة الرجل في حمل الاستكانات، وصار يتأمّله وهو يطوف بحرّية بين التخوت حاملاً استكانات الشاي للزبائن دون أن تنسكب، وشرب ألذّ شاي أحمر شربه في حياته، أو كما يسمّونه: الشاي المخدّر، على حين يصدح الفونوغراف بمقامات وبستات عراقية لمحمّد القبنجي. عند الاستكانة الثانية أقبل رجل يرافقه اثنان يصغرانه سنّاً، سلَّم على الحضور بصوتٍ مرحٍ قوي، وجلَس على التخت المحجوز. وعندها أقبل النادل نحوه ولكزه: «هذا الحاجّ أبو جابر».

اتّجه بعد لحظاتٍ نحوه، وأخبره بأنه من طرف التاجر البحريني ناصر بن سالم، فبشَّ الرجل، وقام وحيّاه، طالباً منه الجلوس. سأله عن العمّ ناصر وصحّته والبحرَين وأوضاع الحرب عندهم. أجابه عليّ، ثمّ أخبره عن حاجته إلى شراء تمور لمصلحة العمّ ناصر وشحنِها إلى البحرَين. سأله التاجر:

- كم حلاّنة تريد؟

ما عرف عليّ أن يُجيبه، لأن حُسيناً هو من يعرِف هذي التفاصيل. تردّد قليلاً ثمّ قال:

- مثل آخر مرّة.

- ما عندنا تمور كفاية، استهلكوها العساكر، والأسعار زادت، بس أحاول أدبّر لك، يمكن أقلّ من ربع كمّية آخر مرّة.

- بس مخازننا خالية.

- بكرة أشوف أصحابي الملاّكة، ما الأنواع التي تريدونها؟

- الزهدي أو أيّ نوع آخر يكون سعره مناسباً.

فكّر الرجل قليلاً، ثمّ وعده بأنه سيأخذه غداً إلى بساتين أبو الخصيب، لعلّه يظفر ببيعة مناسبة.

توجّه بعد ذلك إلى سوق تعبق منها روائح الكاري والتوابل والبخور، ويتجوّل فيه جنود الحلفاء بملابسهم العسكرية والتجّار الهنود. كانت السوق مملوءة بمحالّ الحلاقة والتحف والبهارات والخياطة، وعرف لاحقاً أن اسمه سوق الهنود. ابتاع أرزاً طُبِخ مع بهارات هندية من أحد الأكشاك، وأكَل بشهية، ثمّ عاد إلى المسافرخانة استعداداً لصباح الغد.

كان يتمشّى في صباح اليوم التالي مع أبي جابر في الطريق الرملي تحت ظلال النخيل وأشجار العنب والتين والرمّان. بدت له بساتين النخيل على مَدّ البصر، كأنها بستان واحد لا تفصلها حواجز، والفلاّحون منتشرون بين الأشجار يعتنون بأشجارهم كما أطفالهم. سأله عليّ عن سبب تسمية المنطقة: أبو الخصيب. أجابه:

- جاء إلى المنطقة قائد اسمه أبو الخصيب زمن الخليفة المنصور، ولمّا استقرّ فيها، حفر النهر وسمّوه باسمه حسب الأعراف عندنا.

- آه، ظننتُ لخصوبة تربتها.

علَّق عليّ، وأكمل سيره مع مرافقه على أحد الجسور، وهو يتأمّل انتقال القوارب بين ضفّتَيها وانعكاس أشجار النخيل في مياه الجدول تحتهما. استرسل أبو جابر:

- لو كنتَ هنا في تموز، أيّام موسم الثمرة لمّا نفتح الجرايق، كنت تشوف زحمة الفلّاحين والملّاكة والعمّال من الناصرية والعمارة والأحواز، حتّى البحَّارة والتجّار من عندكم.

أكملا سيرهما حتّى التقيا بعبد الكريم، أحد أبناء ملّاك البساتين، وبعد نقاش وحوار استطاع الظفر بكمّية من تمور الزهدي الأرخص ثمناً، وبعضٍ من الساير والحلاوي والخضراوي. وظلَّ طوال اليوم يلتقي ملّاك البساتين حتّى استطاع أن يشتري كمّية جيّدة من التمور. عاد آخر النهار إلى غرفته في المسافرخانة مُتعَباً، لكنْ، سعيداً، لا يفارق لسانَه مذاقُ حلاوة نهر خوز المصنوعة من دبس التمر والسِّمسِم.

تابع عليّ في الأيّام التالية نقل التمور إلى القوارب النهرية، ومنها إلى الميناء، ثمّ على متن البوم. أمّا يومه ما قبل الأخير، فاستغلّه لرؤية المدينة، حيث سار في الطُّرُقات حاملاً كاميرته وصوَّر الشناشيل الخشبية في البيوت المَبنيّة من الطوب والمطلَّة على النهر، وقباب المدينة ومآذنها الفيروزية، ونسوة يحملنَ على رؤوسهنّ قدوراً متتالية كجذوع نخيل باسقات. مرَّ بصرافين يهود يبيعون ويشترون العملات، وصاغة من الصابئة ينقشون مصوغاتهم بمهارة عالية، وقساوسة يلبسون الأسود والأحمر ويتدلّى الصليب على صدورهم. تذوَّق القيمر الذي ابتاعه من

نسوة بجلاليبهنّ السوداء، ولم يقاوم شراء سميط من بائع يحمل حلقات هذا الخبز بالسِّمسِم في قطعة خشبية، وهذَّب شَعره عند حلّاق متجوّل بعدّته الكاملة على طرف الطريق، وشاهد دورياتٍ لجنود الإنجليز، وسكّة حديد تصل إلى بغداد.

قضى آخر النهار في المكتبة الأهلية المحاذية لنهر العشّار التي اكتشفها مصادفةً عندما لمحَ شاعراً يجلس على رُزَم صُحُفٍ قرب عتبتها، ويُدوّن في ورقةٍ أبيات شِعر ويقرؤها بتجلٍّ وبصوتٍ مسموع، والتقى بصاحبها الكُتبي فيصل حمود، واستمع عنده إلى إذاعة بغداد وقصر الزهور، واشترى منه مجلّاتٍ وصُحُفاً بأسعارٍ مناسبة.

عاد مساءً إلى غرفته منهكاً بعدما ظفر بعدد خاصّ من مجلّة الهلال لشهر مارس وأبريل كُتب على غلافها: زعيما الديمقراطية تشرتشل - روزفلت، ومجلّة الرسالة، وقد نُشر على صفحتها الأولى مقالة لعبّاس محمود العقّاد، وجريدة الثغر التي تصدر من البصرة. تصفّحها سريعاً، ثمّ وضعها جانباً قرب فيلم صور البصرة غير المعالَج، إذ داهمه التعب والنعاس.

فتح عينَيه صباح اليوم التالي بصعوبةٍ، على نورٍ يعُمّ المكان. كان رأسُه ثقيلاً كمعدِن، وسرت قشعريرة في أنحاء جسمه. احتاجَ إلى لحظاتٍ ليكتشفَ أن الشمس طلعت، وتذكَّر السفينة ورحلتَه. لم يكن جسمه على طبيعته، لكأنّ أحدهم دعسَ عليه ليلة البارحة، غير أنّ عليه التحرّك بأسرع وقت، وإلّا غادرت السفينة. قام وفكّر سريعاً بالأشياء التي عليه أن يُنجزها.

حمل أمتعته، ونزل إلى الخان. سلَّم مفتاح الغرفة وأُجْرته. هُرِعَ نحو إحدى العربات. صاح بالحوذيّ ليأخذه إلى الميناء. توسَّل إليه: "أرجوكَ، يا عربنجي، بسرعة .. متأخّر على الرحلة". تمسَّك بطرف العربة الخشبية التي ابتعدت سريعاً. كان الحوذي الذي يعتمر الجراوية يضربُ بسوطه

الحصانَين إذا خفّفا من سرعتَيهما. كان عليٌّ يلهث وكأنه هو الذي يركض. تمكّن من رؤية الميناء بعد فترة مِن بعيد. كان قلبه يدقّ بشدّة، ويده متشبّثة بالعربة، وعقله لا يقوى على التفكير. انعطفت العربة يساراً. صاح الحوذيُّ: "وصلنا". راغَ بنظره الواجل بين البواخر والسفن. لمحها. ما زالت راسيةً. لهثَ: "وقِّف .. وقِّف". قفز حاملاً متاعه. تذكّر أنّه ترك المجلّات والفيلم في غرفة الخان، ولكنْ، لا يُمكنه الرجوع. شكر الحوذي. أعطاه أجرته. ركضَ نحو السفينة ملوّحاً لبحّارتها يُعلمهم بقدومه. صعد على متنها، واتّكأ على أقرب حاقّة. زفرَ براحة. رُفعت الأشرعة. ودَّع سماءَ البصرةِ الصافيةَ ببصره، قبل أن يُطبق جفنَيه من التعب.

فتح عينَيه، على مرأى جموع الركّاب من المغادرين والقادمين، وسمعهم يقولون إن السفينة رست في ميناء الكويت. قامَ بصعوبةٍ، وشاهد الأعلام الحمراء ترفرف من بعيد عند فرضة الكويت، ورآه لأوّل مرّة. حيَّاه: "أنا مشاري من الكويت". فأجابه: "وأنا عليّ من دبي .. لا .. البحرَين .. أنا ..". ثمّ أسدرَت بصرَه الأعلام الحمراء واختلطت ملامحه وملامح الشابّ حتّى اختفى كلّ شيء تماماً.

كان مستلقياً على ظهره ووجهه إلى السماء الحالكة. رأى في حُلمه أباه يُقْبِل نحوه بعد أن نزل من إحدى العَبرات قرب مرسى منطقة الرَّاس. تفرَّس في وجهه الذي ازداد شباباً ونضارة، كأنه لم يمت منذ سنين طويلة. خشي أن يسأله عن سبب اختفائه تلك الأعوام كلّها، وخجل أن يخبره بأنه ظنّه ميتاً. جاراه وسار معه حتّى بيتهم القديم. لم يجدا البيت ولا أمّه ولا عبُّود. لم يبدُ على أبيه الاستغراب، بل وقف أمام شجرة السِّدر، كان والده في الحُلم طويلاً، أطول من السِّدرة. ثمّ قطفَ ثمرة نَبْق خضراء عملاقة، وقدّمها لعليٍّ. فتحَ عينَيه، فغشيَهما ضوءٌ باهرٌ، ورأى أشخاصاً حوله لم يتبيَّنْ ملامحَهم، لكنْ، سرعان ما أغلقهما وغاب في سباتٍ عميق. رأى هذه المرّة عبُّود طفلاً، يفلتُ من يدَيه، ويركض نحو نار مشتعلة، ويضحك حتّى

ضاقت عيناه الصغيرتان، تبعه عليّ صائحاً بأعلى صوته طالباً منه الرجوع، لكنّ عبُّوداً استمرّ في ركضه، وفي لحظة اختفى. فتح عينَيه. كان جسمه ينتفض، وبرودةٌ غريبةٌ تجتاحه، وعَرَقٌ باردٌ يسيل من مسامّه، وخرقةٌ مبلولة على جبينه. كانت الوجوه شاخصةً نحوه، وهمهماتٌ كثيرة حوله: عنده سخونة .. الله يعينه .. ما تنزل حرارته .. مسكين .. يمكن ملاريا .. ما معه أحد. ظهر بينهم مشاري، سمعه بوضوح، كأنَّ صوته في أُذُنه: "أنت قوي، يا عليّ، ما عليك منهم، لا تستسلم". أراد أن يطلب ماءً، ولكنْ، لسببٍ ما لم يستطِع. سمع مشاري يكرّر: "أنت قوي، لا تستسلم". حاول أن يطلب ماءً مرّة أخرى، فسمع نفسه يهذي بكلماتٍ خرقاء لا معنى لها. ثمّ غرقَ في النوم مرّة أخرى، ورأى أمّه وزوجها يمزّقان صوره كلّها، وهو يشاركهما تمزيقها، ويبكي، ثمّ أبصر جاسماً وإخوته يضحكون عليه بصوتٍ عالٍ، ويردّدون: "العكّاس، العكّاس". فتح عينَيه فرأى نجوماً تتألّق في السماء وسكوناً موحشاً. حرَّك رأسه بقدر ما استطاع، وبحثَ عن مشاري أو عن أيّ شخص آخر، فلم يجد أحداً. خشي أن يكون مصيره كذلك الغوَّاص الذي أُلقِي بجسده في البحر. دمعت عيناه حتّى سالتا إلى جانبَي منابت شَعره، وقبل أن تجفّا استسلم ونام. رأى سارة ترمي عليه ثمار البَمْبر وهو كجدار أصمّ لا يتحرّك ولا يتكلّم، ثمّ اختفَت، وظهر يوسف الأمريكي بلحية طويلة بيضاء تصل إلى الأرض، فناداه بأعلى صوته، إلّا أنه لم يلتفت نحوه، ثمّ اختفى، رأى مطراً يحمل عود عزيز، يعزف ويبكي، ثمّ وجد أمامه ميزاناً نحاسيّاً كفَّتاه مثقلتان بمصوغات ذهبية، فبحث بينها عن أساور أمّه، ولكنه وجد نفسه فجأة في كومة ليرات ذهبية. فتح عينَيه، فسطع قرص الشمس عليهما. رفع ذراعه اليمنى بحركةٍ سريعةٍ، وغطّاهما. كان يتنفّسُ بصعوبةٍ وذراعُه ترتفع وتنخفض على وجهه.

بعد قليل سمعَ أحدهم يناديه. سحبَ ذراعه عن وجهه ببطءٍ، فرأى وجه شابّ يقاربه العمر فوقه تماماً، ويضع باطنَ كفّه على جبينه: "راحت

السخونة، كانت البرداء، الحمّى الملارية». «مَن أنتَ»؟ «نسيتني؟ أنا مشاري». تفرَّس في ملامح الشابّ، عيناه واسعتان، يعلوهما حاجبان كثيفان متباعدان، أنفه طويل مع انحناءٍ طفيفٍ في أرنبته، جبهته ضيّقة أعلى يمينها أثر جرحٍ قديمٍ رأى مثلَها من قبلُ، وبشرته قمحيّة. أحسَّ بأنه يعرفُ هذه الملامح جيّداً. تمتم عليّ: «أريد ماءً». مسحَ العَرَق عن وجهه، ثمّ ارتشفَ الماء من قربته ومضغَ حبّات من التمر. استعادَ بعدها شيئاً من نشاطه، ثمّ عاد إلى النوم.

ظلّ كذلك يراوح بين شرب الماء وأكل التمر، إلى أن نَقِهَ، واستعاد شيئاً من صحّتِه في أثناء اقتراب السفينة من جُزر البحرَين. اغتسلَ في يومه الأخير بعد طلوع الفجر، وتمسّكَ بالحبل المعلّق على طرف السفينة، وغمرَ بدنه ووجهه في مياه البحر. رفعَ رأسه وأشبع عينَيه بالأزرق من حوله، وبنور الشمس المطلّة بحياءٍ من الأُفق. تعجّب كيف يمكن لهذه الملوحة أن تنقّي مسامّاته من كلّ شيء، وتنزح العطب والعطن من أعماقه، وتزيل رواسب السقم من بدنه. أحسَّ بروحه طليقةً خفيفةً، كذلك النورس المحلّق آتياً من اليابسة، وكأنّه وُلد من جديدٍ.

لمّا وطئ أرض الفرضة وجد الحجّي وحُسيناً في استقباله، فبشَّ لهما، على الرغْم من إرهاقه. عانقه الحجّي، وقال مهلّلاً: «من طوَّل الغيبات جاب الغنائم». علت ابتسامةٌ وجهَ عليّ، ثمّ التفتَ حوله، كأنه تذكّر فجأةً: «مشاري». بحثَ عنه بين القادمين، فلم يجده، ثمّ صاح مردّداً اسمه. دار في الفُرضة متفحّصاً الوجوه والسَّحنات، ولغرابة الأمر لم يكن مشاري بينهم. سحبه الحجّي من ذراعه: «تعال، يا ولدي، نروح». «بس أسلّم على مشاري وأشكره». سأل عنه بحَّاراً مرَّ قربهم، فأجابه: «ما أذكر مسافراً اسمه مشاري، لكنكَ هذيت بهذا الاسم أكثر من مرّة». امتقع وجه عليّ وشخَّص بصره بين الوجوه مرّة أخرى قائلاً: «كان معنا في الرحلة، كلّمني وكلّمته.» أخذه الحجّي من يده كطفل: «إنتَ تعبان، يا ولدي .. تعال وأخبرني عن

الرحلة»؟ تبعه عليّ يخبره بأنواع التمور التي حملها معه، والمصاعب التي صادفته للحصول عليها. وقبل أن يغادرا شيَّع المكان للمرّة الأخيرة بنظراته، لعلّه يلمح مشاري، وحاول أن يتذكّر متى رآه آخرَ مرّة على السفينة.

مُلِئَتِ المخازنُ بالتّمور مجدّداً، وبِيعت بالقسط على المشترين، ووُزّع قَدرٌ منها على المحتاجين. وفي الوقت نفسه اشترى ناصر بن سالم بستان تمرٍ في ضاحية النعيم، وشغَّل فيه مزارعين محلّيين.

عرف أنها تزوّجت في غيابه، وانتقلت إلى المحرّق. احتال على ذاكرته لينساها، لكنّ الحنينَ ظلّ يأخذه عصرَ كلّ خميسٍ إلى بيتها، فيحوم كفأرٍ قُرب النافذة الخشبية المطلّة على الزِّقاق الخلفيِّ، ويترقّبُ أيّ حركةٍ قد تشي بوجودها، أو تأخذه قدماه قرب مدرسة البنات، على الرغم من معرفته بأنها في بيت زوجها بالمحرّق، حتّى مرَّت الأيّام، وفَقَدَ أيّ أملٍ في وَصْلِها.

في أحد المساءات، بينما كان عائداً إلى البيت مع الحجّي طلب منه يدَ فطّوم. أبطأ الحجّي سيره، ولم يُجبه. جاراه عليّ وهو يحدّق في انعكاسات نور السِّراج أمامه، حتّى وصلا أمام البيت. قبل أنْ يودّعه، قال الحجّي: «تأخّرتَ، يا ولدي، الزواج قسمة ونصيب». لم يُعلّق عليّ، وولج مسكنَه بهدوءٍ.

تزوّجت فطوم في ليلةٍ من ليالي الشتاء التي اشتدَّ فيها البرد والجوع. طلبها أحد أقرباء أبيها من الخُبر، وهو يعمل في أرامكو. وعلى الرغم من الأوضاع الاقتصادية السيّئة إلّا أنّ أهلَ الحيّ قرّروا الاحتفال. ابتاع الحجّي من إحدى القرى قماشاً محلّياً أخضر للعروس من صنع نسَّاجيها، وتناوبت النسوة على خياطته وتطريزه. وفي يوم العرس صدح المكان بدقّات الدفوف، والغناء: «بالعافية يا فطّوم بالعافية، يا درة البحرَين يا الوافية .. نذرٍ عليّه واشهدوا يا حضور، لقسّم الحلوى وأنا الوافية .. نذرٍ عليه واشهدوا يا حضور، لقسم المشموم وأنا الوافية».

لم تنسَه زوجة الحجّي، وأرسلت إليه من جريش العرس المُطيّب بالبصل والبهارات الذي تعاونت النسوة على إعداده، بعد أن اجتمعنَ لتنظيفه من الشوائب أيّاماً متتالية. وهكذا انتقلَت فطُّوم في ليلةٍ من ليالي الجمعة إلى بيت زوجها في الخُبر، بعد أن بثَّت نسمة فرح على أهل الحي. في نهاية اليوم علت وجهَ الحجّي ابتسامةٌ لم يرَ مثلها منذ فترة، وهو يردّد:

«وارتحت من هَمّ اليتيمة، أقدر أموت وأنا مرتاح».

استمرّت تلك الحرب البعيدة، وخلت في أثنائها المستودعات من الأسمنت والأخشاب، وازدادت عمليات التهريب، والسرقات، وشحَّ الغذاء والدواء، وكذلك الورق، إذ طُبعت صحيفة البحرَين على أوراق خضراء وبنفسجية على غير المعتاد. أحسَّ عليّ بأنَّ حالته تُشبه حالة تلك الصحيفة، إذ كان صلداً قوياً من الخارج، وهشّاً متداعياً في أعماقه، قابلاً للكسر في أيّ لحظة. يحاول الصمود أمام الناس، فيقاوم ويضحك ويعمل ويمرح نهاراً، وفي الليل تهزّه كلمة أو صورة أو قصيدة.

وذات يوم وصلته رسالة من دبي وقد أُحرقت أطرافُها.

32
كلّنا عميان

أستيقظُ. أتحسّس جوّالي على الطاولة الجانبية قربَ السرير: الثامنة وإحدى وعشرون دقيقة، الأحد، الرابع من إبريل. تاريخ اليوم 4-4-2020، أوّل أيّام الحظر الكليّ. أبحثُ في هاتفي عن أيّ رسالةٍ منه. لم أجد شيئاً. أدخل على منصّة الإنستغرام. أُشغل نفسي بالبحث مجدّداً عن شيءٍ يدلّني على حساب سهير .. اسمها .. لقب تدليلها: سوسو .. لقب عائلتها .. اسم الجامعة التي التحقت بها ... ولكنْ، لا يُمكنني التوقّف عن التفكير فيه. أكذبُ على نفسي إنِ ادّعيْتُ أنني غير مهتمّةٍ لغيابه. أرغبُ بشدّة في معرفة سبب ظهوره في حياتي واختفائه هكذا. يخطرُ لي أنه كان حُلْماً ومضى، أو حكاية توهّمتُها، أو قصّة قرأتُها، أو أنه، بكلّ بساطة، لم يكن.

هل كان حقّاً يبحثُ عن الصور؟ وهل كنتُ أتجاوب معه من أجل الصور فقط أم أنّ هنالك سبباً آخر أتهرّبُ منه؟ أنغمسُ في البحث عن أسباب اختفائه، وقبل أن أنجرف أكثر، وأغرق في خيبتي، أعِدُ نفسي بأنْ أتوقّف عن التفكير.

عندما رأيتُه آخرَ مرّة، كان أمامي كأس الشكولاتة الساخنة الورقي مع حبّات المارشميلو الملساء، وإيفلين عن يميني ترتشفُ عصيرها المفضّل في كأس من البلاستيك، وهو أمامي يحكي عن خالي سعيد لأوّل مرّة، ولأوّل مرّة لاحظتُ اهتزاز رِجلَيه على الكرسي.

كانوا مجتمعين في مزرعة جَدِّي سالم كعادتهم في عطلة نهاية الأسبوع.

في تلك المرّة رافق سيف المتخرّج حديثاً من الجامعة أخاه وأبناء عمومته، ليُعطي أوراقه لسعيد، كي يساعده في العثور على وظيفة. كانوا مجتمعين في الهواء الطلق، حول جلسة أرضية، مكوّنة من مساند مغلّفة بقماش السَّدو المخطّط بالأحمر والأسود والأبيض والبنّي. كان مبتسماً، ممتلئاً بالأحاديث، ومشرقاً مفعماً بالحياة، كما وصفه سيف. مَن منّا كان يتصوّر أنها ستكون ساعاته الأخيرة؟ أنه سيفارق هذا كلّه؟ تهدَّج صوت سيف أمامي، وهو يسأل، ويزداد اهتزاز ساقَيه. انزوى سعيد جانباً بعد العشاء مع ثُلّة من أصحابه، شكَّلوا حلقة حوله، حتّى اختفى عن ناظرَيه، وبعدها بدقائق حدث كلّ شيء.

سيبتعدون عنه. سيشدّه أخوه من ذراعه. بسرعة سيف، يلّلا نروح. لماذا؟ ماذا حدث؟ جرعة زائدة. لنتّصل بالإسعاف. لا، نروح بسرعة. يقترب منه. إنه يموت. يجيبه أخوه بنفاد صبر. إنه ميّت. لا أظنّ، إنه يتنفّس. يشدّه بقوّة أكبر. تعال. سيهرب الجميع. سيضطرّ إلى الهرب معهم، وإلّا ستقبض علينا الشرطة، كما يقول ابن عمّه الأكبر. يلقي نظرة أخيرة عليه. كان منكبّاً على بطنه. يفكّر في الرجوع، على الأقلّ، ليجعله يستلقي على جنبه، ويلقى مصيره مرتاحاً. يخاف. إنه أصغرهم. والشرطة ستُلقي القبض عليهم كما قال أكبرهم. يهرب معهم. يركب سيّارة أخيه، ومعه أوراقه. تهتزّ الأوراق بين يدَيه من ارتجاف يدَيه أو من اهتزاز السيّارة المسرعة على الطريق الرملي خارج المزرعة. تقع الأوراق عند قدمَيه. قدماه ترتجفان وهو يتأمّل إنارة أعمدة الشارع الرئيس تنير صورته مبتسماً أعلى يمين سيرته الذاتية. يدوسها بنعاله. لا يستحقّ هذه الابتسامة. لا يريد أن يرى وجهه. يتذكّر ابتسامته طوال الطريق، ويُدركُ أنه لن ينساها. يرى الناس خلف نافذة السيّارة يمارسون حياتهم، وكأنَّ ليس هنالك شابٌّ على مسافة أميال يُحتضَر. يعودُ إلى البيت. يدخل غرفته كفأرٍ جبانٍ. يستلقي على سريره.

يحاول النوم. يستعيد صورته الأخيرة، قميصه الأصفر، وبنطاله الكحلي، شَعره القصير، حدقتَي عينَيه الواسعتَين، وابتسامته التي تُظهر الفلجة بين أسنانه، وإجابته القاطعة لمّا طلب منه مساعدته على البحث عن عمل: تمَّ، يا ولد العمّة. يفكّر في سيناريو آخر. بأنه سيهزُّ رأسه، وسيردّ عليه: ما أقدر، أو أنه سيقول بكلّ برود: سأحاول. يتمنّى لو حدث ذلك، لخفّف على الأقلّ من حدّة الألم، مِن تأنيب ضميره المُنهَك، لكنه طلب منه أن يعطيه الأوراق قبل أن يغادر؛ كي لا ينسى، ووعده بمساعدته. يحاول النوم دون فائدة. ينقلبُ على فراشه. كلّما أغلقَ عينَيه، رآه منكبّاً على وجهه. يتّصل بالمزارع، لكنه عند الرَّقْم الأخير يغيّر رأيه. يجبن، يصرخ في أعماقه: أنا جبان .. أنا جبان .. أنا جبان. يحاول مرّة أخرى، وعند الرَّقْم الأخير يُغيّر رأيه أيضاً، ويبقى طوال الليل هكذا.

سيستيقظ محيي الدِّين، المزارع الذي يعمل لديهم منذ سنين، كعادته لصلاة الفجر. وسيمشي في الظلام إلى المسجد القريب. سيشعر بالبرد، ويعود إلى غرفته قرب بَوَّابة المزرعة لأخذ معطف الجِلد الصناعي الذي اشتراه من سوق نايف قبل أيّام. سيلمح سيّارة سعيد الرياضية الفضّية من علامة بورش مركونةً في مكانها. سيصلّي الفجر، ويتحدّث يسيراً إلى رفاقه بعد الصلاة، حتّى يصل إلى بَوّابة المزرعة، ويدخل المطبخ الصغير الملحق بغرفته. سيغلي ماءً، ليصنعَ له شاياً ثقيلاً أحمر؛ ليبدأ به يومه الرتيب، ويزيد أوراق شاي الليبتون الذي لا يستغني عنه، ويرسل من أكياسه بانتظام إلى زوجته وأمّه. يملأ القدح بالشاي المغليّ ويذوّب فيه سُكّراً كثيراً. سيشرب الشاي وهو يقرأ رسائله على هاتف بلاك بيري الجديد الذي أهداه إليه سعيد. ثمّ يخرج بعد أن تطلع الشمس، لينظّف ما تركه الشباب ليلة البارحة. سيرى بقايا الصحون المتّسخة والحمّص والتبّولة والمخلّل والشاورما وأكواب الشاي والقهوة على الطاولة وسط الجلسة الأرضية،

وحولها عصافير وطيور سعيدة بإفطارها الشهيّ. وسيتفاجأ لأنّها أوّل مرّة يرى فيها هذه الفوضى كلّها، وكأنهم تركوا المكان على عجَل. يُفكّر بأن هنالك شيئاً ليس على ما يرام. يتراءى له من بعيدٍ شخصٌ منكبٌّ على وجهه في أقصى يمين زاوية الجلسة. سيُهرع نحوه. يعرفه من شَعره الأسود القصير الذي حلَقه حديثاً، ولون قميصه الأصفر. سيحمله من كتفه. ويضطرّ إلى أن يمُسك برأسه المرتخي. يُرجعه إلى الخلف، ويسند رأسه على المخدّة من قماش السَّدو. يتنبّه إلى جسده البارد. يخلع معطفه الجِلدي، ليسجّي به الجسد الطريح بين يدَيه. يُغمض عينَي الشابّ المفتوحتَين. سيتّصل من الهاتف الذي اشتراه له الشابّ نفسه قبل أيّام، برَقْم ما تصوّر أنه سيحتاجه: 999. يُخبرهم عن شابٍّ كان ليلة البارحة يضجّ بالحياة، واليوم فَقَدَها. سيتّصل بصاحب المزرعة. ويبكي ويردّد اسمه وهو بين ذراعَيه. لا يفهم الضابط ما يهذي به الرجل، ولكنه سيأتي إليه مسرعاً؛ لأنّ بكاءه مُريب.

بعد تسعَ عشرةَ دقيقةً ستصل سيّارة إسعاف. سيحاول المسعف الفلبيني أن يفعل شيئاً للشابّ. سيمارس كلّ ما تعلّمه في معهد التمريض في مانيلا وما اكتسبه من خبرة هنا، مع أنه متأكّدٌ أنّ هذا الشابّ الوسيم الملقى أمامه قد غادر عالمنا على الأرجح قبل ساعات، لكنَّ واجبَه يقتضي أن يحاول. سيحاول أن يبحث عن نبض، عن أيّ شيء يشي بالحياة. لا فائدة. سيتّصل سائق الإسعاف بالشرطة: أحدهم توفيّ في مزرعةٍ بالخوانيج بجرعة مخدّراتٍ زائدةٍ على ما يبدو، وهنالك شرائط أدوية فارغة في المكان. سيدلّهم على العنوان. سيصل صاحب المزرعة بعد خمسٍ وعشرين دقيقة، ضابط الشرطة، بسيّارة مدنية. سيفزع نحو الشابّ. وسيحدّق نحو المسعف بذهول: ولدي. لا يعرف المسعف ماذا يقول. ما به؟ ولدي؟ سيشير إلى الشابّ المستلقي أمامه: على الأرجح جرعة عقاقير زائدة. سيُمسكُ الضابط كتف الممرّض، ويهزّه: افعل شيئاً، إنه شابّ، لم يتزوّج

بعد، لم أرَ أبناءه، افعل شيئاً. سيضع الممرّض إصبعَين من أصابعه بين العظم والوتر فوق الشريان في رسغ الشابّ. سيزدردُ ريقه قبل أن يُتمتم: لا نبض، أنا آسف. سيجثو الأب على ركبتَيه. سيهزّ شفتَيه، كأنه يتكلّم دون صوت. سيهزّ الشابّ: سعيد .. قُم .. سعيد .. سعيد.

ستصل سيّارة شرطة. سيجدون شرائط أدوية مرمية غير بعيد عن المكان. سيحقّقون مع محيي الدِّين. سيخبرهم عن ليلة أمس، وعن بقايا الطعام والشراب، والمبلغ الذي أعطاه الشابّ المسجّى قبل أسبوع، نفقات إجراء عملية قلبٍ مفتوحٍ لأمّه المريضة، وابتسامته العريضة إذا دخل بَوَّابة المزرعة، وسؤاله عنه وعن أسرته في كيرلا، ويُريهم هاتف بلاك بيري الجديد الذي اشتراه له قبل أربعة أيّام، ويتجاهل إخبارهم عن سهراته وأسراره ورفاقه.

سيكتبون في تقرير الوفاة أنه تُوفيّ بسبب تناول جرعة زائدة من موادَّ مخدّرةٍ، ولكنهم سيُخبرون الأهل والمعارف بأنّه قضى بسكتةٍ قلبيّةٍ، مع أنهم سيثرثرون ويخمّنون بينهم سبب الوفاة. سيصلُ الخبر على الأرجح إلى فتاةٍ أحبّها وربمّا أحبّته هي أيضاً، مَن منّا يُمكنه أن يجزم، وهي تشربُ القهوة في أحد مقاهي الشانزليزيه أو تتسوّق في أحد محالّ شارع سانت أونوريه أو تتناول العشاء مع زوجها في أحد المطاعم الحاصلة على نجوم ميشلان. وربمّا تذرف دمعة أو اثنتَين من عينَيها، لكنها ستحرص ألّا تسيح الماسكارا الثقيلة من رموشها، وإن سألها زوجها أهيَ على ما يرام، ستجيبه بأنها نسيَت وضع قطرات العين الملطّفة هذا الصباح في عينَيها. سيختفي أصحابه في جحورهم كفئرانٍ، ويترقّبون الأخبار خائفين، ومنهم سيف. سيدفن والد الشابّ الضابط ذو النياشين الكثيرة ابنه، ويستقبل الناس أيّام العزاء الثلاثة، بجَلَدٍ وصبرٍ كما يجدر برجلٍ خَدَمَ العسكرية نحو نصف

قرن. ثمّ يستقيل، ويُقرّر أنه لا يستحقّ أن يكون على رأس عمَله، إن لم يستطع أن يمنع ابنه من رفاق السوء.

سوف يعرف لاحقاً مِن محيي الدِّين أسماء مَنْ كانوا معه تلك الليلة. وعلى الفور يذهب إلى أخته الوحيدة، ويُعدّد أسماءهم جميعاً، أحفادها الكثيرين، ومعهم سيف، وإن كان وجوده ذلك اليوم مصادفةً، ويخبرها بأنه لا يريد أن يراهم: لا أعرفكم ولا تعرفونني، ولا أريد أشوف رقعة وجوهكم بعد اليوم. سوف يصرخ ويصفق باب بيتها بقوّة.

سيخبرها سيف بالقصّة. سيبرد شراب الشوكولاتة، وتذوب فيه حبيبات المارشميلو. ستسمع صوت زحزحة كرسيّه دون أن يتفوّه بكلمة. لكنه سيعود، ويظلّ واقفاً ويهذي بصوتٍ متهدّج: هناك أمرٌ آخر. ستزدادُ سرعة نبضات قلبها، وتزدردُ ريقها بصعوبة، وتشعر بالدم يتصاعدُ إلى أُذُنَيها، وتفكّر بأن هذه هي اللحظة التي تنتظرها.

سيخبرها عن البقع البيضاء التي ظهرت على كفَّيه عندما كان صبيّاً. في البدء كان الأمر سهلاً، فقد كان يُخفي يدَيه في جيب كندورته أو بنطاله أو وراء ظهره. ثمّ بدأت تظهر حول عينَيه، وأنفه وفمه. كان يستيقظُ كلّ صباح يتأمّل وجهه وأطرافه، ويأمل أن تختفي البقع، لكنها كانت تُعانده وتزداد وضوحاً. كلّما رآه رفاقه سألوه عنها وإن كانت معديةً، واقترح بعضهم على والدَيه أسماء أطبّاء، أو علاجات مختلفة. سَئِم ذلك كلّه، فابتعد عن الجميع. لم يكن يشارك أقرانه في بيت جَدَّته، إلى أن سمعَ عن ابنة عمّه الكفيفة. اقتربَ منها. لم تلتفت إلى كفَّيه. كانت حقّاً لا ترى. تجرّأ وحرّك يدَيه أمام وجهها. لم تشر إلى البقع ولم تسأله عنها. كانت تنظر بشرودٍ ناحية الباب كَمَنْ ينتظر أحداً. شعرَ قربها براحةٍ لم يشعر بها أمام الآخرين. ارتبكَ ذات مرّة إذ اكتشفت أنّه أكل فاكهة الهمبا، إلّا أنه سرعان ما هدأ حين

أخبرته بأنها شمَّت رائحة الفاكهة. صار ينتظر زياراته إلى بيت العائلة الكبير لرؤيتها. وحين كبر قليلاً فكَّر: ماذا لو كانت هذه الفتاة العمياء هي المصابة بالبهاق لا هو، فهي في الأحوال كلّها لا تَرى، ولن تُزعجها نظرات الآخرين ولا شكل البقع على وجهها وجسمها في المرآة. ولكنها على نقيضه كانت تمتلكُ بشرةً صافية، وشَعراً طويلاً ناعماً، وأسناناً مصفوفةً بانتظام، وأنفاً مستقيماً لا عيبَ فيه، وملامح متناسقة، حتّى إنَّه أخفق في إيجاد صفة غير جميلة في ملامحها غير ذلك الحوَل الطفيف في عينَيها. كان لئيماً؛ لأنه لم يتخيّلْ أنْ يكونَ هو الأعمى، وتمنّى لو أنها هي المصابة بالبهاق. تباعدَت زيارات قريبته العمياء إلى بيتِ جَدَّته إلى أنِ اختفت تماماً، بعد تلك المشكلة بين العائلتَين التي أعقبت وفاة خالها.

كبر الصبي. استطاع أن يتأقلمَ بطريقةٍ ما مع تلك البُقَع، واختار عمَلاً يقبعُ فيه وراء مكتبٍ ووجهُه مُسمَّر على شاشة جهازه لساعاتٍ طويلة. أُغرِم كذلك بالتصوير. يمكنه خلاله التمعُّن في تفاصيل الآخرين وعيوبهم بكلّ حرّية، دون أن يلحظه أحد. لا أحد يعبأ بهيئة المصوِّر، فما يعنيهم هي الصور التي يُصوِّرها لا صورتهُ. اعتاد أن ينتظر تحت أشعّة الشمس الحارقة لساعاتٍ طيورَ فلامنغو حتّى تلويَ أعناقَها بحركةٍ غريبةٍ، أو بومة مختفية حتّى تظهر بين أغصان شجرة صحراوية، أو ضوء الشمس يتلألأ بزاويةٍ ما بين التلال الرملية. يبحثُ في رحلاته عن طفلةٍ تلهو أمام معبدٍ في أقصى الشرق، أو متشرّدٍ ينام متلحّفاً بكرتون ورقي في أغنى مُدُن العالم، أو سيّدة تحتمي بسقفٍ مهترئ هي ورضيعها من مطر مفاجئ في مدينة استوائية، أو خبّاز تنعكس لمعة النار في حدقة عينَيه وقطرات العَرَق المتفصّدة من جبهته.

أخبروه بأنه ورِثَ هذا الشغف من والد جَدَّته. صوَره القديمة صارت

في حوزة ابنه، خال أبيه، الضابط الغريب الأطوار، الذي قاطع الأسرة كلّها بعد وفاة ابنه. أراد رؤية الصور، والوصولَ إلى حفيدته التي تسكن معه، تلك الصبية اللطيفة الكفيفة التي لم يعُد يراها في بيت جَدَّته.

التقى بها ورأى الصور القديمة، وحدث شيء لم يُخطِّط له ولم يضع له حساباً. لمَّحَ لأمّه، فذكَّرته بأنها كفيفة وأنها ابنة عمّه، وبأنَّ العمى في عائلة أبيه متوارثٌ كما يُقال، وكأنه كان ناسياً. كان يعرِفُ ذلك كلّه، ومنذ الصورة الأولى وضعَ حاجزاً، لكنه انزاحَ شيئاً فشيئاً.

في لحظةٍ ما اكتشفَ أنه لا يعرف ماذا يريد على وجه التحديد. كان تائهاً. فكَّر مليّاً، وآثرَ أن ينسحب .. ريثما يرى الأمور حوله بطريقة صحيحة.

سيصلها صوته مائلاً أقرب إلى أُذُنها اليسرى، ستعرف أنه يُحدّثها ووجهه ناحية الباب على يمينه، لا ناحيتها. سيتمتم بصوتٍ منهَك: كلّنا عميان، يا نورة .. صدّقيني، كلّنا عميان بشكلٍ أو بآخر. ستبهت رائحة عطره والمعقِّم وقلقه وتساؤلاته وهذيانه، ويختفي هكذا من حياتها. لم تفهم إيفلين شيئاً من حديث سيف؛ لأنه كان يتحدّث بسرعةٍ ويبتلعُ بعض الحروف كأنه خائفٌ أن يتراجع عمّا يريد قوله، أو أن يضيع منه الكلام، وستسأل عن سبب احمرار عينَيه ورحيله المفاجئ. سأسألها: لماذا لم تخبريني، يا إيفلين. بمَ أخبركِ؟ بأنه مصاب بالبُهاق. ولكنكِ عمياء، لا ترين؟ ولكنكِ لم تخبريني؟ ألم تردّدي دوماً أنّ الجمال لا يعنيكِ؟ صحيح. إذن لماذا أنتِ الآن غاضبة؟ أضربُ على الطاولة: لأنني خُدِعت!

أستعيدُ في هذه اللحظة كلّ كلمة قالها سيف ذلك اليوم، وأشعر بشيءٍ يقفُ في حلقي، يمتدُّ ويمتدُّ ليملأُ صدري كلّه، كجبلٍ. ألفظه. أبكي.

33

الصورة السابعة عشرة

البرنامج: امرأة ممتطية حماراً ملامحها محايدة.

كانتْ متربّعةً على الجِهةِ المواجهةِ له، تُغَطّي العباءةُ السَّوداءُ بدنَها الهزيَل، قرب خالته. يلتفتُ نحوها كلّ حينٍ ليطمئنّ عليها. اتّكأ على الحاجز الخشبي للسفينة، واستعادَ الأيّام التي أعقبَت وصول الرسالة.

عندما وصلته الرسالة المحروقة الأطراف من خاله حدَسَ بأنّها تتعلّق بها، وبالفعل طلبَ منه القدوم بأسرع وقتٍ. ورآها في ليوان بيتها مستلقيةً على جنبها تراقب ابنتها التي تلعب في الحَوش. كانت عيناها غائرتَين، تحوّل بياضُهما إلى صفرةٍ باهتةٍ، وتُحيط بهما حلقتان سوداوان منتفختان. لم تكن تُشبه تلك المرأة التي ودَّعها قبل سنوات عند الفُرضة، وحتماً لا تُشبه تلك التي عرَفها صغيراً. حاولت أن تقوم إليه حينَ أقبل، فأسرع نحوها وساعدها على الجلوس. مدَّ ساقَيها، وأسند ظهرها إلى الحائط. بعد قليل أقبلت خالته التي تفصل بين بيتها وبيت أختها سكّة ضيّقة، تحمل معها مغليّ عُشبة الجَعدة.

ارتشفت الشراب بمهل. كانت تحاول رسم ابتسامة على وجهها بين رشفة وأخرى، وتبالغ في طمأنته بأنها بخير. عرف أنّ الجاراتِ تناوبْنَ على تجربة علاجات شعبية وخلطات عشبية عليها، ومسحت المُداوية على بطنها، وملأت بدَنها بآثار الكيّ دون فائدة.

لا يُمكنه أن يراها تذبل أمامه دون أن يفعل شيئاً. سمعَ عن طبيبٍ شابٍّ قادم للتوّ من كراتشي، عالج كثيرين، وهو مسؤول عن مخزن أدوية

في منطقة الرَّاس غير بعيدٍ عن محلّ خاله. ولمَّا أراد أن يأخذها إليه رفض زوجها رفضاً قاطعاً أن يكشفَ عليها رجل غريب. كان عليّ حانقاً وغاضباً، إلّا أنّه بعد أن ساءت حالتها أكثر طلب وساطة خاله، حتّى وافق الزوج على مضَض. وفي دبي كشفَ عليها الدكتور محمّد ياسين، الذي اكتفى بإعطائها مسكّنات، وأشار عليه بأن يأخذها إلى البحرَين أو الهند بأسرع وقت. كتبَ على الفور رسالةً إلى حجّي صالح يُبلغه بقدومه لعلاج أمّه.

استقبلهم الحجّي في المنامة، وقد حضَّر مكاناً لمبيتهم. وفي صباح اليوم التالي خضعت أمّه لجراحةٍ مستعجلة في مستشفى الإرسالية الأمريكية. صارحه الطبيب بأنهم فعلوا ما بوسعهم وستتعافى تدريجياً، ولكنّها لن تعود كما كانت.

عندما أفاقت من العملية نقّلت بصرها بينه وبين خالته. ما إن استعادت أمُّه ذاكرتها حتّى سألت عن ابنتها. طمأنتها خالته وذكَّرتها بأنها بخير وعند ابنتها لطيفة في دبي. كانت خالته في تلك الأثناء تحرّك كفَّيْها قرب وجه أختها لتُبعدَ عنها الذباب. ابتسمت أمّه ابتسامةً واهنةً وأطبَقت عينَيها مرّة أخرى ونامت.

كان يُرافق خالتَه كلّ صباح إلى المشفى، فتستقبلهما الصلوات الصباحية والترانيم، حيث تمضي إلى قسم النساء، وهو إلى الممرّضات ليطمئنَّ عليها، ومنها إلى عمله.

ظلّت في المشفى حتّى استردّت شيئاً من صحّتها، وفي يومها الأخير في المشفى شرح له الطبيب حالتها وأعطاه أدويتها، ونسخةً عربيّةً من الإنجيل دسَّها عليّ في جيب ثوبه، شاكراً إيّاه حُسن رعايتهم لها. قبل مغادرتهم سألَته خالته:

- هل هم مسلمون مثلنا؟

- مَن؟

- الممرّضات والطبيبة البيضاء الشقراء وذلك الطبيب.

- لا .. هم نصارى.

نظرت أمّه نحو أختها:

- قلت لك ..

علّقت خالته:

- غريبة، مع أنهم مثلنا وأخلاقهم زينة.

وافقتها أمّه:

- إيه، وأنا أشهد على كلامها.

اقترحت خالته دعوتهم إلى الإسلام، ووافقتْها أمُّه. ابتسم عليّ وهو يتحسّس الإنجيل في جيب ثوبه.

عند باب المشفى أخرج عليّ آلة التصوير، والتقط صورةً للمرأتَين. كانتْ أمّه ممتطيةً حماراً تبتسمُ له، وخلفها مبنى المشفى، وقربها تقف خالته. ركَّز العدسة على وجه أمّه. لم ينتبه إلى أنها في اللحظة التي صوّرها عدلت عن ابتسامتها، لسببٍ ما، كأنها تذكّرت شيئاً كدّرها. أحسَّ بالرضا، فلم يكُن متأكّداً من حصوله على فرصة التقاط صورةٍ أخرى لها. مضوا في طريقهم يقودهم الحمار وصاحبه. كانت الساعة الكبيرة على برج الكنيسة تُشير إلى الثانية عشرة وعشر دقائق بالتوقيت الإفرنجي.

بقوا في المنامة زمناً، حتّى تحسَّنت صحّة أمّه. وعندما حان موعد الرجوع ترجَّته أن يعود معه ويترك البحرَين. رفض في البدء، لكنه اضطرّ

إلى الموافقة بعد إلحاحها وبكائها لأيّامٍ متواصلة. قبل رحيله حمَّض الفيلم الأخير، وكانت صورة أمّه هي آخر صورة التقطها في البحرَين، وعلى الأرجح آخر صورة لها. باع كاميرته الأجفا بعد عثوره على مشترٍ بصعوبة، فقد كان بحاجةٍ إلى المال، ليتدبّر أموره قبل أن يجد عملاً جديداً.

في جمعته الأخيرة التقى بعزيز ومطر. احتضن عزيز عوده الأثير وغنّى أُغنيَّة مطربه المفضّل محمّد بن فارس: "دمعي جرى بالخدود .. والجفن عاف الرقادي .. ممّا طرى بالفؤاد .. والناس عنّي رقود .. وأنا بصوتي أنادي .. الداد يا أهل الوداد". علَّق مطر بعد انتهائه: "يا حبكم للنَّكد إنت وعليّ". ضحك الرّفاق.

قبل أن يفترقا أخذ عزيز نَفَسَاً عميقاً من سيجارته، ثمّ سحقها بحذائه، ووضع كفّه على كتف عزيز، وهمس: "آسف .. كذبت عليك." قبل أن يسأله عن مقصده، أكمل: "الزمن ما ينسّينا، يا عليّ .. بس يُغيّر نظرتنا للأمور". ثمّ أكمل ضاحكاً: "والحياة تستمرّ في الأحوال كلّها" .. لأوّل مرّة انتبه عليّ إلى الخطوط الكثيرة التي تُحيطُ عينَي صاحبه والشَّعرات البيضاء التي تتخلّل شَعرَه الكثيفَ، وضحكته التي تُخفي الكثير من الأسى. سيفترق الرّفاق، عزيز مع عوده الأثير ومطر مع حُلمه الذي يوشك أن يتحقّق.

سوف يعود مطر إلى دبي بعد أقلّ من سنةٍ ويتزوّج ابنةَ خالته، لكن الموت يختطفه قبل أن يرى ابنه الوحيد الذي يُسمّونه باسمه. أمّا عزيز، فلن يُنجب مطلقاً، وسوف يربّي أبناء أخيه كأنهم أبناؤه ومنهم حمد الذي سيعتني به في كِبَرِه، وتظلّ صداقته وطيدةً مع عليّ، ويلازمه عوده الأثير حتّى يومه الأخير.

رحل عليّ مصطحباً معه آخر عددٍ صدَر من جريدة البحرَين الذي أعلن فيه الرَّايد توقّفها عن الصدور، حيث كتب على صفحتها: «لعدم وجود

ورقٍ لدينا نطبعها عليه، لا من الأبيض ولا من الملوّن المختلف الألوان الذي طبعناها عليه مدّة عامَين. على أننا نرجو ألّا يطول هذا الاحتجاب أكثر من بضعة أسابيع، فنحن في رجاء الحصول على ورق، وسيكون وصوله قريباً، إن شاء الله». وهناك مَنْ جزمَ بأنّ توقُّف الجريدة يرجع إلى أنّ الرَّايد كتبَ مقالاً لم يُعجب الإنجليز يدعو فيه إلى توحيد إمارات الخليج العربي. ما أهمَّ عليّ سبب الاحتجاب بقدرِ ما أهمّه أن تصمُد تلك الصحيفة وتعاود الصدور، ولم يعرِف حينها أنها ستتوقّف للأبد مع رحيل الرَّايد بعد احتجابها بسنة.

ورحل عليّ .. لكنْ، بقيَ جزءٌ منه أبى الرحيل.

34
حاسّة واحدة لا تكفي

اليوم هو خامس أيّام الحظر عندنا. أُفطرُ توست بالجبن أعددتُهُ بنفسي. أذهبُ لاحقاً إلى غرفة مكتب جَدِّي. يُجلسني قربه. نسمع أذان الظهر من المسجد القريب. يختمها المؤذّن بقوله: صلّوا في رحالكم. يضغطُ على كفّي. على الرغم من إغلاق المساجد منذ فترة، إلّا أنّ جَدِّي لم يعتدْ على ذلك بعد. يسمع الأذان بأسى. أطلبُ منه أن يحكي، فتلك الحكايات تُبقينا بخير هذه الفترة. أصلي، وبعدين نسولف. أنتظره.

نخرج. نجلس على كراسٍ خشبيّةٍ وسط حديقة البيت الخلفية. الجوّ دافئ زادته شمس الظهيرة حرارةً. يخلو المكان من أصوات السيّارات والبشر إلّا بين حينٍ وآخَرَ. اسمعي الأشجار، يقول. أسأله، تقصد صوت أوراقها. أقصدُ صوتها .. اسمعيها .. الأشجار فرِحة بسكون الشوارع وانخفاض التلوّث .. اسمعيها .. اسمعي الغافات والنخيل وأشجار السدر والسمر والشريشة.

نُنصت معاً. بعد قليل أسمع خطواتها السريعة، ويصلني عبق عطورها العربيّة. تجلسُ معنا دون أن تنبس بكلمة. بعد قليل يسألها جَدِّي عن يوسف وعياله. كلّهم بخير، تجيبه. متولّه عليهم، ما شفتهم من زمان. اتّصِلْ بهم. كلّمتهم، لكنْ أريد أن أشوفهم. أسأله: أبويه سالم هل جرّبت زوم؟ زوم .. ما أعرفه. لحظة. أتّصل بحامد. حامد إنتَ في البيت؟ أكيد في البيت، عندنا حظر مثلنا مثلكم. أبويه سالم يريد أن يشوفكم. تعرفين نحن في أبو

ظبي، وأنتم في دبي، كيف؟ عندك زوم، يا حامد؟ أكيد عندي، نحتاجه للدراسة عن بُعد. انتظرني على زوم.

أُحمّلُ التطبيق في أيفوني. وبعد قليل يرسل إليّ حامد رابط المحادثة. أدخل عليه، فأسمعه، ويظهر حامد على الشاشة. يكلّمه جَدِّي. ينادي إخوته وأخواته. ثمّ أسمع خالي وزوجته. يضجُّ المكان بأصواتهم كأنّهم معنا. يتحدّثون عن الفيروس وما سمعوه في الأخبار، وعن أيّامهم الرتيبة في الحظر، وقصص المصابين. لأوّل مرّة يسأل جَدِّي خالي يوسف عن أمّه.

انتقلَت أمّ خالي يوسف إلى أبو ظبي بعد انفصالها وزواجها من أحد أقربائها، وبقي ابنها يوسف معها. لم يكُن قريباً من أبيه. كانت علاقتُهما متوتّرةً متذبذبةً، تُشبه المَدَّ والجَزْرَ. حين صار شابّاً لامَ أباه على هجرِه أمَّه. لعلَّ الحسنة الوحيدة في وفاة خالي سعيد أنَّ علاقتَهما تحسَّنت بعد رحيله.

كنتُ أسألُ جَدَّتي عن ذلك الخال الذي يزورنا بين فترةٍ وأخرى هو وعياله، فتقول إنه يوسف ولد سالم من زوجته الأولى. أتذكّر رائحة النعناع القوية المنبعثة من فمه إذا تحدّث، واللثغة الواضحة إذا نطق حرف الراء، حتّى إنني كنتُ أقلّده أحياناً بيني وبين نفسي. تظنّ يدّوه نورة أنه رجلٌ صالح، لكنه حسّاس عندما يتعلق الأمر بعلاقته بوالده. أردّ عليها: لكنْ، لا تنسَيْ بأنّه تركه وهجر أمّه. تقول بحدّة: أبوه ما قصّر معه، والخير الذي هو فيه من خيره. بس أبويه سالم ما قصّر على خالي سعيد. سعيد علاقته زينة مع أبيه ويحترمه. أجيبها: أظنّه بحاجة إلى أبيه، لا إلى أمواله. عندها تسكت جَدَّتي وتُغيّر الموضوع.

تنتهي مكالمة الفيديو بعد ربع ساعة. يطلب منّي جَدِّي أن أعلّمه

استخدامها. أسأله: ألَا يكفي السمع، أبويه؟ حاسّة واحدة لا تكفيني، أريد أن ألمسهم، وأحضنهم، وأشوفهم، وأشمّ ريحتهم، على الأقلّ حاسّة أخرى مع السمع. أحمّل تطبيق زوم في هاتفه وأعلّمه استخدامه. تتركنا أمّي لتُحضر الغداء. منذُ أن بدأ الحَظْر نتشاركُ طاولة واحدة، مرّتَيْن أو ثلاث مرّات في اليوم. في البدء كان الوضع غريباً، حتّى اعتدنا على ذلك. أجد علبة دواء أمّي. آخذها لأعطيها. قبل أن أدخل الفيلّا ألمسُ نقاط برايل البارزة على ظهر العُلبة، فأقرأُ اسم الدواء: زاناكس. أبحث في جوجل عن استخداماته. أكتشفُ أنه مضادّ للقلق والتوتّر. أزدردُ ريقي بصعوبة. هذه المرّة أصوِّر العلبة. يقرأ البرنامج اسم الدواء نفسه: زاناكس. هكذا إذن، أمّي تُذوّب هلعها بهذه الحبوب. أدخل الفيلّا. يستوقفني غناءٌ شجيٌّ آتٍ من المطبخ. لم أسمعها تغنّي مِن قبل. في صوتها بحّة عميقة، تماماً كما وصفتها جَدَّتي. أطرقُ على باب المطبخ الموارب. أضعُ علبة الدواء على أقرب طاولة دون أن أتفوّه بكلمة، وأهربُ إلى غرفتي. أستلقي على الفراش. أكتشفُ أننا نعرف عن الأشخاص حولنا أقلَّ بكثيرٍ ممّا نظنّ. يبدو أننا كلّنا عميان كما قال سيف.

قُبِلَتْ أمّكِ للدراسة في جامعة الكويت، واستعدّت للسفر، ولكنْ، في ذلك الصيف انقلبت الدنيا عندما دخلت العراق الكويت واحتلّتها، وتغيّرت خططها. التحقت بجامعة الإمارات. كان جَدُّكِ يوصلها إلى محطّة تجمّع باصات الجامعة كلّ جمعة، لتذهب مع بقية الطالبات ومعها بنت عمّتها إلى مدينة العين، ويرجعها يوم الأربعاء. وفي إحدى المرّات أخذهم أبوكِ الذي عاد من أريزونا حاملاً شهادةً في الهندسة، ورأى أمّكَ هناك. وبعدها بأشهرٍ جاءت جَدَّتكِ العصقولة تطلب يد هدى لولدها. تحشرج صوت جَدَّتي نورة وكأنّ هنالك شيئاً يقفُ في حَنْجَرَتها، وقالت: كنتُ أريدها أن تُكمِل دراستها، لكنّها ما سمعت كلامي وتزوّجته.

يحلو لي أن أفكّر في عالمٍ موازٍ اختارت فيه أمّي اختياراتٍ أخرى، لو أنّ العراق لم تحتلّ الكويت في ذلك الصيف، أو أنها تخلّت مثلاً عن فكرة الدراسة الجامعية أو أجّلتها، أو التحقت بمعهد المعلّمات أو أيّ جامعة أخرى، أو أنها لم توافق على الزواج من أبي وسمعت مشورة أمّها.

لكنه يقطعُ أفكاري ويعود مرّة أخرى. يقفزُ إلى ذاكرتي كما يفعلُ كلّ يوم. أشعرُ كأنّ غيابَه شكّل حفرةً أحوم حولها. أرغبُ في الاقتراب لمعرفة ما بداخل الحفرة، إلّا أنني خائفة أن أقع فيها في أيّ لحظة، وفي الوقت نفسه لا يمكنني ردمها، أو ربّما لا أرغبُ في ذلك. أفترضُ حوارات بينه وبين أمّه، وأعيدُ صياغتها كلّ مرّة بطريقة أخرى. أتخيّلهما في مطبخ بيتهم المفتوح على الصالة كما وصَفه لي ذات مرّة، يأكلان وجبتهما التي وصلت للتوّ عن طريق تطبيق ديليفرو، أو في سيناريو آخر من البيض المخفوق مع رغيف ساخن أعدّته أمّه. يُفاتحها برغبته في الزواج منّي، فتردّ عليه أمّه بهدوء بأنني أحملُ جينة العمى المتوارثة. يردّ عليها بأنه سيسأل الأطبّاء، وسيجد حلّاً ما، و...، فتقاطعه أمّه بالرفض وتُعدّد أسباب رفضها المنطقية، يغضب منها ويترك الطاولة. وفي سيناريو مغاير أتخيّله يخضعُ ويوافقها وهو يرشُّ قليلاً من الملح على وجبته، ثمّ يأكلان بشهية، وكأنّ شيئاً لم يحدث. وفي سيناريو آخر يشاركهما والده النقاش، فينزعج عندما تذكرُ أمّه العمى المتوارث عند عائلته، فيذكّرها بابن عمّها المعتوه، وخالتها المجنونة، وقريبها نزيل مستشفى الأمراض العقلية، ويترك المكان. أم ربّما يوافقها، بل ينصح ابنه بألّا يُورّط نفسَه بالزواج من حفيدة خاله غريب الأطوار، التي - لسوء حظّها - تحمل جينة العمى المتوارثة.

أفكّر في العمى كفكرة، هل هو مخيفٌ إلى الدرجة التي تجعلهم يهربون منه. أشعرُ بالرَّبكة، فأنا لم أعرفُ وضعاً غيره، أقصد: لم أعرف حياةً دون

العمى، ولا أتخيّلُ نفسي مبصرةً. لو كنتُ مبصرةً هل سأفكّر مثلهم؟ في هذه اللحظة أتذكّر بورخيس الذي وَرِثَ العمى من أسلافه، ولم يُوَرِّثْهُ لأحدٍ. هل لأنه جرَّب الإبصار، وخشي أن يُوَرِّثَهُ وهو الذي وَرِثَهُ عن والده؟ أهناك تقاطع ما بين حكايتَينا؟

أمسحُ يدي على الطاولة الجانبية لسريري. أتحسّسُ أوراق ماري حنّا، وأشعرُ بثِقل الحكاية. أفكّر: كيف كان شعور زوجها وهو يكتب يوميّاتها، وأتساءل: هل يا ترى سردت عليه كلّ ما أرادت قوله أم أخفت عنه أموراً؟ أشكُّ أنها عرضت كلّ ما بحوزتها على زوجها، وأجزمُ لو أنها كتبت وحدها دونه لأفضت على الأرجح بتفاصيلَ قد لا ترغبُ أن يطّلع عليها، عنها وعن عائلتها. لكنتُ عرفتُ الدافع الحقيقي لإصرارها على الزواج من الغريب. هل أحبّته حقّاً أم لعلّها أرادت الهرب من حياتها الرتيبة في الضيعة؟ وهل كانت علاقتها مع حليمة مثالية كما وصفتها في يومياتها؟

هل كانت ماري حنّا حرّةً وهي تسردُ يومياتها؟ هل ستكون أكثر حرّية لو أنها عاشت في زمننا هذا، حيث يُمكنها أن تكتبَ ما تشاء دون أنْ يتلصّصَ عليها أحدٌ؟ ربمّا لهذا السبب أصرَّت أن تدخل ابنتها المدرسة لتتعلّم الكتابة، وبطبيعة الحال لتقرأ يوميّاتها التي كتبها عنها والدها المُبصر. وهل أنا متحرّرةٌ من قيودي كما أتوهّم؟

وأنا أكتبُ يومياتي تُخيفني فكرة استعراض ما أُفكّر به على الملأ، ومنحهم معرفة كلّ ما يدور في رأسي، وأعطيهم كلماتي بكلّ بساطةٍ، فيحقُّ لهم تأويلها كما يشاؤون. أحياناً هنالك شيء ما يلجمني عن كتابةِ بعض التفاصيل التي لا أرغبُ أنْ يعرفها الآخرون، أو المشاعر التي أخبِّئُها عن الآخرين. فأجدني، دون أن أشعر، أُغيّر بعض الأسماء، أو أحاول أن أُجمّل ما يخصّني ويخصّ أهلي. في أحيانٍ أخرى، أتساءل: مَنْ سيقرأ ما أكتُب،

أو بالأحرى من سيرغب في قراءة ما أكتب، أنا الفتاة الضريرة التي توحَّدت مع الرَّتابة؟ حينها أرتاح وأتحرّرُ كدويٍّ رعدٍ، وأنطلق في الكتابة، فتُمطر كلماتي وتبلّل الأرض والشجر.

تُربكني تلك الأفكار والتساؤلات، إذ تُرعبني حيناً وتُريحني حيناً ومعها تتغيّر وتيرة الكتابة. وتزداد ربكتي حين أفكّر مثلاً: هل تخيَّلت ماري حنّا أنَّ أوراقها ستصل إلى حفيدةٍ كفيفةٍ بعد نحوٍ من قرنٍ كاملٍ؟!

الورقة الخامسة

زارتني أختي سارة في الحُلم. رائحتها كانت صابون غار وبابونج، ثمّ أعطتني شيئاً في يدي، وقالت إنها بيضة، كانت كبيرة وثقيلة بحجم ووزن بِطِّيخة، ثمّ همسَت بأنها ستزورني في المنامة قريباً. لمّا صحوتُ من النوم بحثتُ عن ناصر، لم يكن قربي. بعد قليل سمعتُ صوت المؤذّن من الجامع القريب، فعرفتُ أنه ذهب إلى الصلاة.

ظللتُ أتقلّب في الفراش أفكّر فيها. كلّما حاولتُ النوم، فشلتُ. وعُدتُ بذاكرتي إلى المرّة الثانية التي قابلتُ فيها الغريب. رجعتُ إلى البيت بعدما طلعْتُ ومشيْتُ خطواتٍ وشعرْتُ بالبرد، لآخذ شالي. فتحتُ الباب وسمعتُ زوج سارة يخبرها بأنه كتب لأخيه في البرازيل، يُخبره بأنهم سيلحقون به بأسرع وقت ممكن؛ ليستقرّوا هناك، بعد أن دبَّر له عملاً.

سألَته سارة عنّي، فأجابها بأنه لا يقدر على دفع أجرة السفر والاعتناء بي. طلبَت منه أن ينتظر حتّى تلد، إلّا أنه غضبَ

وهدّدها بأنه سيفعل مثل زوج الخالة عفيفة، وسيسافر دونها. حينها صدرَ من الباب صوت، فكفَّا عن الكلام. دخلتُ، وما بيَّنتُ لهما شيئاً، وتصرّفتُ كأنني ما سمعتُ. أخذتُ شالي، ورميتُهُ على كتفي، وخرجتُ.

عند دار المختار شممتُ تلك الرائحة الطيّبة الثقيلة، وحدستُ بأنه قريبٌ، أو ربّما مرَّ قبل قليل من المكان. اشترَت منّي الصَّبيَّة التي تشتغل عندهم اليوم أيضاً درزينة من البيض، وهمسَت بأن عندهم ضيوفاً مهمّين. وفي طريق العودة مررتُ بالخالة عفيفة، فوجدتُها مع الخالة أمّ جميل تجلسان حول طاولة أمام البيت في الهواء الطلق كالعادة تتبادلان أخبار الضيعة والكثير من الحكي والنمائم، وتنتظران مجيئي. أخذت أمّ جميل البيض وسلقَته، ثمّ أحضرَته مع أرغفة خبزٍ وجبنٍ وتينٍ وزيتون وشتلات حبق قطفتها للتوّ. أكلنا بشهية، وكالعادة أكلَت أمّ جميل الجوّ بأحاديثها وقصصها التي لا أدري من أين تخترعها. بعد الفطور، وبينما كنّا نشرب القهوة التي حضَّرَتها لنا الخالة عفيفة، وصلت تلك الرائحة الغامضة. هذه المرّة كان معه المختار ورجال من الضيعة. ألقوا علينا التحية، ثمّ سألَت أمّ جميل الغريب عن المكان الذي قدم منه، فأجابها بأن اسمه ناصر بن سالم، من جزيرة عربية اسمها المنامة تتبع مجموعة جزرٍ في خليجٍ قُرب نجد والحجاز والأحساء، تسمّى البحرَين، وقدِم إلى المنطقة مع حجّاج شاميّين بعد أن تعرّف إليهم وصادقهم في مكّة. وأنه جاء إلى المَشتى لقضاء فترة راحة بين الطبيعة والجوّ العليل، بناءً على نصيحة صديقه رفيق، الذي هو صديق المختار أيضاً.

علّقت أمّ جميل بأنها المرّة الأولى التي يزورهم في المَشتى شخص من تلك الجزيرة التي لا تعرفها رغم أعوام عمرها المديد. ضحك المختار، ووضّح للغريب أن أمّ جميل عاصرت أحداثاً كثيرة في الضيعة، وتعرفُ كلّ واردةٍ وشاردةٍ فيها، وأنها وُلدت حتّى قبل البدء في بناء كنيسة مار إلياس، وحضرت أوّل قدّاس فيها لمّا كانت صبيّة، واليوم عاصرَت قدوم أوّل شخص من البحرَين في المَشتى. علت ضحكات الجميع، ثمّ غادر الرجال، ولم يتنبّه أحدٌ لغياب الرائحة الثقيلة غيري. بعدها بصّرت أمّ جميل في فنجانَينا أنا والخالة عفيفة، وعندما وصل دور فنجاني أطالت الصمت قبل أن تقول متعجّبة: إنها ترى بلداناً وبحاراً وأنهاراً.

لم أُخبر أحداً بأنني كنتُ أعرف قرار زوج سارة الهجرة إلى البرازيل، والآن عرفه ناصر لأوّل مرّة وهو يكتبُ. أفكّر: أكان هذا الأمر دافعاً لإصراري على الزواج من الغريب وترك المكان الذي أعيش فيه، رغم صعوبة الانتقال من مكانٍ إلى آخر على الكفيف واعتراض الجميع أم هي الأحاديث التي جمعَتنا تحت شجرة الدُّلْبَة، وشعور غريب بالأُلفة لشخصٍ لا أعرفه لم أجرّبه من قبل. حكى لي عن بلاده البعيدة، والصحاري التي قطَعَها والبحار والبلدان، وقصصاً كثيرة عن رحلاته وأنا التي ما عرفتُ غير المَشتى. كان ينطّ من حكاية إلى حكاية ويمرّ الوقت دون أن أشعر. كلّما كان يحكي كنتُ أحسّ حالي أريد أن أسافر وأكتشف العالم وراء الضيعة. إحساس غريب ما جرّبته من قبل. وبعد ثلاثة وعشرين يوماً بالتمام والكمال طلبَني الغريب للزواج من الخالة عفيفة، ووافقَتُ

على طول بدون تفكير. سمعتِ الخالة وجيهة بالخبر، فانتشر في الضيعة، وتساءل الجميع كيف تتزوّج ماري حنّا المسيحية من المسلم الغريب؟ وخفنا من ردّة فعل الخوري إن وصله الخبر. لمّا عرفَت الخالة عفيفة إصراري على الزواج من الغريب نفَت الخبر، وفكّرت في طريقة، تعالج الموضوع.

رجع ناصر من الجامع، فأخبرتُهُ بأنني سأنجب صبية، وسأسمّيها سارة. همس كأنه يكلّم حاله بأنه اسمٌ جميل، وعلا صوت شخيره، وتركَني سارِحة في أفكاري وذكرياتي.

تكبرني أختي سارة بثلاث سنوات كما تزعمُ أمّ جميل، ووضّحَت أن أمّي ظلّت تحاول أن تحبل سنتَين، لعلّها تُنجب صبياً، وفي السنة الثالثة حبلت بي. تزوّجت سارة ابن الستّ زكية ابنة خالة أبي، وكان يشتغل في النّحاسة مثل أبيه، يصلح القدور والملاعق والطناجر والصواني ويُبيّضها. هرب أخوه الكبير أيّام السفر برلك إلى البرازيل لمّا كانوا يأخذون الشباب إلى الحرب، والآن صار يتحدّثُ بلغة أهلها، بعد أن تزوّج واحدة من بناتهم.

أشتاق إلى سارة كثيراً.

السبت 18 آب 1927م

مكتبة
t.me/soramnqraa

الورقة السادسة

أنجبتُ بنتاً وأسميتُها سارة، مساء آخر يوم من آب، في الساعة

السابعة إفرنجي حسب ساعة الكنيسة على مبنى الإرسالية الأمريكي، والواحدة عربي كما يحسبُ البحرينيون ساعاتهم بالشمس، حيث يبدأ حساب يومهم من لحظة غروبها، إلى الغروب الثاني.

قمتُ ذلك اليوم من النوم على وجَعٍ في بطني وظهري، وحركةٍ مستمرّة قويّةٍ للجنين، سرعان ما اختفيا. أكلتُ الفطور مع حليمة بشهيةٍ كبيرة، رغيف خبز تنّور ساخناً بأكمله أحضرَه للتوّ مرزوق من السوق مع مربّى التُّرُنْج، ولا كأنني تلك المرأة التي كانت تتقلّب صباح اليوم على سريرها من الألم. بعد الإفطار بمدّة، ومع بدء جلبة حليمة في المطبخ لإعداد الغداء بدأ الوجع ذاته مرّة أخرى، يزداد ويخفت، بوتيرة منتظمة.

كان الحَرّ لا يُحتمَل، رغم ملابسي الخفيفة المصنوعة من قماش قطن خفيف، تسمّيه حليمة: ويل، كنتُ أجلس على الكرسي الخشبي الطويل أمام شجرة البَمْبر، التي كنتُ أحاول أن أتفادى أن أدوس على ثمارها المتساقطة اللزجة. لم أتحمّل مذاق هذه الفاكهة ولا مَلمَسها الغريب في فمي. عرفتُ أن ناصراً وصل من السوق من رائحة دهن العود، مع أنه دخل بهدوء. أحسَّ بشيء غريب، لستُ على طبيعتي، فسألني هل أنا بخير؟ فأومأتُ له بالإيجاب.

ازداد الوجع على الغداء، ولم يعُد يمهلني لأرتاح، حتّى إنني ما أكملتُ اللقمة في فمي. أرسلَت حليمة في طلب القابلة، التي قالت إنني سألدُ قبل حلول الظلام. أمّا ناصر، فطلبَ الحكيمة الأجنبية. كنتُ غارقة في الخوف والوجع، ومبلّلة بالعَرَق.

قدماي ترتجفان ويدايَ تنتفضان رغم الحَرّ الشديد. بدا لي أنّ الأمر لن ينتهي، وسأظلّ هكذا حتّى أموت.

آخر النهار سمعتُ بكاء طفلٍ، وأصواتاً تُخبرني بأنها بنت، وراح التعب كلّه في لحظة. نادوا ناصراً ليؤذّن في أُذُن الصغيرة، ومرّت لحظات دخل وبارك لي فيها بسلامتي، ثمّ سمعتُ كلمات الأذان بصوته كما أسمعها كلّ يومٍ خمس مرّات من الجامع القريب، ثمّ وضعوها على صدري. سحبت حليمة ذراعي اليمنى، وطوّقت بها ظهر الصغيرة، وألقمتُها صدري. صرتُ أسمعُ أنفاسها الضئيلة كعصفور صغير، وتنشّقتُ رائحتها السكّرية، ونمتُ كما لم أنم في حياتي.

الجمعة 16 أيلول 1927

الورقة السابعة

تأتي الخالة مريوم يوم كلّ صباح، تحمّم الصغيرة، وتلفّ جسمها بقطعة قماش تسمّيه المِهاد، تقول إنه يقوّي عظامها ويساعدها على النوم، وتكحّل عينَيها بكحل الإثمد، ليجمّل عينَيها ويقوّيهما. ثمّ تمسحُ بدني بدهن بقر رائحتُه كريهة، وتسقيني من ماء نقعَت فيه لباناً وحلبة طوال الليل، ليزيد إدرار الحليب. سألتُها هل الصغيرة تُشبهني؟ فأجابت بأنَّ عليَّ أنْ أصبر، فللبنت سبعة وجوه حتّى تكبر. تنام الصغيرة معظم اليوم، ولّما تقوم نخفّف عنها المِهاد فتحرّك أطرافها، فتَصدر منها أصوات خافتة. أتحسّسُ جسمها، وقدمَيها

الصغيرتَين، وأنفها الدقيق، وشَعر رأسها الناعم الخفيف، والزغَب الخفيف المنتشر على ذراعَيها ورجلَيها، وأعدُّ أصابع يدَيها وقدمَيها بفضول ودهشة كلّ يوم.

تُعِدّ لي حليمة كلّ يوم شوربة طعمها غريب اسمها الحِسو، لم أستسغ طعمها إلّا أنها أجبرتني على تناولها؛ لأنها مفيدة للنّفَساء كما تقول، وكذلك حلوى تُسمّيها عصيدة، لذيذة ودسمة. في الليل تظلّ معي وأسمعها تهدهِد الصغيرة: هلولو، يا بنيتي، هلولو .. ترقد بنيتي رقدة هنيّة .. رقدة الغزلان في البرّية .. رقدة أمّها يوم توها بنيّة. فتغفو سارة على صوتها وأغفو معها.

الخميس 22 أيلول 1927

الورقة الثامنة أو ربّما التاسعة

ومرّ يوم .. يومان .. عشرة .. أربعون يوماً .. ولم يحصل لي ما حصل لأمّي وأمّها وجَدَّتي أو النسوة اللواتي أتفرّع منهنّ. تخفُّ هواجسي وخوفي يوماً بيومٍ حتّى نسيتُها، ولكنْ، أعجبتني فكرة توثيق بعض يومياتي. يُعيد ناصر قراءتها أحياناً بصوتٍ عالٍ، فتبدو كأنها المرّة الأولى التي أسمعها. أفكّر أن أستمرّ بحسب مشاغل ناصر والصغيرة التي تأخذ معظم وقتي. أحسّ بأني أريد أن أكتب أشياء دون أن يعرفها أحد حتّى ناصر. يا ريت لو كنتُ أعرف أكتب.

لا يوجد تاريخ

الورقة التاسعة أو الثامنة

لا أعرف ما ذكّرني اليوم بالعمّ إلياس عازف الربابة لمّا كان يعزف في سهرات المَشتى ليلاً على قناديل الزيت ويغنّي بصوته الشجي، ربّما لأننا دخلنا فصل الشتاء، فتذكّرتُ أعيادنا المجيدة. كان المشتاويون يغطسون في النهر قرب الدُّلْبَة في يوم الغطاس رغم برودة مياهه، أمّا ليلة أحد المرفع الذي يسبق بداية الصوم، فكانوا يحملون سلالاً من أطايب المأكولات واللحم ويصعدون الجبل، ويبقون على قمّته يحتفلون ويتناولون الطعام قبل دخول الصيام الكبير.

أحبُّ أيّام الشتوية في البحرَين، تُشبه فصل الربيع عندنا. كان الفصل شتاءً حين وصلتُ أوّل مرّة إلى هنا. عندما اقتربَ الصيفُ، اشتدّ الشُّوب سريعاً حتّى صار الجوّ حارّاً مثل تنّور ساخن. أذكرُ لمّا بكيتُ أوّل صيفٍ من الحَرّ، أخذَني ناصر إلى البحر. مشيتُ على الشاطئ وخضتُ في مياهه، ثمّ جلستُ على رمل البحر الذي يدخل بين أصابع قدمَيّ. استمعتُ إلى موج البحر الذي يُذكّرني بهدهدة الأمّهات لأطفالهنّ، وشممتُ زفر البحر الذي لم أكن أحبّه، ولكنْ، اعتدتُ عليه.

كبرَت سارة وصارت تحبو، وطلع لها سنّان أماميّان سفليّان، وصارت تعضُّ إصبعي لمّا أضعه في فمها. نأخذها إلى الشاطئ القريب، فيجلبُ لها أبوها أصدافاً لها أشكالٌ غريبة وأحجامٌ مختلفة، ويسمّيها بأسماء محلّية لا أتذكّرها، أغلبها ملساء ناعمة، وبعضها لها حوافّ مدبّبة، وأخرى كأنها صحن صغير، تلعبُ بها، وتجلبُ بعضاً منها إلى البيت.

صرتُ أحبّ البحر، يُذكّرني بالنهر القريب من شجرة الدُّلْبَة، وخاصّة بعد أن حكى لي ناصر قصص الرحلات التي يروح إليها الرجال ويغيبون عن بيوتهم لأشهر. أهداني ناصر قلادة طويلة بعد ولادتي بسارة مصنوعة من لآلئ البحرَين، ألبسُها في الأعياد والمناسبات. وكلّما لمستُ الدوائر الدقيقة التي تُشبه حبّات الأرزّ، فكّرتُ في المرّات التي غاصوا ليجلبوا تلك المحارات كلّها، وفي التعب والخوف والمخاطر التي يتعرّضون لها في كلّ مرّة. سألتُ ناصراً كيف يمكنهم أن يفعلوا ذلك؟ أَلا يخافون؟ أجابني بأن البحر بالنسبة إليهم هو كلّ شيء .. إنه كالأب: عطوفٌ وإن قسا .. معطاءٌ وإن أخذَ.

التاريخ غير واضح

الورقة العاشرة

قبل نحو سنة قالت حليمة إنهم افتتحوا مدرسة للبنات في المحرّق يُعلّمون فيها البنات القراءة والكتابة وعلوماً أخرى مثل مدارس الصبيان. فرحتُ وأخبرتُها برغبتي أن تدخل سارة المدرسة لمّا تكبر، فشهقت وقالت إنها سمعت أنهم يعلّمون فيها أموراً غريبة وعلوماً عجيبة لا يقبلونها، ونصحتني أن لا أفكّر في الأمر؛ لأنها متأكّدة بأنَّ ناصراً لن يوافق أن تدخل ابنته المدرسة، وقبل ذلك كلّه هي بعيدة في المحرّق.

درسَت أختي سارة في المدرسة الإنجيلية الأمريكية عند المعلّمة

شمس في قسم البنات، وفيّاض عند المعلّم قاسم في قسم الصبيان، أمّا أنا، فاكتفت الخالة عفيفة بتعليمي الحروف الهجائية، وكنتُ أخطّها بأصابعي معها على الرمل، وحفّظتني بعض الصلوات ومزامير داود بأجزائها السبعة، ولّما طلبتُ منها أن تُدخلني المدرسة قالت إن ذلك غير ممكن لأنني عمياء. ما استوعبت عذرَها في ذلك الوقت، ولكني افتقدتُ أن أتعلّم وأقرأ القصائد والأشعار مثل سارة وفيّاض، وأريد أن تدخل سارة المدرسة وتتعلّم.

اليوم زارنا حجّي صالح، تسلّل صوته الخشن من شبّاك غرفتي المُطِلّ على الفناء، فحملتُ سارة ورحنا نُسلّم عليه. نبرته القويّة والمرحة تُعطيني دائماً انطباعاً بأنّه شابٌّ، وقويٌّ، وطويل، ومفتول العضلات. توقّفَ ناصر عن الكتابة لّما قلتُ ذلك، وظلَّ يضحكُ ويضحكُ دون أن يتوقّف، وما فهمت سببَ ضحكه، ولكنْ، حدستُ بأن ظنِّي عن الحجّي كان خاطئاً، ووسط ضحكاته وقهقهاته ما أخبرني السبب، واقترحَ أن أسأل حليمة.

نادته سارة باسمه، بقلب الحاء ألفاً فصار أجي، ومشَت نحوه. لا أنسى حين تأخّرت سارة في المشي، وضعَتها حليمة في سلّة مصنوعة من سعف النخيل نسيتُ اسمها (ها هو ناصر ذكّرني بأنهم يسمّونها الجفير) ودارَت بها في بيوت الحيّ، ورجعَت وسلتها ممتلئة بما جاد الجيران من المكسّرات والسكّريات، وبعدها بأيّامٍ خطَت خطواتها الأولى.

سمعته يُعلّمها أسماء الأشجار والأزهار .. هذي بَمْبر ..

مشموم .. رازجي .. نخلة .. وتردِّد وراءه الأسماء بطريقة مضحِكة فيضحكُ عليها. بعد قليل أخبرَنا بأنه سمع من الناس أنهم استأجروا بيت أحد التجّار في المنامة، ليفتتحوا فيه مدرسة أخرى للبنات بعد المحرّق. تحمّسْتُ وازدادت سرعة دقّات قلبي، وأحسستُ بضوءٍ يظهر أمامي. كنتُ أنتظر هذا الخبر منذ أن سمعتُ عن مدرسة البنات في المحرّق.

الثلاثاء 10 أيلول 1929

الورقة الحادية عشرة

اليوم سألتني حليمة لأوّل مرّة عن سبب إصابتي بالعمى حين كانت تضفر شَعري. أشعرُ أننا صرنا قريبتَين أكثر من أيّ وقتٍ مضى. كانت تضع المشموم بين ضفائري وتخبرني بأنّ شعَر سارة مثل شَعري ناعمٌ ولونُه يُشبه لون السكّر المحروق، يلمع تحت أشعّة الشمس. ثمّ قالت إنها تُشبهني في كلّ شيء إلّا أن عينَيها تُشبهان عينَي والدِها الواسعتَين، وليست كعينَيّ اللوزيَّتَين. ثمّ سألتني وهي مستحية هل أُصِبتُ بمرضٍ في عينَيّ سبّب لي العمى؟ أخبرتُها بأنني لا أذكرُ يوماً رأيتُ فيه، ولا أعرف ما الرؤية في الأساس. في طفولتي كان فيّاض يصفُ لي أشياءَ لا أفهمها ونحن نتحدّث، كأن يخبرني عن البثور الحمراء التي تملأ وجه ابنة خالته، أو الشامة الكبيرة على خدّ أمّه، أو عن قريبتهم الختيارة ذات الوجه المجعّد والشَّعر الأبيض، والوحمة على ذراعه اليسرى، والغيوم لمّا تتحوّل إلى اللون الرماديّ قبل أن

تمطِر. ولّما استوعبَ جهلي الكلام الذي يقوله صار يشرحُ لي الأشياء ويصفها بطريقته، كأنْ يصفَ خَدَّي عمّته السمينتَين كتفّاحتَين، أو أنف الخالة وجيهة الحادّ كمنقار الديك، وبثور وجه ابنة خالته كحبّات عدس غير مطهوّة، فأضحكُ وأنا أتخيلُ ما يقوله.

أخبرَتني الخالة عفيفة التي ربّتني بأنني لم أكن أتفرّج على ما حولي مثل بقية الأطفال، ولا أنتبه للأشياء التي تقتربُ نحوي. عرضَتني على الحكيم، والخوري، بدون أيّ نتيجة. أمّا أمّ جميل، فلا تذكرُ حالةً مثل حالتي في الضيعة، فالعمّ سامح كُفَّ بصره بالتدريج بعد أن اقتربَ من الخمسين، والعمّة نهلا بعد أن صارت جَدَّة لعشرة أحفاد، وزاخور أحد أقرباء أمّي فَقَدَ عينه اليمنى بعد تعرّضه لحادثة في أثناء تركيبه حدوةً لأحد الخيول. اشتهرت عائلة أمّي بعملهم في اختيار وصناعة وتركيب الحدوات لحوافر الخيل والبغال، التي تُصنَع من الحديد والمعدِن، ومنها جاء لقَبهم البيطار واشتهروا به. علَّم جَدِّي البيطار تلك المهنة التي تحتاج إلى شجاعة وصبرٍ زاخور وإخوتَه، قبل أن يرحل، دون أن يُرزق بأبناءٍ أو أحفادٍ ذكور يورثهم مهنته. أخبرتْني أمّ جميل بأنه كان ماهراً في عمَله، وقصَده المكارية وأصحاب الدوابّ من القرى المجاورة بعد أن ذاع صيته، ومنها تعرّف إلى والدي الذي نزحَ من قريته وزوّجه ابنته.

الصفحة الثانية مفقودة

35

الصورة الثامنة عشرة

البرنامج: سيّارة تقف أمام مبنى.

بدا ذاك المساء عادياً كبقيّة المساءات في دبي، عندما اجتمع رجالٌ في مجلسٍ من مجالس الأعيان في الشندغة بعد صلاة التراويح، يتحدّثون عن أخبار سفن الغوص وأملهم في وصولهم قبل العيد، وإلقاء قنبلتَين على اليابان، فتكتا بخلقٍ كثيرين لا يُقدّر عددهم، وانتحار هتلر قبل وقوعه في يد الحلفاء، عندما حرَّك الصبي مؤشّر المذياع على أخبار لندن، وسمعوا الخبر الذي انتظروه طويلاً. لقد وقَّعت اليابان أخيراً وثيقة الاستسلام، وانتهت بذلك رسميّاً تلك الحرب العظمى التي بدأت في أوربّا وقسَّمت العالم وأهلكته، وقتلَت وشرَّدَت نفوساً كثيرة.

صباح اليوم التالي عرفَ عليّ الخبر من العمّ عبد الله بن ثاني، الذي يعمل لديه محاسباً منذ أن عاد من البحرَين، ولكنَّ فرحتَه بُترت مع وصول خبرٍ من أحد القادمين من البحرَين عن غياب ناصر بن سالم من السوق، إذ أصابه الفالج وصار حبيس البيت لا يراه أحد. اختلطَ عليه القرار بين تجاهل الخبر أو السفر إليه، لكنه حسَم أمره وقرّر السفر إلى المنامة. مع وصول سُفن الغوص ثاني أيّام عيد الفطر كان عليّ قد غادر إلى المنامة.

وقفَ يستجمع ذكرياته عند جانب البيت في حيّ الفاضل. مسَح على الجدار الجانبي، مستعيداً العبارات التي كُتبت عليه. رفعَ رأسه نحو النافذة الموصدة، ثمّ نفضَ يده على ثوبه، وسارَ نحو الباب الخشبي الذي حفظَ أدقّ تفاصيله ونقوشه. لمحَ السيّارة الزرقاء واقفةً أمام عتبة البيت

يكسوها الغبار والصدأ، واستذكر المرّات الكثيرة التي قادها فيها. خفَق قلبه مثل أوّل مرّة عندما دقَّ على المدقّ النحاسي. أطلّت حليمة تُغطّي نصف وجهها بغطاء رأسها الذي أزاحته فور أن رأته، وصاحت:

- عليّ .. إشلونك؟

- الحمد لله.

ثمّ سأل عن العمّ ابن سالم. أشارت حليمة ناحية البيت، وهمسَت:

- أكيد عرفت؟

أطرقَ الشابّ، وأومأ رأسه بالإيجاب. مسحت دموعاً بطرف غطاء رأسها، واستأذنته لتُعلمه بقدومه. انتظر طويلاً حتّى كاد يعود أدراجه، إلّا أنها رجعت وأدخلته. رآه مستلقياً فارِداً رجلَيه على الكرسي الطويل في الليوان أمام شجرة البَمْبر، وجذعه العلوي متّكئ إلى مسندها الجانبي. كان يغطّي جذعه السفلي بلحاف رقيق، على الرغم من حرارة الجوّ، ويستمع إلى المذياع. ولمّا رآه أشرق وجهه ونطق اسمه ببطء، وفي لحظة وجد عليّ نفسه في حضن الرجل الذي عوّضه شيئاً من يُتمه في فترةٍ ما. ثمّ سحَب كرسياً خشبياً منفرداً وجلس مواجهاً العمّ ناصر، وأحسَّ في تلك اللحظة كأنَّ الزمن عاد إلى الوراء.

أراد المغادرة بعد الغداء، فأمسكه العمّ ناصر من ذراعه بكفَّيه الضعيفتَين:

- لا تروح.

- لازم ترتاح عمّي.

التقطَ أنفاسه، ثمّ أكمل:

- تعبتُ من الراحة.

ثمّ نظر عالياً نحو غرفتها، حيث النخلتان المتجاورتان:

- ما لَها أحد بعدي.

أجابه عليّ:

- ما عليك شرّ عمّي، والبركة فيك وفي ولد عمّها.

- تركَته.

سادَ صمت، تخلّله صوت قرقعة الصحون والقدور من المطبخ.

- ما أخبروك؟

نفى معرفته، وكان صادقاً.

- ما حملت وتزوّج عليها، والثانية ما حملت بعد، وما اقتنع إنّ العيب فيه.

سكتَ قليلاً، وبدا أنّ الحديث المتواصل يُتعبه. ثمّ أكمل:

- ولمّا تزوّج الثالثة رجّعتها.

- أ أ .. أنا.

قالها، ولم يكمل. قام ووقف تحت ظلّ شجرة البَمْبر مولّياً ظهره للرَّجل المستلقي على الكرسي، وكاد يبتلعَ ما أراد قوله ويهرُب، إلّا أنّه أحسَّ بأنّ للكلمات في عقله دويّاً، كدويّ خلية نحل يجب أن يُحرّرها. وفي لحظةٍ أطلقَ لسانه وأخبره بكلّ ما في أعماقه، من البَمْبر .. المتنبّي .. الهوامير .. العومة .. الفورد الزرقاء .. فطّوم .. العتّال .. البصرة .. وكلّ شيء .. ولمّا

أحسَّ بسكون الدويّ، اختلج صوته، وتوقّف، ثمّ سار جهة الباب نادماً على كلّ ما تفوّه به. أوقفه العمّ ناصر بصوتٍ ضعيف، ونادى حليمة. سألها حين أقبلت:

- كنتِ تعرفين؟

قلَّبت نظراتها الحائرة بين الرجلَين، ثمّ بلعت ريقها، وقالت بتوجّس:

- إيه .. بس.

- ما أخبرتيني.

- ممم ..

- أحينه مرزوق يروح عند الحجّي ويطلب منه يجيب الشيخ وشاهدين بعد صلاة العشاء.

فتحت حليمة عينَيها وفاها:

- ما فهمت؟

ونظرَت نحو عليّ مستفهمةً. أجابها العمّ ناصر:

- المتحابّون ما لهم غير الزواج.

شهقَ عليّ ونظَر نحو حليمة. وفي الحال علا صوت زغاريدها. أمّا هو، فلم يكن مستوعباً ما جرى حوله، ولكنه كان حقيقيّاً. قطعاً لم يكن يحلم.

36
حافّة الضوء

اليوم منتصف شعبان. نصوم أنا وأمّي وجَدِّي. نفطرُ معاً. بعدها يطلب منّي جَدِّي أن نتواصل مع خالي وعائلته عبر زوم. ينهي جَدِّي المكالمة أسرع من المعتاد. أطلبُ منه أن يُكمل حكايته، لكنه يعتذر ويذهب إلى مكتبه.

أذهبُ إليه مساءً. نتمشّى في حديقة البيت، ونتفقّدُ غافاته. خطر لي أن أسأله متى نزرع غافة، لكنني أؤجّل السؤال. ندخلُ الفيلّا، وننام مبكرّاً.

يأتي الخميس بعد يومٍ من منتصف شعبان، يمرّ الصباح مُملاًّ بطيئاً، وعند الغداء نجتمعُ ثلاثتنا على طاولة الطعام. يقول جَدِّي: هذا أحسن شيء صار في الحظر. ويقصدُ أننا نتشارك المائدة كلّ يوم. نأكل أرزّاً ومرقة دجاج طبَختهما أمّي. ما حصلنا على سمك من نوع الصَّافي في السوق، تقطع أمّي صمتنا في أثناء الأكل. يجيبها جَدِّي: في هذي الظروف يجب أن نتعوّد على الموجود .. تسلم إيدك .. المرقة لذيذة. كانت كذلك بالفعل، أمّي التي لم تدخل المطبخ منذ سنوات عادت إلى الطبخ.

بعد الغداء نشرب الشاي. يكسرُ صمتَه سعالٌ بين حين وآخر. ثمّ يتّجه إلى غرفة جَدَّتي نورة. أتبعه. أعرف أنه ما دخَل الغرفة منذ آخر مرّة بعد وفاتها. هذا الحظر يذكّرني بها كلّ لحظة. يُتمتم كأنه يُحدّث نفسه وهو يدخلُ غرفتها. وأنا بعد، أجيبه. سأرتاح. أسأله متعجّبة: هنا. لا يردّ. يستلقي على السرير. أغطّيه باللحاف. يُعطيني قحفيّته ونظّارته وشريحة الحبوب المنوّمة. أضعهما على الطاولة الجانبية للسرير. أتركه.

أرسل رسالة إلى حامد: لا تنسَ، موعدنا اليوم الساعة ثمانية على زوم. يجيبني على الفور: نحن في البيت ما نطلع، حالنا من حالكم. قبيل المغرب أخرج من غرفتي. أسألُ إيفلين عن جَدِّي. لا أعرف، تقول وتكمل عملها. أذهبُ إلى مكتبه. لا أجده. أناديه في الحديقة، لا يردّ. أدخلُ الفيلّا إلى غرفة جَدَّتي. أقتربُ من السرير. أتحسّسُ الطاولة الجانبية للسرير. ما زالت نظّارته وقحفيّته وشريحة الدواء هناك. أتلمّس مكانه. ما يزال نائماً. أسمع صوت المؤذّن من المسجد القريب. الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلّا الله. أناديه: أبويه سالم، أذَّن المغرب، أبويه سالم. لا يتحرّك. ألَا صلّوا في رحالكم. أبويه سالم. أهزّه. أصرخ، أبويه سالم. صوت الباب يُفتَح. أسمع صياح أمّي، يتبعه صياح إيفلين. أبويه .. بابا سالم.

أتشبّثُ به. أناديه. لا يردّ. أسمعُ دقّات قلبه. تتّصل أمّي بالإسعاف وبخالي. الغرفة باردة. أسمعُ نحيب أمّي. أبويه سالم لا يُصدِر صوتاً. يدخل الغرفةَ غرباءُ لا أعرفهم. يُبعدونني عنه. أصرخ. يعبثون بجسده. يحملونه. أُبعدهم. أصرخ. اتركوه. تمسكني إيفلين. يضعونه على نقّالة. يدفعونها خارج الغرفة. أسمع صرير عجلاتها تبتعد. أصيح. أدفع إيفلين بعيداً عن طريقي، وأركض نحوه. أتمسّكُ بالنقّالة. أسير معهم. أركبُ معه سيّارة الإسعاف. يضعون كِمَامَة على وجهي. تصرخ أمّي: ارجعي. يصيح المسعف بزميله: جهاز الأكسجين. أمسكُ بيده. أبويه سالم ما كمّلت السَّالفة. يرطنُ المسعفان بالإنجليزية. أنحني. أقترب منه. أبويه سالم .. أبويه سالم. يعلو أنين الإسعاف. الشوارع خالية مع الحظر. تسير السيّارة دون توقّف. ضجّة هائلة حولي، رنينٌ، وأصوات الأجهزة الطبّية، وهدير السيّارة، ورطانة المسعفَين، وصوتي. أصيح باسمه. كلّ شيء كان يصرخ في تلك الأثناء .. كلّ شيء كان صاخباً .. إلّا جسده .. كان هادئاً .. صامتاً .. ساكناً .. وديعاً .. مستسلماً.

ويخرج أبويه سالم من حياتي قبل وصولنا إلى المستشفى بلحظات.

37
ضوء

نورة .. نورة .. نورة. أستيقظُ على صوته. أبقى لحظات على السرير، أنفضُ حُلمي وأحاول أن أستوعبَ ما حولي. أبحثُ عن صوت أبويه سالم. أعصرُ ذاكرتي. أسمع صوت الهاتف. أمسح بيديّ السرير البارد. أجده عن يساري تحت اللحاف. أتحسّسه بسرعة: الواحدة وثلاثة وعشرون دقيقة مساء، الأربعاء، الخامسَ عشرَ من إبريل. لا أعرف كم أمضيتُ نائمة. رأسي ثقيل. أرمي جسمي. أجبر نفسي على النوم. لا أستطيع. تدخل إيفلين: نورة، كم ستنامين؟ يتبعها صوت فتْح الستائر والنوافذ. يتسرّب هواء حارّ. ما أكلتِ شيئاً منذ يومَين، ماذا أحضّر لكِ؟ لا أشتهي. سأعِدّ لكِ سندويشات جبنة، تقول وتتركني. تصلني إشعاراتٌ بوصول مكالماتٍ لم أردّ عليها من حامد، وجَدَّتي مريم، وأبي، ورسائل كثيرة منهم، وأخرى من الجامعة بأنَّ طلبي بإعادة الالتحاق جرَت الموافقة عليه وسيحوّل إلى العام الدراسي المقبل، ورسائل متكرّرة من شرطة دبي للتذكير بمواعيد برنامج التعقيم والحظر.

تأتي إيفلين بشريحة توست بالجبنة. تضعها أمامي. أقضمُ التوست. أكتشفُ أنني جائعة بالفعل. أشعرُ بالظمأ. أتجرعُ قِنِّيْنَة ماء دفعة واحدة. صداعٌ يصاحبني كنبضٍ متواصل، وصدى أنين الإسعاف ما زال يخترق أُذُني. أبحثُ في الأدراج عن حبوب بانادول. تصطدمُ أصابعي بشريحة الحبوب المنوّمة وببذور غافٍ متناثرة. أجمعُ البذور وأعيدها في المحرمة الورقية. أبتلعُ حبّتَي بانادول، وألقي برأسي على الوسادة.

أدخلُ مكتبه عند الأصيل. أجلسُ كما كنتُ أفعل. مكانه فارغ. رائحة كُتُبه وتبغه عالقة في المكان، وإن خفّت قليلاً. أستعيدُ صوته: تزوّجا، وشهدَ العمّ ناصر ولادة أوّل أحفاده سالم، ورآه يمشي لأوّل مرّة في الحَوش تحت شجرة البَمْبر التي كان يحبّها. أسمعُ ضحكته، كأنه أمامي، يقول: ما تشوفيني أحبّ البَمْبر أو اللمبو أبو الرَّوان مثل ما نسمّيه عندنا، وأنتظر موسمه كلّ صيف. ثمّ يُكمل الحكاية.

ذات جمعة دخلَ كلّ مَنْ في البيت غرفتَه بعد فطورٍ شهيّ أعدّته حليمة، وقبل صلاة الجمعة عرجَ عليّ على العمّ ناصر، ليساعده في الوضوء، فوجده نائماً على جنبه الأيمن في مجلسه على فراشٍ وُضع ليرتاح عليه في أثناء النهار. كان وجهه ناحية النافذة المطلّة على شجرة البَمْبر المزهرة، وبين يدَيه أوراقٌ تناثر بعضها حوله. جمَع الأوراق بهدوء، ووضعها قربه. أمكنه أن يلاحظ أن الكلمات مكتوبة بخطّ يده الذي يعرفه جيّداً، ثمّ هزَّ ذراعه بلطفٍ ليوقظه، فتناثرت بقية الأوراق من يدَيه.

أخرجُ من مكتبه. أتحسّسُ شريط الحبوب المنوّمة. لم يبقَ منها سوى قرصَين. أتردّد للحظات. أعصر الشريط بكفيّ وأرميه في سلّة القمامة. أسير نحو الغافتَين. أبحثُ عن الأصيص. أتذكّر مكانه بينهما. أحرّكُ عصاي يميناً ويساراً بحذر. أجدُه. أركع. أتحسّسُ المكان. تصرخ إيفلين من بعيد: ماذا تفعلين وحدكِ؟ هل تحتاجين إلى مساعدة؟ لا، أجيبها. أتقرفصُ. أتحسّسُ التراب، أحفر فيه. أتذكّره يقول: نضع في الحفرة بذوراً سليمة منقوعة في الماء، ونسقيها شوية ماء، وبعد أسبوع تنبت. أنثرُ ثلاثة بذور بعد أن نقعتُها في الماء. أهيل عليها التراب. يداي معفّرتان بالتربة. تغمرني نسمة هواء محمّلة بعبق عطور شرقية. تناولني إناءً به ماء، أسقي به البذور.

وأتينا صباح اليوم الثاني؛ لنسقيَها، واليوم الثالث، والرابع، والتالي،

حتّى نبتت أوّل بذرة في اليوم السادس. برعمٌ أخضر صغير يُخرِج رأسه بين حبّات التراب. سأصوِّر الأصيص، ويخبرني البرنامج بأنّ في الصورة نباتات خضراء، فأتذكّره حين ضحكَ وقال: برنامجكِ ما يعرف أشجار الغاف. سنشعرُ بشيءٍ نبت في أعماقنا، أشعلَ وميض ضوء. في اليوم السابع ستنبت بذرة أخرى، وسيكبرُ هذا الشيء الذي نبت، والضَّوء الذي اشتعل.

سوف ننتظرُ غافة جَدِّي حتّى تطول، وتشرئبّ إلى غافة جَدَّتي وابنها. سوف نعيدُ ترتيب أوراق ماري حنّا، ونقرؤها، ونرتّب صور جَدِّنا، ونخطّط لعرضها أو لجمعها في كتاب حين يرجع العالم كما كان. سوف أقتنص اللحظات التي تغنّي فيها أمّي حين تكون وحدها لسماعها، وأحلمُ بيومٍ تُغنّي فيه أمامي كما كانت تفعل في صباها. سوف ألتحق بالجامعة، ويسألني حامد أسئلته المشاكسة: لماذا التحقتِ بالجامعة وعمركِ فوق الثلاثين؟ كيف تدرسين، وتقرئين وتكتبين وأنتِ ما تشوفين؟ وهل تحبّين الدراسة ..؟ عندها سوف أخبره عن هيلين كيلر، وسهير التي أرادت أن تكون مثل طه حسين، وأبلة فوزية التي تعلّمتُ منها الكثير، وبرايل الذي فتح لي كُوّة ضوء.

وسوف يعودُ هدير البحر .. سوف يعود .. ولكنْ، وللغرابة، سيبدو صوته لي حينها عادياً .. صوتاً كبقية الأصوات.

الورقة الثانية عشرة

دخلَت سارة مدرسة مدرسة البنات في المنامة، وتدرسُ فيها القراءة والكتابة والخياطة والتطريز والرسم وعلوماً أخرى. توصلها حليمة كلّ يوم الصبح، وأحياناً أرافقهما، والظهر

يرجعها أبوها. أنبسط لمَّا تخبرني عن رفيقاتها ومعلّماتها، والأشياء التي تتعلّمها، وتردّد القصائد التي حفظَتها، مثل ما كانت تفعلُ خالتها.

خالتها سارة .. أفكّر فيها ليل نهار .. كيف حياتها الجديدة؟ وهل هي تُفكّر فيَّ مثل ما أفكّر فيها؟ يمكن أنجبت ثلاثة أولاد أو أكثر، فقد كانت تحلمُ بأن تكوّن عائلة كبيرة. على الأرجح تعلّمت لغتهم وتعرّفت على عرب آخرين في المهجر، وكوَّنت صداقات كثيرة؛ فهي لطيفة المعشر وتحبّ الناس، وربّما سمّت ابنتها ماري، وأخبرت أولادها عنّي وعن المَشتى والخالة عفيفة وحكايات أمّ جميل.

آخر مرّة كنّا مع بعض لمَّا سافرنا إلى طرابلس، ومنها إلى بيروت، ومعنا الخالة عفيفة. وافترقنا جميعاً، راحت هي مع زوجها عبر البحر في رحلة طويلة إلى البرازيل، تتوقّف خلالها السفينة في اليونان، ويقضي المسافرون على متنها ثمانية أيّام في الكارانتينا، وأنا مع ناصر الذي تزوّجته في بيروت، إلى البصرة برّاً ومنها بحراً إلى البحرَين، أمّا الخالة عفيفة، فرجعت مع ابنها إلى المَشتى. بكت الخالة عفيفة بحُرقة لمّا ودّعتنا، ولم تهدأ إلّا حين وعدَها فيّاض أن يتزوّج ويبقى عندها.

ودّعتُ سارة عند الميناء، وأعطيتُها صورةً لي التقطَتها عدسة أحد المصوِّرين الأرمن في بيروت. قال ناصر إنها نسخة طبق الأصل من ملامحي وشكل فستاني الذي اشتريتُهُ من أحد المحالّ في بيروت. نعرفُ أننا لن نلتقي مرّة أخرى وإنْ لم

نتحدّث في الأمر، وستفصلنا منذ اليوم محيطات وبلدان كثيرة. سألَتني إن كنتُ متأكّدة من قراري. سكتُّ لحظات، ثمّ ذكّرتُها باليوم الذي ذهبنا فيه إلى الضَّوايات مع أهل الضيعة، لنتفرَّج على المغارة التي اكتشفها مصادفة أحد رعاة الغنم لمّا سقط أحد خرافه في ثقبٍ من ثقوبها الطبيعية. لمَّا كنّا داخل المغارة شرحَت لي سارة شكل الثقوب المضيئة في سقفها، وحبال الضوء المتسرّبة منها، التي تسقط كدوائر على الأرض، فسألتُها عن شكل الضوء؟ أجابت بأنها لا تعرفُ كيف تصفه، ثمّ فكّرت، وقالت: لا يمكنني حتّى أن ألمسه، إلّا أنه يُنير المكان ويرشدنا، وبدون الضوء لا نعرف الطريق وإلى أين نروح، ثمّ سحبَتني نحو إحدى الدوائر المضيئة في المغارة، وأخبرَتني بأنني أقفُ تحت الضوء. بسطتُّ حينها كفّيَّ، باطنهما نحو السماء. كنتُ أحاول أن أكتشف الضوء أو أمسكه أو أحسّ به، ولكنْ، ما فهمتُ حينها ما الضوء.

في ذلك اليوم على الميناء صارحتُها أنني اكتشفتُ أخيراً الضوء وإن كان مختلفاً عمّا تراه. ربّما شيء يخصّنا .. تصوّرتُه شيئاً يأخذ بيدي .. يرشدني .. يدلّني على الطريق .. هذا هو ضوؤنا نحن .. نحن العميان.

ما علّقت على كلامي، إلّا أنها عانقَتني، وعلى الأرجح للمرّة الأخيرة.

الجمعة 8 شباط 1935

مكتبة
t.me/soramnqraa

"أخاف أن نكونَ جميعاً عمياناً ندور في دوائرَ أبديّةٍ من اللا حياة."

أمل السهلاوي

تنطوي هذه الرواية على الكثير من الإثارة والترقّب من حيث إن الشخصية الرئيسة فيها، نورة، راوية الأحداث عمياء. من خلال صورٍ فوتوغرافية يتعرف عليها تطبيق إلكتروني ويشرح محتواها، تروي نورة تاريخ الصورة، وتبعاً لذلك تاريخ الأشخاص الظاهرين فيها. وعبر ذلك التاريخ الشخصي لأفراد عائلة نورة، سنرى تاريخ الخليج العربي عامة، وتاريخ دبي قبل اكتشاف النفط، والبحرين خلال المرحلة الأولى لاكتشافه بصفة خاصة، بعيون عمياء.

كُتبت الرواية بأسلوب منظّم ومبوّب ودقيق، ساعد على ذلك سرد لغوي هادئ وانسيابي كما لو أن نهراً يحفر مجراه بهدوء وأناة. عندما تصف نورة حركاتها وتنقلاتها كعمياء، فإنها تصفها خطوة خطوة، ما يعني في الكتابة جملة جملة، مع ما يترتب على ذلك من وضع نقطة بعد كل جملة / حركة.

سيتعرف القارئ شيئاً فشيئاً على عوالم المكفوفين، وعلى تاريخ بلد قبل وبعد اكتشاف النفط، وسيقوم، بكل يسر وسلاسة، بإجراء دراسة مقارنة دون أن يضطر للعودة إلى أي مرجع آخر سوى هذه الرواية.

ISBN 979-12-5591-056-5

مكتبة
t.me/soramnqraa

9 791255 910565
المتوسط